جمهورية مصر العربية



مجمع اللغة العربية

بحوث وباحثون

للدكتور إبراهيم مدكور

رئيس المجمع

الكتاب الثاني

باحثون

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

جمهورية مصر العربية



مجمع اللغة العربية

بحوث وباحثون

للدكتور إبراهيم مدكور
رئيس المجمع

الكتاب الثاني

(باحثون)

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

أعد مادة هذا الكتاب

عبد الحكيم صلاح عبد الحكيم

المحرر بالمجمع

صححت تجاربه

سميرة صادق شعلان

المحرر الثانى بالمجمع

أشرف

على الكتاب وراجعه

ونسق فصوله

سعد توفيق حمدى

مدير إدارة

التحرير والشئون الثقافية

بالمجمع

أولا

الاســـتقبال

محمد الفاسي

آنساتي ، سادتي :

لم يكن مقدراً لى حقيقة أن أتشرف بالحديث إليكم اليوم ، ولكن طارئا أستطيع أن أطمئنكم مبدئيا بأنه خفيف – طرأ على الزميل الدكتور طه حسين الذى كان مفروضا أن يتولى استقبال زميلنا الكريم السيد الأستاذ محمد الفاسى .

وكم كان يحق لى أن أتردد فى قبول هذه المهمة ، لاسيما ولم تبلغ لى إلا بعد ظهر الأمس إلى أنى لم أتشرف من قبل بمعرفة الزميل ، اللهم إلا فى جلسة واحدة من جلسات المجمع .

إلا أن هذه الجلسة نفسها هى التى شجعتنى على أن أضطلع بهذه المهمة وإن لم يتسع لى الوقت لقراءة الزميل فيما كتب وألف ، وتتبع آثاره على اختلافها واكتفيت بما لمست فيه من روح وثابة ومنهج سليم فى جلسة الأسبوع الماضى . وأنا واثق كل الثقة من أنه سيغفر لى إذا لم أوفه حقه .

أيها السادة :

لم يفت مجمع اللغة العربية منذ البداية أن يتجه نحو شمال إفريقية ، لكى يكون ممثلا فى بنيانه وعاملا فى تكوينه ، ومنذ النشأة الأولى وفيه عضو بارز من تونس هو السيد حسن حسنى عبد الوهاب الذى صاحب المجمع نحو ربع قرن يساهم فى رسالته ، ويخدم اللغة ما وسعه .

---

(١) ألقيت فى الجلسة العاشرة للمؤتمر فى ١٥ / ١ / ١٩٥٩ (الدورة الخامسة والعشرون) .

واليوم ينضم إلينا عضو كريم آخر ، هو السيد محمد الفاسى ليضطلع بالأمانة ويعاون المجمع بعلمه ونشاطه .

ولم يكن غريبا أن يتجه المجمع هذا الاتجاه ، فإن سكان شمال إفريقية يمثلون اليوم تقريبا ثلث الناطقين بالضاد ، ولهم إنتاجهم العلمى واللغوى الواسع ، وأثرهم فى النهضة العربية المعاصرة . وبذا تتصل السلسلة ، وتتابع الحلقات ، وترتبط نهضة اليوم بنهضة الأمس ، ويبدو العالم العربى فى مظهره الكامل .

ولا نزاع فى أن الثقافة الإسلامية كل متصل الأجزاء ، وإن كانت نبتت فى الشرق فقد نمت وترعرعت فى الغرب ، ومؤرخها لا يستطيع أن يعطى عنها صورة صادقة إلا إذا ألم بأطرافها المختلفة . وإذا كنا نتحدث عن أدب شرقى وآخر غربى ، فهما معا يكونان الأدب العربى . والعلوم الإسلامية على اختلافها مدينة لجهود رجال الغرب والشرق معا ، فالفقه المالكى الذى نبت أول ما نبت فى المدينة غذى بغذاء صالح فى الغرب ، بحيث لا يستطيع متحدث عنه أن يستوعب تاريخه ويلم بمصادره ، إلا فى ضوء مؤلفين وباحثين من سكان المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه .

والنقد الأدبى نشأ أول ما نشأ فى الشرق ، ثم لا نلبث أن نجد نقادا ، ونقاداً ممتازين فى شمال أفريقية . ويكفى أن نشير إلى ابن رشيق القيروانى صاحب العمدة الذى استكمل دراسته ، وخرج به من بحوث فرعية تتصل بشاعر وخطيب إلى بحوث مكتملة تدور حول عصر بعينه ، وبعبارة أخرى خرج به من البحث الجزئى إلى الدراسة العملية الشاملة . ونحاة المشرق ، وعلى رأسهم سيبويه والكسائى ، وضعوا دعائم الأجرومية العربية ، ثم أسلموها إلى إخوانهم المغاربة ، فهذبوا فيها ونقحوها ، وأضافوا إليها الجديد والطريف ودراسة النحو فى القرون الأخيرة مدينة لابن مالك المغربى بدرجة لا تقل عن أعلام المشرق الأول .

وإذا كنا نتحدث عن فلسفة شرقية وأخرى غربية ، عن فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا فإنا نتحدث أيضا عن فلسفة ابن باجه وابن طفيل

وابن رشد . وهاتان المدرستان الفلسفيتان ، وإن تعارضتا أحيانا، تعبران عن مذهب فلسفي واحد ، وتصوران الفلسفة الإسلامية فى شقيها المتقابلين :

والإسماعيلية بما اشتملت عليه من دراسات ونظريات نبتت بدورها فى الشرق ، ثم امتدت إلى الغرب ، ووجدت فيها أعوانا نهضوا بها ، وبسطوا نفوذها ، واستولوا على مصر ،فكانت الدولة الفاطمية بما لها من علوم وحضارة.

فالثقافة الإسلامية إذن فى ظواهرها اللغوية والفكرية وحدة متصلة الأجزاء ، اتصلت فى الماضى ، ولا بد لها أن تتصل اليوم ، ولم تمنعها الفواصل الجغرافية ولا السياسية من أن تتعاون وتتضافر ، وستبقى على هذا التعاون لتستعيد مجدها الغابر ، وتؤدى رسالتها إلى جانب الثقافات الإنسانية الأخرى .

ولا أظننى فى حاجة إلى أن أشير إلى مراكش أو المغرب الأقصى أو دولة المغرب كما تسمى اليوم ، وما كان لها من شأن فى تاريخ الحضارة الإسلامية فقد كانت ركنا حصينا من أركان الإسلام فى شمال أفريقية وبلاد الأندلس ، ولا تزال حتى اليوم علم الاستقلال والسيادة والدعوة القوية فى بلاد المغرب عامة . ويكفى أن نذكر أنها تمثل الآن الطرف الأقصى للعالم الإسلامى نحو الغرب ، وكانت ملجأ التراث العظيم الذى كونته بلاد الأندلس ، فإن كثيرين ممن جنت عليهم أحداث الأندلس لجأوا إليها ، ولا تزال أسر أندلسية قديمة تسكن مراكش الآن وتعرف بأصولها الأولى .

ومما يلفت النظر أن دولة المغرب تلتقى مع مصر فى أكثر من موضع ، فهما معا ملتقى حضارات وأجناس مختلفة ، ففى مصر تلاقى اليونانى والرومانى والفارسى مع الفرعونى ، وفى مراكش تلاقى الفينيقى واليونانى والرومانى مع سكان البلاد الأصليين .

ويحاول البلدان كلاهما فى جد الجمع بين القديم والجديد ، وربط الثقافة الإسلامية بالثقافة الغربية . وانظروا إلى جامعة القرويين من جانب ، والجامعة الأزهرية من جانب آخر وتطورهما فى نصف القرن الأخير ، لتدركوا

مدى سعى البلدين إلى الملاءمة بين القديم والجديد ، وفى هذه التطورات كثير من الحلقات المتشابهة والمتقاربة . ولم يقنع المغرب بجامعته القديمة ، بل حرص على أن يضم إليها جامعة حديثة لا يساورنى شك فى أنها تلتقى مع جامعاتنا المصرية فى نواح شتى .

ومرت مراكش ، ومصر أثناء القرن العشرين ، بمحن وأحداث سياسية كثيرا ما تشابكت وترابطت ، بل قامت على ضرب من المساومات والمقاسمات إلا أن البلدين أخذا طريقهما إلى الاستقلال والحرية ، ولن يعترض سبيل يقظتهما أى معترض .

وتواجه مراكش ومصر مشكلة حيوية نقدرها جميعا قدرها ، وهى مشكلة تزايد السكان فى اضطراد ، وهذه الزيادة ملحوظة فيهما وبنسبة تكاد تكون متقاربة ولا بد لهما من أن يأخذا أنفسهما بنهضة اقتصادية حثيثة كى يواجها حاجة السكان التى لا تقف .

كل تلك ظروف جعلت التلاقى والتجاوب بين البلدين قديما وجديدا ، متصلا ومستمرا .

وها نحن أولاء نستقبل اليوم علما من أعلام مراكش ، هو الزميل الفاضل السيد محمد الفاسى ، وما أظننى سأقف طويلا عند حياته بقدر ما أقف عندما نعلقه عليه من آمال وما نرتقبه منه من جهد ومساهمة .

ولد الزميل الكريم فى أوائل العقد الأول من هذا القرن ، سنة ثمان وتسعمائة وألف ، ومن الطريف أن يضم مجمع الخالدين إليه شابا فتيا وما أحوجه اليوم إلى هذا الشاب وتلك الفتوة .

ولد السيد محمد الفاسى فى مدينة فاس ، وتابع دراسته على النحو الذى يتابع به أمثاله الدراسة هناك ، فالتحق بالمدرسة الثانوية ، وانتقل إلى جامعة القرويين ، ثم رحل بعد ذلك إلى فرنسا ليضم تعاليم الغرب إلى تعاليم الشرق وفى فرنسا قضى ثمانى سنوات دارسا ومدرسا متعلما ومعلما ، فحصل على شهادة

الليسانس ، وعلى دبلوم الدراسات العليا ، وشاء أن يتم إعداده العلمى برحلات فى عواصم أوروبا المختلفة قضى فيها نحو عامين ، وبعد ذلك عاد إلى وطنه الذى كان فى شوق إلى أمثاله ليرفعوا الراية ويحملوا العبء فى تنشئة الجيل الجديد . فعين مدرسا فى المدارس الثانوية ، ومنها إلى المعاهد العالية ، ثم بعد ذلك شغل وظيفة مدير لجامعة القرويين التى تربى فيها من قبل . واجتذبته السياسة ، فاختير وزيرا فى غير مرة ، وهو الآن على رأس الجامعة المراكشية الحديثة يوجهها ويرسم سياستها .

وفى أثناء الدرس والمحاضرة ، اتجه نحو التأليف والكتابة ، فوضع كتابا عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، وترجم لشاعرين من شعراء الموحدين . وأعد طائفة من المحاضرات والتقارير ، واشترك فى كثير من الحلقات والمؤتمرات العلمية والثقافية فى الشرق والغرب .

ولم يقف نشاط السيد الفاسى الباحث الدارس عند العلم وحده ، بل امتد كما قدمنا إلى السياسة ، فكان على رأس زملائه من لجان الطلبة الأفريقيين فى باريس ، اشترك معهم ، وقاد حركتهم ، وحرر فى صحيفتهم . وانضم إلى حزب الاستقلال الذى قاد الحركة حتى وصل بها بر السلامة وانتهى بالبلاد إلى الاستقلال . وكان طبيعيا أن يدعى بعد الاستقلال إلى الوزارة ، فكان عضوا فى الوزارتين الوطنيتين الأوليين .

تلك باختصار حياة الزميل الجديد ، ويبدو من ملامح هذه الصورة السريعة التى عرضتها عليكم أمور يعنينى أن أقف عندها قليلا :

فنحن أولا أمام زميل استكمل وسائل البحث والدرس وتمكن من الثقافة الشرقية فى دراسته الأولى ، وتابعها فى بحوثه ودراساته التالية .

وضم إليها الثقافة الغربية دارسا وباحثا أيضا ، ومكنه من ذلك إلمامه بعدد من اللغات ، فهو يعرف الفرنسية كأحد أبنائها ، كما يعرف الأسبانية . ويعرف فوق هذا لغتين تعتبران بالنسبة له لغة الموطن والمولد ، وهما العربية

والمغربية . وإلى جانب هذا استكمل منهج البحث فى دراساته المختلفة ، فجعله يعرف كيف يلائم بين القديم والجديد ، وكيف يسلك سبل الإصلاح من نواحيها المجدية والعملية ، وروحه الإصلاحية ناحية من النواحى التى قد لاأستطيع أن أطيل فيها ، ولكنى أحب أن أبين فقط أنه ما كاد يوكل إليه أمر المعهد الذى تربى فيه من قبل وهو جامعة القرويين حتى شاء وهو عميد ورئيس أن يعدل تلك النظم القديمة ، وأن يربطه بعجلة الزمن ، ويدخل عليه الدراسات الحديثة ويتوسع فيها من رياضيات وعلوم .

وإذا كنت أذكر هذه الأمثلة بعينها ، فإنما أذكرها لأنها تثير فى نفوسنا ضربا من تداعى المعانى ، والشىء بالشىء يذكر ، وفى إصلاحات جامعة القرويين الأخيرة ما يشبه محاولات الاصلاح التى مرت بها الجامعة الأزهرية فى نصف القرن الماضى .

وقد لا يدهشكم أن تسمعوا أن من بين المقترحات المراكشية ، التى لاأدرى إن كانت قد نفذت فعلا أم لا ، أن تنشأ فى جامعة القرويين كليات تقترب كل القرب من كليات الأزهر كأصول الدين والشريعة ، واللغة العربية .

والزميل الجليل مصلح أيضا فى وزارة التربية والتعليم ، يحاول أن يسلك بالتعليم المراكشى مسلكا يتمشى مع حاجة العصر وظروفه ، ذلك لأن نظام التعليم فى بلاد المغرب شبيه بما كان عليه نظيره فى مصر فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فيقوم على المساجد التى يحفظ فيها القرآن وبعض مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ومن شاء توسعا اتجه نحو جامع القرويين . وما أشبه هذه المساجد بكتاتيبنا القديمة التى يأبى المغرب إلا أن يحل محلها اليوم مدارس ابتدائية وثانوية تهيىء لأبناء الشعب وسائل التعليم والثقافة الكاملة ، وتمهد للدراسات العالية والجامعية . والشرق الذى وقفت عقبات كثيرة فى سبيل نهوضه العلمى والثقافى يرغب رغبة أكيدة فى أن يستعيد ما فاته ، ويخطو إلى مصاف الأمم التى سبقته . وما أحوجه إلى مصلحين ومجددين يلائمون بين القديم والحديث ، ويقيسون الأمور بمقياس الحكمة والاعتدال ،

ويخرجون منها بحلول تتفق مع البيئة والظروف التى يعيشون فيها ، فلا يطفرون فى إسراف ، ولا يجمدون فى قصور . والزميل الكريم فى مقدمة من اكتملت فيهم هذه الصفات بين قادة المغرب والمصلحين فيه .

ويرجو المجمع اللغوى منه أمرا آخر له أهميته يعول عليه فيه التعويل كله ، لأنه يتصل بمهمته ورسالته . وأعنى به حماية اللغة متنا وأسلوبا ،ودراسة قواعدها وآدابها . وفى المغرب حقل فسيح لهذه الدراسة ، ومعالجة ألوان شتى من الموازنة والمقارنة ، ذلك لأن فيه ضربا من التقابل والتعارض بين العربية والبربرية ، واللغوى الباحث يخرج من ذلك بدروس نافعة . وأستطيع أن أقول فى اطمئنان إن مسافة الخلف بين العربية والبربرية ليست أفسح منها بين العربية والفارسية ، وقد جاء وقت على أقاليم فارسية خالصة تعربت جميعها وظهر فيها بعض أعلام الأدب العربى . والبرابرة أنفسهم نشأ من بينهم عدد غير قليل من أئمة البحث الإسلامى . ولهذا أعتقد أن الخصومة بين البربرية والعربية فى مراكش ليست أعنف مما كانت عليه الخصومة بين العامية والعربية فى مصر ، وقد أصبحنا هنا ونحن لا نكاد نأبه لهذه الخصومة ، ولن يختلف شأنها عن ذلك لدى إخواننا المغاربة . وإنا لننتظر من الزميل على كل حال وهو يجيد العربية والبربرية معا أن يوافينا بدراساته الممتعة فيهما ، وأن يخطو الخطوة المرجوة للتوفيق والملاءمة بينهما .

وقد تقضى الزمن الذى كانت تثار فيه أسباب الفرقة ، وأصبحنا ننظر إلى الأمور نظرة أبناء البلد الواحد والأمة الواحدة ، ومتى توفرت هذه الروح فلن يفرق بيننا اختلاف بربرية وعربية ، ولا بعد عامية عن عربية . وستتآخى البربرية مع العربية فى مراكش بحيث تصبح العربية لغة الشعب بأسره . كما تآخت العامية مع العربية فى مصر ، وأصبحنا نتحدث عن تيسير العربية للناس جميعا ، تيسيرها فى كتابتها وقراءتها ، فى نحوها وصرفها ، فى ألفاظها ومصطلحاتها .

وسواء فى مصر أم فى مراكش ، بل وفى بلادالعالم العربى جميعا ، نحن متفقون على أن ننهض بالعربية نهوضا يربط حاضرها بماضيها ويعيد إليها مجدها الغابر ، فتصبح لغة العلم والحضارة ، وتعبر عن عصرنا فى كشوفه ومخترعاته فى عدده وآلاته ، فى نظمه وقوانينه ، فى مشاعره وأحاسيسه ، وتغذى الآداب والثقافات الأخرى كما غذيت بها وأخذت عنها .

لهذا جئت معنا ، أيها الزميل الكريم ، وفى هذا نعول عليك كل التعويل ، وإنى لسعيد أن أرحب بك اليوم باسم أعضاء المجمع علمة ، وأن ألقى هذه الأمانة الكبرى على عاتقك ، وأنت لها خير كفيل .

عبد الرزاق محيي الدين

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

لقد كان حظ مجمع اللغة العربية من شيوخ العراق وعلمائه عظيما ، توارد وا
ليه فاضلا بعد فاضل وإماما بعد إمام ، ويعدون بحق فى مقدمة مؤسسيه
ومؤيديه . اشترك فى رعيله الأول الأب أنستاس الكرملى ، وهو من تعرفون
وثوقاً فى الرواية ، وتمكنا من الدراية ، حذق عدة لغات قديمة بين شرقية
وغربية ، ووقف حياته على خدمة اللغة العربية ، ودوى صوته فى مجمعكم بضع
سنين ، وردد كثيراً من آرائه بين العرب والمستعربين ، وهو دون نزاع من
دعائم النهضة اللغوية المعاصرة فى العراق .

وخلف من بعده إمام جليل وشيخ عظيم ، هو المرحوم محمد رضا الشبيبى
الذى قضى معنا سبعة عشر عاما مرموق المكانة ظاهر الجلالة ، يعمل فى دأب
ويؤمن بما للعربية من شأن فى جمع الكلمة وضم الصفوف . ارتبط بالمجمع بأوثق
رباط ، فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته . ورأس عدداً غير قليل من
جلساته ، وأسهم مخلصاً فى بحوثه ودراساته . أحب المجمع ، وأحبه المجمعيون
جميعاً على السواء .

وفى عام ١٩٦١ حظى مجمع اللغة العربية بشيخ ثالث من كبار شيوخ العراق
هو الزميل الكريم الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، الشاعر والناثر ، الكاتب
والخطيب ، اللغوى والأديب ، المؤرخ والفقيه . فأمدنا بفيض من دقيق علمه
وعميق بحثه ، ولا يزال يمدنا فى كرم وسخاء . نستشيره فيشير ، ونسأله فيجيب
ونكتب إليه فيرد بعد درس وإحاطة وأشهد أنه يعاوننا دون انقطاع فى المؤتمر
وقبله وبعده . يؤمن بأن رسالة المجمع رسالته ، ورسالة كل عربى يعتز بعروبته .

* * *

واليوم ينضم إلى زمرة المجمعيين علم آخر من أعلام العراق ، رابع أربعة كلهم علم وفضل ، وسمو ونبل ، هو الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي . عرفناه قبل أن ينضم إلى هذه الزمرة ، فعرفنا فيه الروح الهادئة ، والنفس الزكية ، والنظرة الصائبة ، واتصلنا به عن قرب فى مؤتمر بغداد ، فوجدناه يذوب رقة ، ويفنى فى خدمة ضيوفه وزملائه . حرص دائماً على أن يكون إلى جانبهم فى حلهم وترحالهم ، ولم يفته أن يشترك فى درسهم وبحثهم برغم ما كانت تلقيه عليه الوزارة من أعباء ، وما كان يضطلع به من مسئوليات جسام .

وكم يسعدنى أن أنوب عن المجمع فى استقباله ، وأخوف ما أخاف ألا يتسع الوقت لكى أوفيه حقه ، وما أكثر جوانبه وأخصب نواحيه . وإنى لأستقبل فى شخصه العربى الصادق فى عروبته ، والوطنى الغيور على وطنه ، والشاعر والكاتب ، والعالم الحديث والباحث ، والسياسى ورجل الدولة :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً ناطقاً فقل

وحسبى أن أرسم صوراً آمل أن تعبر عن بعض جوانبه .

* * *

عبد الرزاق محيي الدين عربي صميم ، تملأ العروبة قلبه ، وتجرى فى دمه استمدها من أصول عالية ، وغذاها بغذاء سليم ، فهو يصعد إلى أسرة عربية من أسر « جبل عامل » بلبنان. رحلت إلى العراق فى منتصف القرن السابع للهجرة ، واستقر أغلبها فى النجف الأشرف وامتد فريق منها إلى لواءى الحلة والديوانية ، ولا تزال لها بقايا فى بعض مدن لبنان كصور وبيروت ، وتنسب إلى جدها الأعلى محيي الدين ، الذى كان يلقب بالعاملى(٠) إشارة إلى وطنه الأصلى والحارثى الهمدانى ، تنويها بأنه من أولاد الحارث الهمدانى أحد قواد على كرم الله وجهه .

وفى بيت من بيوت العلم والدين ، ولد عبد الرزاق فى نهاية العقد الأول من هذا القرن ونشأه أبوه نشأة عربية إسلامية ، فحفظ القرآن ، وتلقى فى جوامع النجف علوم العربية ، والفقه وأصوله ، والكلام والمنطق. وما أشبه جوامع النجف بالجامع الأزهر ، تسير على الطريقة التقليدية ، وتخرج فقهاء فى الدين وعلماء فى اللغة .

وشاءت الأقدار أن يستكمل درسه فى مصر ، فأوفد فى بعثه إلى مدرسة دار العلوم – كلية دارالعلوم الآن – وهو فى الثالثة والعشرين . وتفتحت أمامه أبواب فسيحة للدرس والبحث فى علوم العربية وآدابها ، وامتد نشاطه إلى نواح اجتماعية هامة ، فى مقدمتها « إنشاء ناد » للطلبة العرب ، ولا يزال قائماً حتى اليوم ، وفى هذا ما يعبر عن ميوله المبكرة .

وما إن أتم مهمته حتى عاد إلى العراق عام ١٩٣٧ ليؤدى رسالته ، فقام بالتدريس بدار المعلمين العالية ببغداد ، وقضى فيها نحو سبع سنين . ويظهر أنه لم يقنع بما انتهى إليه من درس فى العلوم العربية وشاء أن يفرغ لها مرة أخرى وأن يتعمق فيها ما وسعه . فالتحق بالدراسات العالية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وحصل على درجتى الماجستير والدكتوراه .

ومن هذا الزاد الوفير أخذ ينفق عن سعة ، يغرس فى تلاميذه روح الوطنية الصادقة والقومية السليمة ، وينشر دروس العربية الحقة . اختير أستاذاً للبلاغة بكلية التربية ، ثم عميداً لها ، وأسهم فى بناء جامعة بغداد ، وكان نائباً

لمديرها فترة من الزمن . وحظى بعضوية المجمع العلمى العراقى ، وانتخب رئيساً له منذ عام أو يزيد ، خلفاً للمرحوم محمد رضا الشبيبى .

وهو يرى أن العروبة سمحة كريمة ، تقوم على الإخاء والمساواة ، وتنفر من دعاوى العنصرية . وكم من دول عربية التأم فيها شمل أجناس متعددة . ويحرص العرب دائماً على أن يعيشوا فى وئام مع الترك والفرس ، ولايترددون فى أن يعقدوا صلات شرقاً وغرباً ، ما دام ذلك لا يعدو على كيانهم ، ولا يسىء إلى مقدساتهم . وعنده أن الإخاء العربى الكردى فى العراق راسخ الأصول متين الدعائم ، وسائله ميسرة ، وأسبابه متوافرة . ولا يعكر صفوه إلا الدخلاء وذوو الأهواء ، الذين لا يعيشون إلا فى جو الفرقة والخلاف ، يستمسكون بشعارات زائفة ، ويتعصبون لقوميات مصطنعة.

وللقومية تجار لا يقلون خطراً عن تجار الحرب والسياسة ، يثيرون الفتن ويبثون السموم ، ولا يرعون ، فى الوطن إلا ولا ذمة ، واتقاء لخطرهم أثار عبد الرزاق محيى الدين فى الصحافة العراقية عام ١٩٦٠ حواراً جريئاً وصريحاً حول القومية الكردية . وقد بدا منه أن « التراحم بين العرب والأكراد أمر متوارث من أحقاب التاريخ » ولا يفسده إلا تيارات أجنبية ودعايات هدامة وعلى الاستعمار والماركسية فى ذلك وزر كبير . وواجب العرب والأكراد أن يدرأوا هذه الفتنة ، وأن يتلاقوا وجهاً لوجه ، ويتبادلوا الرأى فى صراحة فيمهدوا السبيل لتراحم أكبر وتآزر أقوى ، واستطاع زميلنا أن يجمع أطراف هذا الحديث فى كتاب له عنوانه : « من أجل الإنسان فى العراق » . وفى هذا الكتاب درس وعظة ، وما أجدره أن يقرأ . وفتنة الأكراد لها أشباه ونظائر فى أوطان عربية أخرى .

والدكتور عبد الرزاق يقظ ، يقف للدعايات الهدامة بالمرصاد ، لأنه يخشى منها على الوطن والدين والقومية . لم يتردد فى أن يكشف ستارها ، ويحارب أنصارها ، ويلاحظ بحق أنهم فى الأغلب من الانتهازيين الذين يتمسحون بالأعتاب ، وينتقلون من حاكم إلى حاكم ، ناصروا العهود الماضية وفى غير ما خجل سارعوا إلى التعلق بأهداب العهود الحاضرة واتخذوا من

بعض المبادئ الهدامة شعارا ظنوا أنه يكفر عن ماضيهم ، ويغفى على سوأتهم ، وقد حمل الزميل عليهم حملة شعواء ، وناضلهم بلسانه وقلمه فى جرأة وبسالة ولاقى فى سبيل ذلك ما لاقى من نفى واعتقال ، وقضى فى السجن زمناً ، ولم يخرج منه إلا فى ثورة الرابع عشر من شهر رمضان التى قضت على حكم عبد الكريم قاسم .

وفى المحنة الكبرى التى مر بها العالم العربى فى يونية الماضى(*) ، لم يقنع عبد الرزاق محيى الدين ، رب القلم فحسب ، بأن يتابع الأحداث فى مكتبه وداره ، بل أبى إلا أن يشرف على ميادين المعركة بنفسه ، وتعرض مع نفر من زملائه لخطر كبير .

تلك هى عروبة زميلنا ، وهذه هى بعض صورها وآثارها .

* * *

والزميل الكريم شاعر قديم ، قرض الشعر ولما يبلغ العشرين . أرسل منه بواكير فى النجف ، ثم تلتها قصائد شتى فى القاهرة وبغداد ، واستمر وحيه يمد إلى عهد غير بعيد . وأخشى ما أخشاه أن تعدو أعباء السياسة والشئون العامة على شاعريته ، فنحرم من خياله البديع ونغمه الرقيق وأعلم أنه جمع شعره فى ديوان لم ينشر بعد ، ونأمل أن يخرج إلى النور قريباً ، وأن يوضع إلى جانب نظرائه من إنتاج شعراء الجيل وما وقفنا عليه منه يشهد بدقة المعنى ، وصفاء الأسلوب ، ورقة الخيال . ونحرص على أن نقدم نماذج منه متدرجة مع الزمن.

فى عام ١٩٣٠ قال شاعرنا فى شبابه بالنجف :

إذا الشعر لم يحدث بشعبك ضجة ... فتلك قواف قد نظمن وأوزان

وإن لم يكن حر العقيدة موقظاً ... فليس له فى نهضة الشعب إحسان

وفى عام ١٩٤٦ قال فى حفل لتكريم خليل مطران بالقاهرة :

شاعر القطرين بوركت صبا ... وشبابا ومشيباً واكتهالا

جئت والنهضة فينا طفلة ... بعد لم تبلغ فطاماً أو فصالا

(*) إشارة إلى النكسة التى وقعت بالوطن العربى فى الخامس من يونية سنة ١٩٦٧ .

وتباشير حياة حرة شع في الوادى سناها والتلالا
ورفاق عد إخوان الصفا نفروا واستنفروا الناس عجالا
كنت فى القادة منهم فكرة ومن الساقة إذا أعيوا كلالا

* * *

مصلح فى غير دعوى مصلح ونبي لم يكلفنا القتالا
تخذ الفن له آلهة وحوارى الفن أنصاراً وآلا
سل بيوت الفن من عمرها وأشاع الخير فيها والجمالا

وفى عام ١٩٥٧ قال فى ذكرى إقبال :

ذكراك إقبال نحييها فتحيينا كآية الذكر نتلوها فتهدينا
أهاب بى منك روح فاستجاب له روح أبى القول فى مجهولة طينا
إقبال دينك ما يقضى بشاردة لو أن شعباً وفى حقاً بمادينا
جاهدت فى الله عن أهلى وعن وطنى فى حين سيموا به خسفا وتوهينا
وحين زعزعت الشذاذ طارئة حصونهم وأحالتها مبادينا

* * *

أما عبد الرزاق محيي الدين الباحث والمؤلف فإنتاجه متنوع ، وضع كتباً مدرسية فى المطالعة وتاريخ الأدب لتلاميذه وأبنائه ، وعنى بالتحقيق ، فحقق جزءاً من كتاب « المقابسات » وآخر من كتاب « البصائر والذخائر » ، وثالثا من كتاب « الوجيز فى تفسير القرآن العزيز » . وقام بدراستين هامتين ، أولاهما « أبو حيان التوحيدى » ، والثانية « أدب المرتضى » .

ويدرج في تحقيقه على نسق واضح ومنهج علمى سليم ، فيثبت أولا نسبة الكتاب الذى يحققه إلى صاحبه . ويجمع من أصوله كل ما وجد السبيل إليه ، ويصف المخطوطات وصفاً كاشفاً . ويقدم فى الصلب النص الذى ارتضاه ، ويشير فى الهامش إلى الروايات والقراءات المغايرة ، ويتدارك ما فات الناشرين السابقين . ولا يفوته أن يوضح الكلمات الغامضة ، ويعرف ببعض الشخصيات ، ويحقق بعض التواريخ .

وفى تحقيقه لكتاب « المقابسات » وكتاب « البصائر والذخائر » وفاء لأبى حيان التوحيدى الذى أولع به وكشف عن كثير من جوانبه . وبرغم أن هذين الكتابين قد نشرا من قبل ، فإنه أضاف إليهما جديداً ، وآمل أن يستكمل تحقيقهما على طريقته ومنهجه .

وفى تحقيقه لكتاب « الوجيز » استجابة لرغبة كريمة أبداها المرحوم والده فقد طلب إليه أن ينسخه وهو لا يزال فى صباه الباكر ، وكان لابد له أن يفعل وتلك شيمة من شيم العرب وأخلاق الإسلام . ونحس أن محققنا متحرج نوعاً من أداء مهمته ، ولا أدل على ذلك من أنه لجأ إلى شيخ ثبت فى سير الرجال ليترجم للمؤلف ، وما ذاك فى أغلب الظن إلا لأن صاحب كتاب « الوجيز » هو على بن الحسين بن محيى الدين العاملى الحارثى الهمدانى ، وهو من أجداد زميلنا الأعلين .

وباع الدكتور عبد الرزاق فى البحث والدرس طويل ، وجلده عظيم ، وصبره جميل ، وكتاباه « أبو حيان التوحيدى » و« أدب المرتضى » آية فى ذلك . وعندى أن كتابه الأول فى قمة إنتاجه ، وقف عليه عدة سنوات من سنى الشباب والتفرغ وتهيأ له بأكمل أسباب البحث والتمحيص فجمع كل ما تيسر له من كتبه المطبوعة والمخطوطة ، وأضاف إليها ما اقتبسه الأقدمون من كتبه التى ضاعت أصولها ، وقرأ ذلك كله فى روية وتأن ، وفهم وتفهم . مستعينا بما توافر لديه من زاد أدبى ولغوى كبير . وتتبع ما كتب عن أبى حيان قديماً وحديثاً ، فأخذ منه ما أخذ ، ورفض ما رفض .

وأبو حيان شخصية عريضة ، متعددة الجوانب ، ويمكن أن يعد بين أصحاب دوائر المعارف . عرض للنحو واللغة ، والشعر والأدب ، والفقه والكلام ، والتاريخ والسياسة ، وقد قيل عنه إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة. وكان صوفى السمت ، ولعل التصوف من أظهر ما عرف به . وأولع بالنقد والحكم على الرجال ، وتعرض لكثير من معاصريه والسابقين عليه ، ومؤلفاته مصدر هام ، وصورة من أوضح الصور عن الحركات الفكرية والأدبية فى القرن الرابع الهجرى . ولم يسلم هو نفسه من النقد والتجريح ، فطعن فى بعض رواياته ، وجرح قدر من أقواله. واختلف فى نسبه : أفارسى هو أم عربى ؟ وفى مذهبه : أشيعى هو أم سنى ؟ وفى دينه : أمؤمن هو أم زنديق؟

وكان على الدكتور عبد الرزاق محيى الدين أن يعالج ذلك كله بروحه الهادئة وحكمه المتزن ، وهو فى الواقع هادئ فى بحثه هدوءه فى سلوكه وتفكيره ، يسلسل الوقائع والأحداث ، ويرتب المصادر ترتيباً زمنيا ، ويتتبع مختلف الروايات ، ويناقشها ويمحصها الواحدة تلو الأخرى. ويعلن أنه ليس من المولعين بافتراض الفروض ؛ ويمقت التعميم والدعاوى العريضة ، ويؤثر أن يحصر بحثه فى دائرة ضيقة ما أمكن ، كى يصل إلى نتائج مقنعة . وأشهد أنه قل أن رأيت المنهج التاريخى قد طبق بإحكام فى دراسة مثلما طبق فى كتاب « أبو حيان التوحيدى » .

وقد انتهى بصاحبه إلى أمور حاسمة ، فقرر أن أبا حيان عربى ، وأن طفولته غير معروفة . وفسر طابعه الموسوعى بحرفة الوراقة التى تمد لمحترفها فى مساحة ثقافته ، وتحول دونه والعمق والتركيز والتخصص ورد ما يعزى عليه من اختلاق أو وضع إلى فنه الأدبى ومنحاه القصصى والروائى . وأثبت أن أبا حيان لم يكن شيعياً ، ولا عظم العناية بالفرق ، وإن جرى على قلمه شئ من آراء المتكلمين والمعتزلة بوجه خاص . ورفض تلك التهمة التى رددها أكثر من واحد، والتى تعد أبا حيان فى مقدمة الزنادقة فى الإسلام ، وأبان فى وضوح أن أسلوبه متفاوت بحسب مراحل سنه ، وحاول حصر هذه المراحل وبيان خصائصها ومميزاتها .

ومع هذا الدرس العميق المستفيض يختم زميلنا الكريم مقدمة كتابه قائلا فى تواضع العلماء ونزاهة المحققين : « إن عملى هذا لا يزيد على دليل يسترشد به دارسو « أبى حيان » وإلا فلا تزال نواح كثيرة من فنه تحتاج إلى دراسة أعمق ، وإلى بحث أوفى ، وإلى كتابات دونها كفايتى وجهدى » .

* * *

سيداتى ، سادتى

لست أدرى إن كل يحل لى أن أعرض هنا لعبد الرزاق محيي الدين السياسى وقد شغل فعلا بعض المناصب السياسية الكبرى ، فتولى الوزارة غير مرة ، واختير « وزيرا للوحدة » و« أمينا عاما للقيادة السياسية الموحدة » . وفى وسعى أن أقرر أنه وإن كان علوى المذهب ، فإنه ، من أنصار معاوية فى ممارسته للسياسة ، فلا تنقطع الشعرة التى يمسك بها ، وإن يئس منها أحل محلها شعرة أخرى . وإنى لأعرف كثيراً من آرائه التى تتصل بالمشاكل العربية الكبرى ولكن لعل من الخير أن تعرض فى مجال آخر .

ويسعد المجمع والمجمعيين أن يستقبلوا اليوم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين الشاعر والأديب ، والعالم واللغوى ، وهم لا محالة واجدون فى علمه وأدبه عونا كبيرا وذخيرة لا تنفد .

محمد الحبيب ابن الخوجة

سيدى الرئيس ، سادتى :

زرت تونس منذ ثلاث سنوات فى مهمة خاصة بتكليف من المجمع ، ولمست حين ذاك أن للعربية فيها جذوراً أصيلة وعميقة ، برغم منافسة الفرنسية الشديدة وتعصب فريق لها . وبدت لى آثار ذلك واضحة فى أقلام الكتاب وعلى ألسنة الخطباء فى الإذاعة والصحافة ، فى الدرس والمحاضرة ، فى الأندية والمجالس بل فى الحديث الدارج بين الناس ، ولم يتسع لى الوقت لتفهم مدى هذه الظاهرة ، والوقوف على ما وراءها من عوامل وأسباب .

ونعمت هذا العام بزيارة هذا القطر الشقيق مرة أخرى ، فتوثقت صلتى به ، ووقفت على كثير من شئونه ، وزاد اتصالى بشبابه وشيوخه ، وتنقلت بين أطرافه وجوانبه . وزرت عددا غير قليل من مدنه وشواطئه . ولست فى حاجة أن أتحدث عما حظيت به من رعاية وعناية أعتقد مخلصاً أن مردها الأول إلى مجمعكم الموقر ، وإنى لعاجز كل العجز عن أن أوفى تونس والتونسيين حقهم من الحمد والثناء ، أما الزملاء والأصدقاء فأنا مدين لهم بمودتهم الصادقة وأخوتهم الكريمة ، وأتيحت لى الفرصة مرة أخرى لأتبين فى دقة موقف العربية فى هذا القطر الشقيق ، وقد وجدتها صامدة لتقلبات الدهر ، تصارع وتجالد ، وتسترد مكانتها بعد ما أقامه الاستعمار فى طريقها من أشواك ، ولا سبيل بحال للغة أخرى أن تحل محلها .

ولا غرابة فالشعب التونسى عربى صميم ، عربى فى أصله ونشأته ، يعتز بماضيه وتراثه ، ويسعى جاهدا إلى أن يستعيد مجد الأغالبة والحفصيين ، عربى فى حاضره ، تحس إحساسا صادقاً بعروبته ، وتشعر شعورا خالصاً بأنه جزء

من الوطن العربى الكبير يهتز طرباً لأمجاده وانتصاراته ويأسى حزناً وكمدا على ما يحل به من ويلات ونكبات وإن شعباً أنجب ابن رشيق القيروانى بالأمس وأبا القاسم الشابى اليوم لا يمكن أن تصاب العربية فيه بسوء .

ومن حسن حظ هذا البلد الأمين أن قام فيه معهد من معاهد الإسلام الخالدة ، وهو جامع الزيتونة ، ثمرة الماضى وعون الحاضر . وهو أحد مساجد ثلاثة فى أفريقيا لها شأنها فى تاريخنا الثقافى الطويل ، قام إلى جانب الأزهر والقرويين على رعاية التراث الإسلامى وتعهده . أسس أولا ليكون مصلى ومقرا للعبادة ، ثم شاء الحفصيون أن يجعلوا منه أيضا معهدا للدرس والبحث فجلبوا إليه الشيوخ والعلماء من الأندلس وصقلية . وأصبح جامعة إسلامية مكتملة ، تعنى بالعلوم النقلية والعقلية ،فدرس فيها الفقه والحديث والتفسير ، والتاريخ والأدب واللغة ، كما درست الفلسفة والرياضة والطب . وكان لهجرة علماء الأندلس فى القرن السابع الهجرى إلى تونس شأن فى ازدهار ثقافى كبير عمر بضعة قرون . واتصلت الزيتونة بالمعاهد الإسلامية الأخرى ، وبخاصة الأزهر الشريف .

وتخرج فيها عدد غير قليل من الأئمة والعلماء ، والكتاب والأدباء ، ويكفى أن أشير إلى أن ابن خلدون عالم تونس الكبير نهل من حياضها .

قضت هذه الجامعة التونسية نحو ثمانية قرون تسير فى طريقها ، وتنشر العلم والثقافة ، وفى القرن التاسع عشر أريد تطويرها ، والتطور سنة من سنن الحياة ولم ير القائمون عليها بأسا فى أن يسايروا الزمن ويلائموا بين الحاضر والماضى . وما الجمعية الخلدونية إلّا صورة من صور هذا التطور ، أنشئت عام ١٨٩٦ على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، وقد كان له بتونس صلات وثيقة وقصد بها أن تعلم فيها العلوم العصرية باللغة العربية ، وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك ، وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد . وجمعية قدماء الصادقية دعامة أخرى من دعائم التجديد والإصلاح ، رُبى أبناؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ،

ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، فتلاقت الصادقية فى البداية مع الخلدونية ، وقد قاما معا على أكتاف الزيتونة ، فتحقق بذلك التطور المنشود .

وقد أضحت الزيتونة نفسها واحدة من كليات جامعة تونس الحديثة ، وتضطلع بوجه خاص بعلوم الشريعة وأصول الدين ، وتؤدى رسالة عظمى فى ميدان الثقافة التونسية ، ولا يقف إشعاعها عند تونس وحدها ، بل يمتد إلى أبناء أقطار أخرى فى أفريقيا وآسيا . يفدون إليها وينهلون من حياضها .

وللزيتونة أياد على مجمعنا هذا ، أسهمت فيه منذ إنشائه ، أمدته بأئمة أعلام ، وغذته بغذاء صاف كريم . فكان الخضر حسين من أعضائه المؤسسين ولا تزال بحوثه القيمة حجة يرجع إليها . واختير الشيخ الجليل محمد الطاهر ابن عاشور بين أوائل أعضائه المراسلين ، وهو من نعرف تفانيا فى خدمة اللغة والدين ، استمساكا بكلمة الحق ، أطال الله بقاءه ونفع به الإسلام والمسلمين وحسن حسنى عبد الوهاب ، وإن كان صادق النشأة ، لم يفته أن ينهل من جامع الزيتونة فأكثر التردد عليه وعلى خزائن كتبه حتى اختلط بالمحيط الزيتونى وامتزج به . وقد كان من أعضاء المجمع المؤسسين ، ونعمنا معه بزيتونى آخر كبير هو الخالد الذكر محمد الفاضل ابن عاشور ، وقد عرفتموه فاضلا حقا ، وعالما كبيرا وإماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع .

* * *

وها نحن أولاء نستقبل اليوم تلميذه وصفيه ، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وهو زيتونى النشأة والثقافة ، نستقبله ليشغل كرسى أستاذه ، ولو كان الأمر ميراثا ما كان أحد به أحق منه ، على أنكم اخترتموه وأنتم على يقين من أنه خير خلف لخير سلف . وما أظن أنى رأيت تلميذا شبيها بأستاذه شبه الحبيب بالفاضل . يحاكيه فى زيه وسمته ، ويتسم بما اتسم به من شمائل وخلال ، ويسير على نهجه فى درسه وبحثه .

وقد قدم الأستاذ لكتاب « مناهج البلغاء » الذى أخرجه التلميذ ، وفى هذه المقدمة ما يعبر عن البنوة الروحية والود الآثر ، يقول الفاضل : « إنه سرى فى

نفس الحبيب ما سرى من نفحات نفسى ومدارك عقلى وحسى» . ورحمة الله على الراحل الكريم ، ومرحبا بالقادم العزيز ، وسأترجم له فى اختصار ، وأشير إلى شئ من جوانب نشاطه وثقافته .

ولد الحبيب فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن . ونشأ فى بيئة دينية محافظة ، وأسهم فى تثقيفه البيت والمدرسة ، فالتحق بالمدارس القرآنية الابتدائية وكان أبوه يرعاه ويوجهه ، ويشرف على دروسه فى اللغتين العربية والفرنسية وفى سن الرابعة عشرة دخل المدرسة الصادقية ولم يكد يمضى فيها عامين حتى بدأت الاضطرابات السياسية ،ولم يكن بد من أن يسهم فيها شاب مثله . وداعى الوطن عنده مستجاب دائما . وكان جزاؤه أن نال شرف السجن والطرد من المدرسة فى سبيل أمته وبلاده . وما أن أطلق سراحه حتى ألحق بجامع الزيتونة وفيه أتم دراسته الثانوية والعالية . واستطاع أن يضيف إليه دراسة قانونية ، وحصل على شهادة الحقوق التونسية ويوم أن اكتمل إعداده اجتذبته المعاهد المختلفة ، فدعى للتدريس فى ثانوية الجمعية الخلدونية ، وثانوية الدراسة الزيتونية ، ومعهد البحوث الإسلامية للجمعية الخلدونية ، ولما يجاوز الرابعة والعشرين . وفى عام ١٩٥٠ نجح فى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، وانتدب بعد ذلك بقليل أستاذا بالتعليم العالى بالجامعة الزيتونية، وقضى فيها إحدى عشرة سنة ، ثم شاء أن يضيف الثقافة الغربية إلى ثقافته العربية ، فالتحق بجامعة باريس التى منحته درجة الدكتوراه بمرتبة «الامتياز الفائق» بعد عامين اثنين ، وأصبح فى آن واحد الشيخ الزيتونى والدكتور السربونى . ثم عاد إلى وطنه ينشر العلم فى أرجائه ، ويوفى الزيتونة بعض حقها عليه ، وقد عين أستاذا بها ، ولم يبعده عنها إلا عمل بمصلحة النشر بوزارة الثقافة أشرف فيه على إخراج طائفة من الكتب القيمة ، وهو اليوم عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين .

ولم يقف نشاط الحبيب عند تونس بل جاوزها إلى أوساط ثقافية مختلفة فدعى للتدريس فى جامعة محمد الخامس ، والقرويين بفاس ، وجامعة بنغازى وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالبيضاء . وحاضر بدار الفكر بالرباط

وفى الجزائر بدعوة من وزاره الثقافة . وكان للمشرق فيه نصيب ، فحاضر فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وفى جامعة آل سعود بجدة . أما رحلاته وأسفاره فمتعددة ، زار فى العالم الإسلامى القاهرة ، وبيروت ، وجدة ، والمدينة ، وكراتشي ، وفى أوربا باريس ، ولندن ، وبرلين ، وبون وفرانكفورت ، وليبتز ، وبلجراد ، وبودابست . وأسهم فيما يزيد على عشرة مؤتمرات ، بين أدبية وثقافية ، عقدت فى تونس أو فى غيرها من عواصم العالم الإسلامى . واشترك فى عدة هيئات ، فهو عضو بلجان الموسوعة الفقهية وإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو قديم بالجمعية الخلدونية وعضو بالشبيبة المدرسية لجمعية قدماء الصادقية ، ورئيس للشبيبة الزيتونية : وجمعية طلبة شمالى أفريقيا .

* * *

وما أشبه الحبيب فى نشاطه العلمى بشيخه الفاضل ، إنتاجه غزير ومتنوع درس وحاضر وحقق وأخرج ، وكتب وألف ، كتب بالعربية وبالفرنسية معا ، قام بهذا كله ولما يبلغ الخمسين فى نشاط الشباب ورجاحة الشيوخ . ويدور إنتاجه حول أبواب ثلاثة : بحوث إسلامية ، ودراسات فى الأدب واللغة والتاريخ ، وتحقيق لبعض نفائس التراث القديم . فعرض الزميل الكريم للعمل والجهاد فى الإسلام ، وعالج موضوع الأخلاق الإسلامية وموقف الإسلام من التطور والتجديد وقد ظهرت سلسلة من هذا أخيراً تحت عنوان : (مواقف إسلامية) وعنده أن الإسلام دين جد وعمل لا خمول وكسل ، والعمل فيه مناط التكليف وأساس المسئولية ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » والجهاد لفظة إسلامية واسعة الدلالة ، يقصد بها خاصة مجاهدة العدو الظاهر والعدو الباطن . وترمى مجاهدة العدو الظاهر أولا إلى نصحه ودعوته إلى الرشاد ورفع راية الأمن والسلام ، فإن أبى إلا العدوان والخصومة لم يكن بد من الذود عن الحياض والدفاع عن دار الإسلام . وليس عدونا الباطن شيئاً سوى أهوائنا وشهواتنا ، ومجاهدتنا لها هى الجهاد الحقيقى أو الجهاد الأكبر ، لنقف فى طريقها ونترفع عن الخطايا والدنايا ، ولم يكن الجهاد فى

الإسلام قط مجرد عدوان للظفر والغلبة ، أو الاستعمار والسيادة . ولا محل لأن يفسر فقط بالحرب والقتال ، بل هو معالجة طويلة ومتنوعة ربما كانت الحرب آخر وسائلها . ومن الخطأ أن يقال إن الإسلام لم ينشر إلا بالسيف . ولا شك فى أن الدعوة الإسلامية السمحة تقوم على أساسين هامين : كفالة الحريات ، وإقرار السلام « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « وإن أحدا من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . ويحرص الزميل الكريم فى بحوثه هذه على أن يصدر عن الكتاب والسنة وأن يستخلص منهما الأهداف الحقيقية للإسلام ؛ وهو يرى أن تعاليم الإسلام تواجه شئون الدين والدنيا ، وليس فيها ما يتعارض مع أصول الحضارة الصحيحة أو الرقى السليم . أما الدعايات الهدامة ، والأيديولوجيات الكاذبة فليست من الدين ولا من الحضارة فى شئ . وهل من سبيل أن تقوم حضارة على الماديات وحدها إنها بذلك أشبه ما تكون بحياة الغابات والجاهلية الأولى والإباحية المطلقة ، وهذا ما تشقى به بعض المجتمعات الغربية اليوم ، وما أجدر مجتمعاتنا الإسلامية أن تتحرر من هذه الآفات . وللشيخ حديث طويل فى هذا ألقاه تحت عنوان : « الإسلام وأزمة مجتمعاتنا الحاضرة » بالجزائر فى ديسمبر الماضى بمناسبة الأسبوع الثقافى التونسى .

* * *

وقد عنى زميلنا بالدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية عناية كبيرة ، فعرض لبعض الكتاب والشعراء القدامى والمعاصرين ، أمثال الشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وشوقى ، والجارم ، وأحمد أمين . واتجه خاصة نحو الأدب التونسى ، يحيى ماضيه ، ويحلل حاضره ، تتبع مراحله ، من الفتح والعهد الأغلبى إلى الدور العبيدى والصنهاجى ، ومنه إلى العهد الحفصى ثم التركى ويقف عند العصر الحديث عصر النهضة والتجديد . وله عشر محاضرات فى الشعر العربى المعاصر بتونس ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ولم يفته أن يعالج موضوع الأزجال والموشحات فى الأندلس وبلاد المغرب العربى .

واستوقفته الدراسات النحوية والبلاغية طويلا ، فدرس نشأة النحو العربى وبيّن المدارس النحوية المتعاقبة فى المشرق العربى ، وأشار إلى ما أدخل على النحو من إصلاحات وتجديدات . وعلى نحو شبيه بهذا تصدى لنشأة علم البلاغة والمذاهب البلاغية ، وعالج قضايا النقد وما يتصل بها . وفرق بين المدارس البلاغية المختلفة ، وبين أثرها فى الفنون الأدبية .

وله بحث طريف ودقيق فى هجرة الأندلسيين إلى أفريقية فى القرن السابع الهجرى . وهى هجرة أشرنا إليها من قبل ، وسبق للشاعر الطليطلى أن توقعها قبل ذلك بنحو قرن ونصف حين قال :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم   فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى   سلك الجزيرة منثورا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقه   كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقد اتجه مهاجرو الأندلس نحو شمال أفريقيا ، فاستقر به منهم من استقر ، وأوغل فى الرحلة فريق آخر ، اتجه نحو مصر والشام والحجاز . وكان لتونس من هؤلاء المهاجرين نصيب كبير ، نزلوا أهلا ومكانا سهلا ، وأسهموا فى الحضارة والثقافة التونسية إسهاماً واضحاً ، ولا تزال فى تونس أسر معروفة بأصولها الأندلسية ، وأسرة آل عاشور واحدة منها . ويحرص الأستاذ الحبيب على أن يقف عند الأثر الثقافى لهذه الهجرة ، ويلاحظ بحق أن هؤلاء المهاجرين قد غذوا الحركة الفكرية فى تونس بغذاء خاص ، فكان منهم القراء والمحدثون ، والفقهاء والمؤرخون ، والأدباء والعلماء . ويسرد صاحبنا أسماء عدد وفير منهم ، نذكر من بينهم ابن الأبار الأديب الشاعر من بلنسيه ، وكان من أوائل الوافدين (٦٣٥ هـ) ، وابن البيطار (٦٤٥ هـ) النباتى الكبير ، وهو من مالقة ، أقام بتونس زمنا ، ثم رحل إلى مصر ، وكان رئيس العشابين بها وابن سيد الناس (٦٥٧ هـ) الفقيه والمحدث تلميذ ابن خروف وابن جبير ، وهو من إشبيليه ، وابن عصفور (٦٦٩ هـ) النحوى المشهور تلميذ الشلوبين وهو من إشبيليه أيضا ، وحازم القرطاجنى (٦٨٤ هـ) الشاعر والناقد واللغوى

ولزميلنا صلة وثيقة به سنعرض لها بعد قليل . وعن هؤلاء وزملائهم الآخرين أخذت الأسانيد الأندلسية ، وعرفت المذاهب النحوية ، وحفظ الشعر والأدب الأندلسي ، وكتب العلم والتاريخ ونشأت باختصار مدرسة أندلسية تونسية ، كان فيها الفقهاء والمحدثون ، والنحاة واللغويون ، والنباتيون والرياضيون .

وللشيخ الحبيب ولع خاص بإحياء التراث وتحقيق النصوص ، وأغلب الظن أن شيخه الأكبر الطاهر ابن عاشور وأستاذه الفاضل غرسا فى نفسه ذلك . فأولع به فى شبابه الباكر ، وكان من أحب الأشياء إليه أن يتردد على المكتبة العبدلية ، وأن يقتنى نفائس المخطوطات .

وقد حقق وأخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى وهو الذى قدمه لجامعة باريس ، ونال به شهادة الدكتوراه ، واتصلت عنايته بحازم ، فحقق ديوانه ، وهو تحت الطبع الآن . وحقق كذلك رحلة ابن رشيد (٧٢١ هـ) . وكتابين آخرين له فى الحديث ، وهما : « السنن الأبين والمورد الأمعن فى السند المعنعن » ، « وإفادة النصيح » ونرجو أن يخرج هذا كله للقراء قريبا .

ولصاحبنا منهج مرسوم فى التحقيق وإقامة النص : وهو منهج علمى دقيق يعتمد على التاريخ اعتمادا كبيرا ، فيستوعب المراجع كلها : قديمها وحديثها مفصلها ومجملها ، مخطوطها ومطبوعها ، عربيها وأجنبيها . ويوازن بينها فى نقد محكم ، ويستخلص منها أوثق المعلومات وأصح الأحكام ، ويثبت الآراء المختلفة مرجحا بعضها على بعض . ويحاول الفصل فى أدق المواقف وأعقدها . يتأهب لما يحاول تحقيقه ، فيجمع كل ما يهتدى إليه من أصوله . ولا يفوته أن يستعين ما أمكن بكل ما ورد منه على ألسنة باحثين آخرين . يعرف بالأشخاص والأماكن ويشرح الألفاظ الغامضة والعبارات المأثورة . ويختم تحقيقه بمعاجم للمصطلحات والألفاظ الغريبة وبفهارس للأعلام والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار وكل ذلك فى ترتيب واضح ، وأسلوب سهل ولغة دقيقة ، والحق أن زميلنا يعول على التاريخ التعويل كله ، وقد تطلب هذا منه اطلاعا واسعا ، وقراءة مستفيضة وأضحى حجة فى تاريخ الثقافة التونسية بخاصة ، والإسلامية بعامة .

والنموذج القيم فى التحقيق الذى أخرجه خير شاهد على ذلك ، فقد شاء بتوجيه من أستاذه الفاضل ، أن يخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى . عرفه مخطوطا منذ عهد مبكر ، واستعان به فى عام ١٩٥٦ على تدريس النقد ومناهجه لطلبه كلية اللغة العربية بالجامعة الزيتونية ، وأخذ يقلب صحائفه ، ويتدارسه ، واستقر رأيه على إعداد نشره وطوال عامين كاملين بباريس تفرغ له تفرغا تاما ، ثم أخرجه بتونس عام ١٩٦٦ فى ثوب أنيق .

وقد مهد له بمدخل طويل يقع فى نحو ٩٠ صفحة ، ترجم فيها للمؤلف ؛ متتبعا كل المصادر التى عرضت له من أقوال حازم نفسه ، أو ما كتبه عنه معاصروه ، أو ما سجله له رجال التاريخ والطبقات وبخاصة السيوطى والمقرى واستخلص من ذلك كله ترجمة كاملة تكشف عن مراحل حياة الرجل وتوضح البيئة السياسية والفكرية التى عاش فيها ، وتعرض لمصنفاته المخطوط منها والمطبوع « والمقصورة » على رأسها . وتبين أثرها فى المشرق والمغرب . ثم اتجه الحبيب إلى تحليل الكتاب نفسه ، فحقق عنوانه . ولخص موضوعه ، وشرح منهجه ؛ وأشار إلى العوامل التى أثرت فيه . ولاحظ بحق أنه مؤلف محكم الترتيب وضع فى صورة أقسام . ومناهج ، ومعالم . ومعارف ، وإضاءات ، وتنويرات وخرج بذلك عن أسلوب التأليف المعهود . وبرغم ترتيبه الدقيق لم يخل من غموض وتعقيد ، لاستعمال ألفاظ غريبة . واستحداث مصطلحات جديدة وإسراف فى المصطلح الفلسفى . وهو مع هذا يؤذن باطلاع واسع ، وإحاطة تامة بالأدب العربى ؛ يستشهد حازم بالشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، كما يستشهد بشعر المشارقة والمغاربة المتأخرين . ويشير إلى بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، أمثال قدامة بن جعفر (٢٩٤ هـ) وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) وابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ) ، وابن الأثير (٦٠٦ هـ) والآمدى (٦٣٠ هـ) ، والخفاجى (١٦٩ هـ) ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه قنع بمجرد الأخذ عنهم بل له محاولات لاتخلو من ابتكار وأصالة وكتابه « المنهاج » لون خاص من ألوان الدراسة الأدبية .

والواقع أن هذا الكتاب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دار حوله شئ من

الأخذ والرد ، ونعنى به موضوع الصلة بين الدراسات الأدبية العربية وبعض الاراء والنظريات الأدبية الهلينية ، وقد أنكر هذه الصلة فريق ، وأيدها آخرون وسبق لابن الأثير أن ذهب إلى أن كلام أرسطو ومن بعده ابن سينا فى الخطابة والشعر لغو ، ولا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا . ولكننا نعتقد أنه لم يبق اليوم شك فى أن البلاغة العربية تأثرت بالفلسفة والمنطق على الأخص ، وقديما فرّق بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ، وما الأولى إلا درس للبلاغة فى ضوء الكلام والفلسفة . ويشهد تاريخ البلاغة بأن الكثيرين ممن كتبوا فيها فلاسفة أو متفلسفون ، كقدامة ابن جعفر ، والجرجانى (٤٧٢ هـ) ، وحازم القرطاجنى واضح وصريح كل الصراحة فى هذه الناحية ، فقد أخذ بآراء أرسطو وتلاميذه من المشائين العرب ، وعول على كتاب « الشعر » لابن سينا وأحال عليه عدة مرات ، وهو مستمد من كتاب « الشعر » الأرسطى . ولاغرابة فحازم تلميذ تلميذ ابن رشد وإن لم ينقل عنه وآثر النقل عن الفارابى وابن سينا ونزعته الفلسفية والمنطقية واضحة .

* * *

سادتى :

لقد عنينا بتاريخ الثقافة العربية فى عصورها الأولى ، وعالجنا شيئا من تاريخها المعاصر والحديث ، وأغفلنا مرحلة طويلة بين هذين الطرفين ، أغفلنا أو كدنا — ما بين القرنين السادس والثانى عشر الهجرى ، وهى حقبة على ما بها جديرة بالبحث والدرس .

وفى جهود زميلنا الكريم الأستاذ الحبيب ابن الخوجة ما يلقى أضواء عليها وما يكشف عن الصلات الوثيقة بين ثقافة المغرب الإسلامى ، وثقافة المشرق وقد رأيتم كيف طوّف بأرجاء الثقافة العربية وأحاط بجوانبها المختلفة ، وفى زمالته الكريمة خير عون لمجمع الخالدين على أداء رسالته .

والسلام عليكم ورحمة الله ،،،



ثانيــا

التأبين

رؤساء المجمع السابقون

يقوم البحث والدرس على أساس من الخبرة التامة ، والرغبة الأكيدة ، والعمل الدؤوب . ولا حياة لهيئة علمية إلا بانتظام عقدها ، وتضافر أعضائها ، وإيمانهم برسالتهم إيماناً جازماً . ومن حسن حظ مجمعنا أنه قام أول ما قام على رعيل من شيوخ عصره ، بين مصريين ، وعرب ومستعربين ، وكل واحد منهم قمة فى بابه وعلم فى ميدانه . وتلاهم رعيل بعد رعيل وكلهم خيار من خيار . رسموا الخطة وأقاموا الصرح ، وأدعموا البناء . وساروا فى طريقهم فى هدوء وحكمة ، وحزم ودقة ووقفوا جهودهم على خدمة اللغة فى متنها وتركيبها . وعنوا عناية خاصة بوفائها بمتطلبات العلم والحضارة .

وفى عيد مجمعنا الذهبى أرى واجباً على أن أنوه برؤساء المجمع السابقين الذين حملوا الراية ، وقادوا القافلة ، وأعطوا ما استطاعوا من أوسع علمهم وعظيم خبرتهم . واستمسك بهم زملاؤهم طوال حياتهم ، ولم يحرمهم منهم إلا رحلتهم الأخيرة إلى جوار ربهم وهم ثلاثة كرام تعاقبوا على رياسة المجمع أربعين عاماً ، وما أغناهم عن التعريف وأود فقط أن أشير إلى شيء من جهودهم المجمعية ، وما خلفوه من أثر فى صحائف الخالدين .

وأولهم محمد توفيق رفعت الذى قاد السفينة عشر سنوات من عام ١٩٣٤ إلى ١٩٤٤ ؛ وشهد مرحلة التأسيس ، وهى دقيقة عادة ، ولكنه استطاع ، بخبرته الطويلة وزاده الوفير أن يواجه الموقف مواجهة صادقة . وكان المجمع فى سنيه الستة الأولى أشبه ما يكون بمؤتمر دولى صغير يضم عشرين عضواً ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، والكل مؤمن بالعربية ، وراغب فى النهوض بها لكى تصبح لغة العلم والحضارة ، وتسهم

فى هذا الميدان إلى جانب اللغات العالمية الكبرى . وكانوا يجتمعون طوال شهرين من كل عام ، ويعقدون نحو خمس وثلاثين جلسة . يغذونها أساساً بخبرتهم وعلمهم الغزير . واستطاع توفيق رفعت أن يحقق معهم تعاوناً تاماً وأخوة صادقة .

وشاء ، وهو الفقيه الضليع والقانونى القديم ، أن يبدأ المجمع عمله بوضع لائحته التى تنظم عمله وتحدد اختصاص هيئاته . وقضى المجمعيون فى ذلك ما يقرب من دورة كاملة . ووضعوا أسساً ومبادئ لا نزال نهتدى بها حتى اليوم . ومن أهم ما اتجهوا إليه تكوين لجان خاصة تقوم بالبحث والدرس ؛ قبل العرض على الهيئة العامة . وأصبح من تقاليد المجمع الثابتة ألا يعرض على مجلسه موضوع قبل أن يستوفى بحثه ودرسه على أيدى المختصين .

وكان المجمعيون أنفسهم فى البداية دعامة هذه اللجان ، ثم استعانوا بالخبراء وهذا تقليد آخر ربط المجمعيين بأهل الصنعة ، كل فى ميدان اختصاصه . ويعد هذا التقليد مبدأ هاماً من مبادىء العمل المجمعى ، ونخطىء كل الخطأ إن زعمنا أن المجمعيين صناع ألفاظ وتعبيرات ، ولجان المجمع مفتوحة لكل من له صلة بها من أعضاء ، وللخبراء فيها منزلة خاصة . وحرص توفيق رفعت على أن يسهم فى بعض هذه اللجان ، وكان له فى بحوثها ومناقشاتها دور ملحوظ وفى هذا ما يؤكد أن رياسة المجمع لم تكن يوماً وظيفة شرفية ولا عملا إدارياً ، بل هى مهمة تنظيمية يكلها الزملاء إلى واحد منهم .

واستن توفيق رفعت سننا أخرى كتب لها البقاء والحياة ، ومنها بدء كل دورة بعرض ما تم من أعمال وقرارات فى الدورة السابقة ، وكان يتولى هو بنفسه هذا العرض . ونما هذا التقليد وتوسع فيه ، واضطلع به الأمين العام للمجمع . وفيما عرضه توفيق رفعت وثائق تاريخية لها وزنها .

ومن سننه استقبال الأعضاء الجدد ، وتوديع الراحلين ، وتلك سنة رأى فيها المجمع آية من آيات الوفاء والتقدير ، وباباً فسيحاً من أبواب البحث والدرس ، وعناية بالفكر المعاصر فى مختلف نواحيه . ولكل من الاستقبال والتوديع جلسة علنية تسجل أعمالها ، وتنشر بحوثها ، وقد اضطلع توفيق رفعت

نفسه باستقبال خمسة أعضاء جدد وهم : أحمد إبراهيم ، وأنطون الجُمَيّل ، وأحمد حافظ عوض ، وحسن القاياتى ، وعلى توفيق شوشة . وودع اثنين هما : حسين والى ، وعبد القادر حمزة .

وله اقتراحات كثيرة نكتفى بأن نشير إلى بعضها . وفى مقدمتها طبع معجم فيشر والتعاقد معه على إخراجه ، ولهذا المعجم تاريخ طويل ، فقد عاش معه صاحبه نحو ٥٠ عاماً ، وكنا نود أن نتوّجه على أيدى مجمع القاهرة ، ولكن الحرب العالمية الثانية حالت دوننا وما نريد ، وحاولنا جمع ما تفرق من جزازات هذا المعجم ، ولم شمله دون جدوى ، وذهب مع التاريخ ، ولم نحصل إلا على قدر ضئيل .

وعنى توفيق رفعت بالمصطلح العلمى فشجع لجانه ونوعها ، ودعا إلى حفظ مقرراتها فى جزازات خاصة على نحو ما اقترحه مجمعى آخر ، وهو لويس ماسينيون ورأى فوق هذا أن تنشر فى « مجلة المجمع » ، وفى بعض النشرات الخاصة . وما أحوجنا أن نربط لغة العلم فى مصر بأخواتها فى العالم العربى جميعه ، وفى تكوين المجمع ما يهدف إلى ذلك . ولهذا شجع توفيق رفعت على اشتراك المجمع فى المؤتمرات العلمية التى تعقد فى مصر أو خارجها ، وفتح الباب لمن شاء أن يسهم فيها من أعضاء المجمع بل كان يحرص على أن يرسل باسمه ممثلون معينون .

ومع كل هذه التوجيهات والتجديدات لا يفوتنا أن نشير إلى أن رئيس المجمع الأول كان أميل إلى المحافظة وأحرص على القديم، وشاء القدر أن يخلفه رئيس آخر من دعاة التجديد والإصلاح وهو أحمد لطفى السيد تلميذ جمال الدين الأفغانى ، وصديق محمد عبده ، وقد جاراه فى القول بضرورة إنشاء مجمع لغوى ينهض بالعربية ويمكنها من أن تسد حاجات العصر .

ويعد لطفى السيد بحق أول من وضع فكرة إنشاء مجمع لغوى موضع التنفيذ على شكل واضح . بدأ بهذا عام ١٩١٦ فيما سمى « مجمع دار الكتب » ، التى كان مديراً لها وأريد به أن يكون كاتب سر هذا المجمع ، وقد كون من كبار الشيوخ والعلماء وجمع بين العرب والمصريين ، وقدر له أن يعمر

بضع سنين ، ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ ، فاعترضت طريقه ، وانخرط لطفى السيد نفسه فى غمار هذه الثورة ، وعد من قادتها . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فكرته الغالية عام ١٩٣٢ يوم أن كان وزيراً للمعارف ، واستطاع أن يحول هذه الفكرة من حركة أهلية إلى هيئة رسمية ، وصدر المرسوم الملكى بإنشاء المجمع عام ١٩٣٢ ، وصدر بتكوينه مرسوم آخر عام ١٩٣٣ ، ولم يكن لطفى السيد من أعضائه ، مع أنه كان الداعى والمحرك للموضوع ، وهكذا كان لطفى السيد دائماً فى كل دعوات الإصلاح ؛ يذكر هدفه ، وينسى نفسه .

وفى عام ١٩٤٠ فقط ، دخل المجمع على رأس الرعيل الثانى الذى اشتمل على عشرة من صفوة أصدقائه ، أمثال محمد مصطفى المراغى ، وعبد العزيز فهمى ، أو من صفوة تلاميذه أمثال : مصطفى عبد الرازق ، ومحمد حسنين هيكل وطه حسين ، وفى عام ١٩٤٥ ، اختير رئيساً للمجمع ، واستمسك زملاؤه برياسته طوال حياته إلى عام ١٩٦٣ ؛ برغم رغبته المتكررة فى أن يخفف من أعبائه ، وله فى المجمع أياد كثيرة وآثار خالدة .

فعلى يديه فرق بين مجلس المجمع ومؤتمره ويضم المجلس أعضاء المجمع المصريين الذين درجوا على أن يعقدوا جلسة يوم الاثنين من كل أسبوع ، وحددت دورة المجلس بثمانية أشهر ، تبدأ يوم الاثنين الأول من أكتوبر وتنتهى يوم الاثنين الأخير من مايو .

وأصبح هذا تقليداً ملتزماً حتى اليوم ، وقد تضاف بعض الجلسات فى أيام أخرى بموافقة المجلس ، ويجمع المؤتمر بين الأعضاء المصريين والعرب والمستعربين ، ويعقد مرة كل عام وكانت مدة انعقاده طويلة فى البداية ، ثم قضت أعباء الحياة قصرها على أسبوعين رعاية لظروف الضيوف المشاركين ، ويعرض على المؤتمر فى كل دورة ماسبق للمجلس أن أقره ، ولا ينشر شىء باسم المجمع إلا بعد إقرار المؤتمر له .

وللطفى السيد مستحدثات أخرى ، نذكر من بينها جوائز المجمع الأدبية ، فقد شاء أن يأخذ المجمع بيد شباب الكتاب وأن يشجعهم على التأليف والكتابة. وتشاء الظروف أن تكون أول جائزة أدبية للمجمع من تبرع سيدة كريمة هى

هدى شعراوى . ثم خصص بعد هذا لجائزة الأدب اعتماد فى ميزانية المجمع ، بدأ رمزياً ، ثم نما على مر الزمن .

وكان شباب الكتاب يسعدون بالجائزة المجمعية برغم تواضعها ، ويكفى أن أشير إلى أن الأستاذ نجيب محفوظ شيخ كتاب القصة المصريين اليوم كان من أوائل من حصلوا عليها . وقد قصرت فى البداية على شباب المصريين ، ثم فتح بابها للمتسابقين فى العالم العربى جميعاً ، وأضيفت أخيراً جائزة أخرى لإحياء التراث ، وما كان أحوجنا إليه .

ويرمى لطفى السيد ظلماً بأنه كان من أنصار العامية ، ويظهر أننا نسينا ما كان له من يد فى تخريج جيل من أقلام الصحفيين الأوائل الذين جمعتهم « الجريدة » أمثال : طه حسين ومحمود عزمى ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد حسن الزيات .

وكان للطفى السيد قلمه ومحفوظاته القيمة فى الأدب العربى ، وكثيراً ماأصغى لها المجمعيون واستمتعوا بسماعها ، وكان يهدف خاصة إلىأن يقرب العامية من الفصحى وأن يجمع الأمة العربية على لغة خطاب واحدة ، وهذا هدف نتمناه جميعاً ، ونأمل أن نصل إليه إن قضينا على الأمية ، وثقفنا الناشئين بثقافة عربية كاملة ، ورغبة فى التقريب بين العامية والفصحى ، دعا إلى البحث عما تشتمل عليه لغة أصحاب الحرف المختلفة من ألفاظ عربية الأصل ، وهذا هدف لايزال المجمعيون ينشدونه ، وقد دعا لطفى السيد إلى البحث عما اشتملت عليه لغة هذه الحرف من ألفاظ عربية تمكننا من مواجهة متطلبات العلم والتكنولوجيا المعاصرة ، وكوّن المجمع لذلك جنوداً كان على رأسها إسماعيل مظهر .

وحرص لطفى السيد الحرص كله على أن يباعد بين المجمع والسياسة ، برغم أن مجمعنا كان يحمل اسم الجالس على العرش ، فسمى « مجمع فؤاد الأول » ثم « مجمع فاروق » ولم يكن لهذة التسمية أية دلالة خاصة لدى المجمعيين وحظى بعضوية المجمع بعض قدامى السياسيين ، ولكنهم كانوا يخلعون رداءهم السياسى قبل أن يتخطوا عتبة دار المجمع . و لا شك فى أن كثيرين منهم كانوا يسعدون بالروح العلمية التى سادت بحثهم ومناقشتهم ، وكانوا

يرون فى العمل المجمعى ضربا من الترويح . وشاءت بعض الأحزاب السياسية دون جدوى أن تبسط شيئا من سلطانها على هذه الحياة وأبعد لطفى السيد السياسى القديم هذه الأهواء عن صومعة الخالدين .

ورئيس المجمع الثالث هو طه حسين تلميذ لطفى السيد ربيبه ، اتصل به منذ فجر هذا القرن وتوثقت العلاقة بينهما على مر الزمن. وما كان أشد إخلاص التلميذ للأستاذ ، وأعظم إعجاب الأستاذ بتلميذه . جمعت « الجريدة » فى البداية بينهما ، وتأكدت العلاقة بينهما فى الجامعة المصرية القديمة ، وكان للطفى السيد صلة بها . وما إن عاد طه من بعثته حتى اتجه نحو الصحافة مرة أخرى وله فى السياسة الأسبوعية بوجه خاص توجيه ونشاط أثار الحركة الفكرية فى مصر . ويوم أن أصبح لطفى السيد مديرا لجامعة فؤاد الأول حرص على أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يضم الجامعة المصرية القديمة إلى الجامعة الحديثة وفتح الباب لطه حسين كى يؤدى رسالته فى كلية الآداب . ويوم أن اعتدت السياسة على استقلال الجامعة ، وأخرجت طه حسين من كلية الآداب لم ير لطفى السيد بدا من أن يقف إلى جانب تلميذه وصديقه وقدم استقالته التاريخية .

وعلى بساط مجمع اللغة العربية التقى طه حسين بلطفى السيد فى ميدان آخر ،وتعاونا ما وسعهما على دفع حركة التجديد والسير إلى الأمام . وكان من أول الأمور التى واجهتهما مسألة وضع معجم ألفاظ القرآن ، وقد أيدها لطفى السيد وطه حسين معا ، وإن باعد هذا بينهما وبين الأستاذ الأكبر مصطفى المراغى بعض الشىء . وتلى هذا موضوع آخر كان أعظم خطورة ، وهو الاقتراح الذى قدمه عبد العزيز فهمى ، وهو صديق الطرفين ، داعيا إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، وقد قضى المجمع دورة كاملة ، فى مناقشة هذا الاقتراح . ومن الظلم أن يعزى إلى طه حسين أنه كان من مؤيديه .

ويكفى أن أشير إلى أن المجمع كله رفضه جملة وتفصيلا . والحديث عن الحروف اللاتينية ألصق بالماضى ولا محل له فى الحاضر ، ومن اللغط أن نعود إليه مرة أخرى . سبق للمجمع أن تعاقد مع المستشرق الألمانى فيشر على

إخراج معجمه التاريخى . إلا أن هذا العقد لم يحقق مع الأسف أهدافه ، وكان لابد للمجمع من أن ينحو نحوا آخر . فشكلت لجنة لذلك وكان من حظى أن أسهمت فيها . وانعقد الرأى على أن هناك نصوصا أدبية ولغوية قديمة وأن إحياءها شرط أساسى لاستكمال مصادر المعجم التاريخى ، ولهذا استقر رأى على أن يقنع المجمع الآن بإخراج معجم كبير يعنى بأصول اللغة ومستحدثاتها ويفتح صدره للغة العلم والحضارة ويكمل سلسلة المعجم الوسيط. وشاء طه حسين راغبا أن يتولى بنفسه أمر هذا المعجم وقضى عشر سنوات يعد له . ويوم أن دعى إلى الوزارة رغب زملاؤه جميعا أن يخففوا عنه ولكنه أبى إلا أن يتابع جهده السابق وأخرج من هذا المعجم تجربة وزعت على الباحثين والدارسين لكى يبدو ما يعن لهم من نقد أو ملاحظة وكانت هذه التجربة دعامة العمل فى المعجم الكبير ، وقد أخرج منه جزء فى حياة طه حسين ولحقه جزء آخر بعد مماته والعمل فيه طويل النفس . وسيذكر طه حسين ما ذكرهذا المعجم وما تداوله الباحثون والدارسون .

ولطه حسين مواقف أخرى فى مجمع الخالدين سجلتها محاضر المجلس ومؤتمره ، وأختم حديثى بموقف واحد منها وهو تيسير النحو على الناشئين . وتلك قضية عاش معها طه حسين منذ خمسين سنة تقريبا ، فقد اشترك فى لجنة كونتها وزارة المعارف لهذا الغرض عام اثنين وثلاثين ، بناء على رغبة محمد بهى الدين بركات الذى كان وزيرا للمعارف حين ذاك وانتهت هذه اللجنة إلى مقترحات حفظت فى ملفات الوزارة زمنا ، ثم رئى عرضها على المجمع ولم يكن فيها أى جديد بالنسبة لطه حسين وكان كل همه بعد أن أقرها المجمع مع تعديل طفيف أن تأخذ طريقها إلى العمل والتنفيذ ، وطالب المجمع وزارة المعارف بأن تضع كتبا تتمشى مع هذه المقترحات وتبرع هو نفسه أن يسهم فى هذه الكتب أو يراجعها ولم تستجب وزارة المعارف لدعوته ولكن فكرة التيسير تسير فى طريقها ، وأعتقد أن القائمين على أمر تعليم اللغة العربية فى مدارسنا الأميرية والخاصة يدركون تماما أن اللغة تتعلم عن طريق الحوار والقراءة والمطالعة ، وكأنى بهم يتخففون الآن من القواعد النحوية ما استطاعوا

هؤلاء هم شيوخ الخالدين الذين قادوا السفينة ووضعوا تقاليد نهتدى بها ونسير على نهجها . وإذا كنا نذكرهم فى عيد المجمع الذهبى فإن الباحثين والدارسين سيذكرونهم على الدوام .

منصور فهمي

سيدى الرئيس . سيداتى . سادتى

عرفت الفقيد الكريم منذ ربع قرن أو يزيد عرفته أستاذا وعميداً ، مجمعياً وزميلا ، محاضراً وخطيباً ، كاتباً وباحثاً ، محدثاً ومناقشاً ، عرفته فعرفت فيه حماساً بالغاً لما ارتضته نفسه واطمأن إليه هواه.ولم يضعف هذا الحماس فى شئ : تقدم السن ولا مرور الأيام حتى لقد كان يقف فى شيخوخته مواقف تعز على بعض الشباب . عرفته فعرفت فيه التصويب إلى الهدف والحرص على الغاية إن تعلق بأمر سعى إليه ما وسعه ، وقصد إليه من مختلف جهاته . عرفته فعرفت فيه السباق إلى القول والراغب فى مخاطبة الجماهير لا يتردد فى أن يرفع الصوت جهرة إن حانت الفرصة أو دعا إلى ذلك داع . عرفته فعرفت فيه قوة العارضة والمثابرة فى الدفاع عن الرأى . وكم سمعته يدافع عن وجهات نظر معينة ، دون أن يمل تكرارا أو يخشى لججا فى الخصومة . عرفته فعرفت فيه أخيراً العربى المستمسك بعروبته ، المدافع عن أمجاده .

وإذا كان مجال القول فيه ذا سعة ، فإنى أكتفى بأن أرسم صورة مختصرة لحياته ، وأتحدث عن بحثه وإنتاجه ، وأقف قليلا عند عمله المجمعى .

* * *

ولد منصور فهمى فى منتصف العقد التاسع من القرن الماضى عام ١٨٨٦ م فى تلك الفترة من تاريخ مصر الحديثة المليئة بالآلام والآمال ويمكن أن نقسم حياته إلى مرحلتين واضحتين : — مرحلة الإعداد والنشأة ، ومرحلة النضج والإنتاج . وامتدت المرحلة الأولى إلى نحو الثلاثين سنة بدأها بالالتحاق بمدرسة

---

(١) ألقيت فى الجلسة العلنية للمجلس فى ١١ - ٥ - ١٩٥٩ (الدورة الخامسة والعشرون) .

المنصورة الابتدائية على مقربة من مسقط رأسه . وانتقل بعدها إلى القاهرة لمتابعة دراسته فى مدرسة فرنسية حرة حصل فيها على شهادة الدراسة الثانوية سنة١٩٠٦ واجتذبه الفقه والتشريع ، فالتحق بمدرسة الحقوق دون أن يمكث فيها طويلا ذلك لأن الجامعة المصرية القديمة أعلنت عن بعثة للفلسفة إلى جامعة باريس ، فتقدم لها ، وفاز بمسابقتها .

وسافر سنة ١٩٠٨ إلى أوروبا حيث قضى خمس سنوات نهل فيها من حياض العلم والأدب . فلم يقنع بالدراسات الفلسفية التى سافر من أجلها ، بل ضم إليها بعض الدراسات العلمية كالجغرافيا الطبيعية ، والفسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وكأنما شاء أن يستكمل وسائل منهج الدراسات الاجتماعية التى كانت سائدة فى السربون حين ذاك . وتتلمذ لأكثر من عالم وفيلسوف وتأثر خاصة بـ « ليفى بريل » أحد أقطاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية فى أوائل هذا القرن . وكللت دراساته بالنجاح . وحصل فيها على شهادات مختلفة ختمها بشهادة الدكتوراه .

ولم تصرفه قراءاته الأجنبية عن مصادر الثقافة العربية التى نهل منها فى طفولته وشبابه واستمر يرجع إليها طول حياته . فتوفرت له بذلك ثقافة شرقية وأخرى غربية . وأجاد الفرنسية إجادته للعربية وألم بقليل من الإنجليزية والألمانية . وكل تلك أدوات صالحة للبحث والدراسة وأتيح له قبل عودته إلى مصر أن يطوف ببعض بلاد أوروبا فكانت الرحلة كتاباً آخر أفاد منه إلى جانب ما درس وقرأ .

وقبل أن أنتقل إلى المرحلة الثانية من حياته ، لابد لى أن أشير إلى حادث رسالته للدكتوراه وكان موضوعها : « مركز المرأة فى الإسلام »
"La condition de la femme dans l'Islamisme"
وكان طبيعياً أن يختار موضوعاً كهذا فى جو تحرير المرأة المصرية فى ذلك التاريخ الذى تزعمه قاسم أمين وزملاؤه . إلا أن إدارة الجامعة التى أوفدته رأت أنه جرى على قلمه عبارات تتنافى واحترام التقاليد الدينية . وسعت جاهدة إلى منع تقديم رسالته . ولكن منصور فهمى الشاب أبى عليه حماسه إلا أن يسير فى الشوط حتى النهاية . فنوقشت الرسالة ، ونال عليها أعلى درجات الشرف .

وكم كان يرجى أن يقف الأمر عند هذا ولكن للأسف تلته إجراءات كان لها – فيما نعتقد – أثر بالغ فى حياة فقيدنا . فما أن عاد من بعثته حتى أسند إليه فى جامعته كرسى تاريخ المذاهب الفلسفية فى يونية سنة ١٩١٣ . وهذا ما أعد نفسه له . إلا أنه لم يمكث فيه طويلا . فقد استغنى عنه بعد نحو ستة أشهر لأسباب ترجع فى جملتها إلى تلك الرسالة وقد يكون فيما كتب ما يثير نقدا أو يقتضى ملاحظة ، ولكنه لا يؤدى إلى طرد أو حرمان وحرية البحث العلمى أفسح صدرا ، وأسمى من أن يعتدى عليها بسبب لفظ أو عبارة .

ومهما يكن من أمر فقد قضى فقيدنا فى بدء حياته العملية ست سنوات يجاهد ويناضل فى سبيل كسب عيشه . ويشعر شعور المطرودين والمحرومين وأغلب الظن أن ذلك كان نقطة فاصلة فى حياته . حول نقده الجرئ إلى حذر وحيطة ، وثقته بنفسه وبالناس إلى شك وريبة . وقد جرى على لسانه عام ١٩٢٥ فى خطورة من «خطرات نفسه» ما يفسر هذا تمام التفسير . يقول فى حديثه عن « فكر سجين » : « لم تقيدون الحرية ولا تحلونها ، ولا تشعرون بخيرها وبركتها » ومضى على هذه النغمة ثم تذكر «أن للجرائد قيودا وللكتابة قيودا » فمزق ما ما كتب وبدا له «أن يعقد اجتماعاً يتكلم فيه ، ويسير بلسانه بين المجالس يبشر ويدعو إلى ما يريد » . ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا أيضاً « لأ ن هنالك أربطة ذهبية ثقيلة تربط رجله ، وتجعله يحن إلى حياة أهون وسبيل ألين » .

وبعد لأى عاد منصور فهمى إلى جامعته عام ١٩٢٠ . وبقى فيها إلى أن حولت إلى جامعة أميرية ، وتدرج فى المناصب الجامعية من أستاذ مساعد إلى أستاذ ، ومن وكيل لكلية الآداب إلى عميد لها . تتلمذ له غير قليل ممن أضحوا أساتذة اليوم . واختير مديرا لدار الكتب ، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٦ . خمس وعشرون سنة تقريباً قضاها فى حياة جامعية متصلة أو منفصلة . وبذا يمكن أن يعد بحق من بناة صرحنا الجامعى الحديث .

وله إلى جانب هذا نشاط متنوع : اجتماعى وثقافى ، سياسى وصحافى ، فكان عضوا عاملا فى جمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الشبان المسلمين ، والاتحاد العربى ، ورابطة الإصلاح الإجتماعى ، ومن مؤسسى الحزب الديمقراطى . وأمد الأهرام بسلسلة من المقالات وأشرف على تحرير جريدة القاهرة زمناً ،

واشترك فى كثير من المحافل والمهرجانات والمؤتمرات . وإن أنس فلا أنسى رحلته إلى تونس على رأس بعثة الهلال الأحمر سنة ١٩٤٧ لمساعدة المنكوبين هناك . وما صادفها من أهوال وأخطار .

حياة ولا شك زاخرة ومتنوعة . أثرت فيها عوامل شتى ، وآتت ثماراً مختلفة ، مرت بها بعض سحب الشك . ولكنها لم تلبث أن اطمأنت إلى يقين جازم . ترددت بين الشرق والغرب ، ثم انتهت بأن آثرت الشرق بما فيه من معالم الروح والخلود .

وقد أنتج منصور فهمى ما أنتج : من خطب سيارة لم تقيد ولم تسجل ، أو مقالات صحفية لم تجمع ولم تبوب ، أو محاضرات لم تحرر ولم تنشر . وإذا كان قد نشر شيئاً من ذلك ، فإن كثيرا منه لا يزال مخطوطاً ونميل إلى أنه كان يعتزم أن يخرجه إلى النور وفى مكتبته تراث جدير بالنشر . وعسى أن يضطلع أبناؤه وتلاميذه بذلك .

وما نشر من إنتاجه يمكن أن يرد إلى ثلاثة أبواب : محاضرات وخطب ، مقالات صحفية ، بحوث وترجمات . ونستطيع أن نضع تحت الباب الأول محاضرته فى « أوقات الفراغ وكيف نستثمرها » (١٩٣٦) والضعف الخلقى وأثره فى حياتنا الاجتماعية (١٩٤٠) وخطبته فى ذكرى المولد النبوى (١٩٤٢) ونشر له معهد الدراسات العربية أخيرا (١٩٥٥) سلسلة محاضرات عن رائدات النهضة النسائية الحديثة ، وذو الشوق القديم وإن تسلى ، وكأنما شاء أن يعود إلى موضوع المرأة بعد أن لاقى فى سبيله ما لاقى . وفى هذه السلسلة عرض تاريخى مستوفى ، وتحليل أدبى مستفيض .

ولم ينشر شيء من محاضراته الفلسفية فى الجامعة ومدرسة المعلمين العليا . وقد اتجهت فى أغلبها نحو الأخلاق والدراسات الاجتماعية .

وفى نحو ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط أخرج ما سماه « خطرات نفس » جمع فيه طائفة من المقالات التى ظهرت له فى الصحف بين عامى ١٩١٥ ، ١٩٣٠ . فيتحدث عن « ضمير قلق » ، « ساعة عبادة » ، « طيف زائر » ، « عام جديد » ، « صور من النفاق » ، « القهوة والبيت » ، « التسامح » ، و « الرضا »

أربع وستون خاطرة فى لفظ واضح ، وأسلوب موجز ، وهدف محدود ، ومنها قوله فى « العيش الحقير والعيش الكبير» : « أعلم أن خير العيش أن تعرف أن الحياة حق وأن التقدم المعقول حق وأنه من الواجب عليك أن تشترك بشىء من جهودك فى هذا التقدم المعقول » . وقوله : « الجمال خطيب صامت لا يرغب أن يتحدث الغير عنه ، إذ فى صمته كل فصاحة ، وفى سكوته كل بيان . الجمال نسب وأوزان قد تحسه النفس أحيانا بواسطة العين . . . وقد نسمعه بواسطة الأذن . . . الجمال متكبر قاهر متجبر لأنه يجل عن أن يقدمه للنفوس أحد . فهو يعرف نفسه بنفسه . قاهر لأنه يغلب الأنفس القوية على أمرها ، فيوقع فى أسره من شاء ، ويتخير لرقه من شاء . الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث انها لا تعرف بذواتها ، ولكنها تعرف بآثارها » .

وهكذا صدق فى المعنى وصدق فى التعبير . ولا أظن أن منصور فهمى كتب على سجيته مثلما كتب فى خطراته .

أما بحوثه فأهمها رسالته للدكتوراه . وفيها منهج قويم ، ودرس واستيعاب ووقوف على أهم المصادر الإسلامية . وإن خرج الحماس ببعض أحكامها عن دائرة الموضوعية العلمية ، إلا أنا نعتقد أن هناك بحوثا إسلامية أخرى أعمق نقدا ، ولم تصادف ما صادفت هذه الرسالة من لوم واعتراض .

وحرية الرأى ظاهرة اجتماعية تخضع للظروف والملابسات تحترم حينا ويعتدى عليها حينا آخر . وله بحث آخر كتبه بالفرنسية أيضاً . وعنوانه : « قراء وأميون Lettrés et Illettrés » تقدم به إلى أحد المؤتمرات العلمية وقام فيه ببعض التجارب معولا على كلا باريد ودكرولى من أعلام النفس التجريبى فى أوائل هذا القرن . وترجم لجوته بمناسبة مرور مائة عام على وفاته قصة هرمان ودوروثيا Hermann and Dorothea وتبدو فيها نزعته اللغوية مبكرة . فيتحاشى التعريب ويحاول ما وسعه أن يؤدى المعانى بألفاظ وعبارات عربية حتى لقد شاء أن يجد مقابلا للأعلام اليونانية القديمة . فيضع لكليو Klio (شيطانة التاريخ) راوية ولأورانيسدا urania (شيطانة الفلك) علوية .

ويحاول فى إنتاجه كله أن يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب . وهو إلى الأخير أميل . وفى أسلوبه صفاء ونقاوة يحرص على الوضوح الحرص كله . ويتخير لفظه وعبارته وقد يلجأ إلى الصنعة والتنسيق فيسجع أو يأتى بما يسمى الشعر المنثور . وله خيال خصب وغرام كبير بالتشبيه والصور المجازية وكأنما غرس ذلك فى نفسه منذ زمن مبكر . يقول فى إحدى خطراته : « لقد كان لطائفة من الكتاب الخياليين سلطان علىّ . فكنت أصبو صبوا للصور والخلال الكريمة والأشباح التى كانت تخرجها أذهانهم قبل أن أتصل بحقائق الحياة المؤلمة » .

وليس فى آرائه ونظرياته عامة ما يجاوز العرف أو يخرج عن المألوف . وقد وجهته دراسته الاجتماعية نحو العناية بالمنهج التاريخى ، والوقوف عند بعض المقارنات ، واستخلاص بعض الظواهر الاجتماعية والأخلاقية . ويلجأ إلى الاستشهاد كثيراً ، فيروى قصة ، أو يشرح حادثة أو يسرد أثراً ليخلص منه إلى ما يريد ويستعين به على توضيح ما يدعو إليه .

ولم ترتبط حياة منصور فهمى بشىء ارتباطها بالمجمع والمجمعين ، اختير عضوا فى مجمع اللغة المصرى منذ إنشائه سنة ١٩٣٣ وانتخب كاتب سره سنة ١٩٣٤ . وبقى على ذلك إلى أن اختاره الله لجواره . وكان عضوا مراسلا للمجمع العلمى العربى بدمشق ، وللمجمع الإيرانى ، والمجمع العراقى ، ولم يفته مؤتمر من مؤتمرات المجامع أو اتحاداتها . وفى مجمع اللغة المصرى اضطلع بغير قليل من أعبائه ، فكان عضوا فى مكتبه ، ثم فى مجلس إدارته ، واشترك فى أكثر من لجنة من لجانه وخاصة الطب ، والأصول ، واللهجات . وكان ذا نزعة خاصة واتجاه ثابت فيما يتعلق بمبادئه ومنهج العمل فيه .

أخذ نفسه بشرح رسالته والدفاع عنه . ولم يسلم المجمع من بعض الحملات داخل البرلمان وخارجه ، فكان منصور فهمى يسارع إلى ردها وشرح الموقف على حقيقته . ومن أحدث ما كتب فى ذلك محاضرته التى ألقاها فى مؤتمر اتحاد المجامع اللغوية والعربية بدمشق عام ١٩٥٦ وكان يدعو دائماً إلى تنسيق الجهود بين المجامع اللغوية العربية المختلفة ، وربطها بعضها ببعض . وما أن أعلنت الجمهورية العربية المتحدة حتى أخذ يدعو إلى توحيد مجمعى الأقليم الشمالى والإقليم الجنوبى .

ويطول بنا الحديث إن شئنا أن نعرض لتفاصيل نشاط منصور فهمى المجمعى ويكفى أن نشير إلى أمثلة منه، فله حوليته التى كان يلقيها فى افتتاح المؤتمر السنوى، ويعرض فيها لأعمال المجمع طوال العام. وإنها لمهمة ثقيلة. وكثيرا ما حاول أن يخففها بما أحاطها به من تشبيه وتصوير، أو عرض لبعض القضايا الكبرى كتعليل التضاد من قوانين النزعات النفسية، أو بيان الصلة بين اللغة والفكر أو بينها وبين الزمن، أو أنها أجلى مظاهر القومية والمتتبع لتاريخ المجمع اللغوى فى ربع القرن الماضى سيجد فيها تسجيلا لأهم أحداثه، وعرضاً شاملا لمظاهر نشاطه.

وله جهده المستمر فى تخير كلمات عربية قديمة أو جديدة، مشتقة أو منحوتة لأداء بعض المعانى، كالمدراس لقاعة البحث، والهدام لدوار البحر، والمهرق لورق الشمع، والغبرية للمذهب الفلسفى المشهور. وكلنا يذكر ملاحظته التقليدية حين يسمع لفظاً أجنبياً معرباً فى النبات أو الكيمياء أو الطبيعة: «ألا من لفظ عربى يغنينا عن هذا الدخيل».

وهذا جهد مشكور ولا شك إلا أن الاستمساك بالألفاظ العربية وحدها وسد باب التعريب، حرمان للغة من غذاء جديد.

وما أحوج اللغات ككل كائن حىّ إلى الغذاء. وقد أخذت اللغات بعضها عن بعض من قديم. ولاتزال تسير على هذه السنة إلى اليوم. ورب لفظ مشتق أو منحوت أعذب من لفظ معرب صقله الاستعمال وألفته الأذن.

وهنا نصل إلى نقطة حاسمة فى نشاط منصور فهمى المجمعى. لا شك فى أنه كان مجمعيا بقلمه ولسانه بقلبه وفكره. ولكنه من ذلك الفريق الذى يؤثر التريث والأناة على البت والقطع، وإذا كان لكل هيئة جناحان: أيمن للارتكاز والتوقف، وأيسر للعدو والحركة، فإنه كان من دعائم الجناح الأيمن للمجمع اللغوى. واستطاع أن يطبع أعماله الإدارية والفنية بهذا الطابع الخاص فى ربع القرن الماضى. ولسنا بصدد المفاضلة بين جناحين أو اتجاهين. فللقديم حرمته، وللجديد لذته، وإنما نود أن نلاحظ فقط أن حضارتنا خلق وابتكار وتجديد وتغيير، وهى أميل إلى القفز والسرعة، بل الجرى والطيران، ولابد لنا من متابعتها، وإلا تخلفنا عنها.

هذا هو منصور فهمى فقيد الجامعة والمجمع ، فقيد العلم والأدب ، فقيد المنبر والقلم ، عاش لغيره أكثر مما عاش لنفسه ، وساهم فى تكوين جيل من الفلاسفة والأدباء ، وارتبط ببعض المنشآت التى أضحى جزءا منها وكانت شغله الشاغل . وهو فى كل هذا أقرب إلى الجد منه إلى المرح ، وإلى الهدوء والرزانة منه إلى الاندفاع والحركة برغم ما يبدو عليه من حماس ظاهر ،وصوت جهورى ، وكأنما كان يخشى التجديد السريع الذى لا يقوى على حملات القديم واعتراضاته ، والإصلاح الجرىء الذى لا يتمشى مع العرف والعادة أو لا يرتضيه ذوو الجاه والسلطان . وقد يكون لصدمة رسالته للدكتوراه شأن فى ذلك .

وكيفما كان الشأن فهو ممن يقولون : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » . وقد أثبت العلم والتطور أن المتأخرين كشفوا عن أمور كثيرة لم تخطر ببال المتقدمين ويخيل إلىّ أنه عدت عليه مسحة من التشاؤم جعلته يخشى الطفرة ، ويتسلح بالحيطة والحذر .

وتحضرنى الآن ملاحظة عميقة من ملاحظاته فى مناسبة كهذه ، ولا أستطيع زاءها أن أسترسل أكثر مما فعلت.فقد كان فى وفائه لزملائه سباقاً إلى استقبالهم عند دخول المجمع ، وتأبينهم عند الرحيل عنه . ووقف مرة يرثى زميلين كريمين هما : الإسكندرى الأديب المصرى ، ونللينو المؤرخ الإيطالى فقال : يلوح أن المراثى تقدير للمتوفين ووفاء لهم بما قاموا به من صالح الأعمال . ولكن هل بمن هم فى جوار ربهم حاجة إلى تقدير البشر ؟ وهل بمن وفوا حسابهم فى الدنيا حاجة إلى من يوفيهم من الناس حسابا وهم عند ربهم يحاسبون ؟ هيهات ! ! هيهات ! ! هيهات . إنما نقلب صفحات الموتى لأنفسنا بما نستفيده من هذا التقليب فمن أجل الحياة نستلهم الموت ومن أجل الأحياء نستغل الموتى إحسانا ونرثى الراحلين » .

لويس ماسينيون

من صومعة الخالدين هذه نودع زميلا كريماً عاصر المجمع منذ البداية ، وكان من مؤسسيه الأول الذين لم يبق منهم إلا اثنان بعده . اختير لعضويته عام ١٩٣٣ مع من اختيروا من الأعضاء الخمسة المستشرقين ، وكان فخورا بهذا الاختيار ، حريصاً دائما على المساهمة فى نشاط المجمع ، والاشتراك فى مؤتمره حتى يوم أن ضيقت الحرب العالمية الثانية السبل وعز معها الاتصال . وكان يرقب هذا المؤتمر عاما بعد عام ، ويتأهب له . ويشعر بالحرمان حقاً إن منعه مانع من شهوده ، ولا أزال أذكر ألمه الشديد يوم أن حال حادث موسكو دونه وحضور مؤتمر عام ٦٠ / ٦١ ، كما أذكر سعيه الجاد للاشتراك فى المؤتمر الأخير . وحتى شهر أغسطس كان يكتب إلىّ متأهبا للمساهمة معنا فى المؤتمر القادم ، وتقدرون فتضحك الأقدار .

ونودع أيضاً علماً من أعلام الاستشراق فى القرن العشرين ، وزعيم المستشرقين اليوم غير منازع ، حظى بتقدير واحترام لم يحظ بهما مستشرق آخر ، وكان حجة فى القول والعمل ، وامتد نفوذه إلى العالمين القديم والجديد اتصل بالمسلمين منذ العام الأول من هذا القرن ، وزاد اتصاله بهم وثوقا على مر الزمن . فرحل إلى أقطارهم المختلفة ، وزار عواصمهم الكبرى فى الشرقين الأقصى والأدنى ، وشاركهم فى السراء والضراء . وتوفرت له بينهم صداقات متينة ، وأضحت بيوتهم بمثابة بيته . وكم كان يشعر بالهدوء والغبطة حين ينزل فى القاهرة ، التى كان يعدها وطنه الثانى . وإلى سبتمبر الماضى كان يتأهب لزيارة أفغانستان ليساهم فى ذكرى الأنصارى الصوفى الحنبلى ، ويعد كلمة لمهرجان بغداد الذى أقيم أخيرا . عرف العالم الإسلامى حق المعرفة فى ماضيه وحاضره ، فى تراثه ومجده ، وكأنما عاش فيه ومن أجله . فجاء درسه له دقيقاً

(١) الجلسة الثالثة عشرة — الدورة التاسعة والعشرون فى ٢ من ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

مستوعباً ، وحكمه عليه وثيقاً مدعماً ، ويعد بحق أكبر عالم فى «الإسلاميات» بين الغربيين .

وسنؤرخ له فى اختصار ، مبينين أخص خصائص حياته ومصنفاته ، وأهم آرائه ونظرياته .

(أ) حياته :

لم يترجم ماسينيون لنفسه ترجمة ذاتية ، كما يصنع بعض المفكرين ، وما أشد حياءه حين يسمع حديث الناس عنه وتنويههم بآثاره ، ولا يكاد يذكر شيئا عما مر به من أحداث إلا لماما وفى لمحات خاطفة . ولكن لحسن الحظ درس أثناء حياته دراسة قل أن يحظى بها باحث آخر ، فوضع بمناسبة بلوغه السبعين مؤلف ضخم هو Mélanges - Louis Massignon ويقع فى ثلاثة أجزاء كبيرة يزيد حجم كل واحد منها على ٤٢٥ صفحة من القطع الكبير . اشترك فيه عدد غير قليل من زملاء ماسينيون وتلاميذه وأصدقائه ، بين عرب ومستعربين ، وكتب بعدة لغات ، أهمها الفرنسية ، وإلى جانبها الإنجليزية والألمانية والتركية ، ويدور حول الحضارة الإسلامية فى أوسع معانيها ، ففيه لغة وأدب ، وعلم وفن ، ودين وفلسفة ، وهو بهذا مصدر قيّم من مصادر الحياة الفكرية فى الإسلام . وفيه مقدمة للأستاذ هنرى ماسيه ، زميل ماسينيون وصديقه ، وهو بهذا خير من يعرف به ويرسم الخطوط الرئيسية لمعالم حياته . وأضاف إليها الأب هبارك، تلميذه ، فهرسا جامعا لبحوثه ومؤلفاته ، يقع فى نحو خمسين صفحة .

وفى العام الماضى أخرج الباحث الهولندى فارون بورج Waardenburg كتاب الإسلام فى مرآة الغرب (L'Islam dans le miroir de l'Occident) وهو رسالة الدكتوراه من جامعة أمستردام ، صدر فيها عن خمسة من المستشرقين ، هم : جولدتزيهر النمساوى ، وبيكر الألمانى، وسنوخ الهولندى، ومكدونالد الأمريكى ، وماسينيون ، وكلهم أموات حين ذاك إلا واحدا سما إلى مرتبة الخلود وإن كان حيا ، واختياره على هذه النحو يدل على منزلته

الخاصة بين علماء الدراسات الإسلامية الغربيين . وفى هذه الرسالة ترجمة مفصلة لحياته ، وعرض لكثير من آرائه .

* * *

وحياة فقيدنا ولا شك خصبة زاخرة ، جمعت بين العلم والعمل ، وامتلأت بالإنتاج المتواصل والنضال الذى لا يمل . وتنقسم إلى مرحلتين متميزتين : مرحلة تكوين ونشأة لم تجاوز العشرين ، ثم تلتها مرحلة إنتاج وعمل دائب أوشكت على الستين . وقد ولد لويس ماسينيون فى الخامس والعشرين من شهر يولية عام ١٨٨٣ بضاحية هادئة من ضواحى بارس ، هى: Nogent-Sur-Marne وترجع أصوله إلى مقاطعة بريتانى. وكان أبوه طبيبا مولع بالفن ، وخاصة النحت والتمثيل الذى اشتهر به فى أخريات القرن الماضى . وقد ألحق ابنه بليسيه لوى لجران Louis le Grand الشهيرة ، وحصل على البكالوريا بقسميها الأدبى والرياضى فى عامى ١٩٠٠ و ١٩٠١ وفى الأعوام الأربعة التالية حصل على ليسانس الآداب ، ودبلوم الدراسات العليا فى التاريخ والجغرافيا ، ودبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية ، ودرس السنسكريتية والعلوم الدينية بالسربون ، وعلم الاجتماع فى الكوليج دى فرانس ، برغم انقطاعه للخدمة العسكرية عاما كاملا .

وقد اجتذبته الرحلة والسفر منذ سن مبكرة ، واستمر يرحل دون انقطاع ، وكثيرا ما كنا نتساءل كيف كان يوفق بين سفره ودرسه . وفى السنوات العشر السابقة على الحرب العالمية الأولى تنقل بين عواصم العالم الإسلامى وبلدانه ، ولكنها كانت جميعا رحلات بحث ودراسة . فسافر إلى الجزائر بعد حصوله على البكالوريا فى رحلة قصيرة عام ١٩٠١ ، وإلى مراكش عام ١٩٠٤ ، وكتب عنها بحثا نال به دبلوم الدراسات العليا ، وأخذ يقتفى آثار ليون الأفريقى . فى عام ١٩٠٥ اشترك فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين الذى عقد فى الجزائر ، حيث التقى بجولد تزيهر وأسين بلاسيوس . وفى سنة ١٩٠٦ عين عضوا بمعهد الآثار الفرنسى بالقاهرة ، فرحل إليها وقضى فيها عاما كاملا يحفر وينقب ويراقب ويلاحظ . وفى العالم التالى عهد

إليه القيام بأبحاث فى آثار العراق الإسلامية ، فسافر إلى بغداد فى شتاء ١٩٠٧ ، ونزل ضيفا على بيت الألوسى المعروف . وقام بحفائر فى بادية العراق ، وزار مشاهد الشيعة كلها ، فمر بكربلاء والنجف والكوفة ، ولم تفته « سلمان باك » تلك القرية الصغيرة التى دفن فيها صحابيان جليلان هما سلمان الفارسى وحذيفة . وفى هذه الرحلة وقف على قبر مهمل بين قبور بغداد فتح أمامه الطريق ، وبعث فى نفسه ما بعث من يقين وبهجة ، وهو قبر الحسن بن منصور الحلاج . وفى سنة ١٩٠٩ ذهب إلى استانبول للاطلاع على ما فيها من نفائس التراث الإسلامى . وظل يتردد على القاهرة شتاء كل عام إلى أن دعى للتدريس بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩١٢ / ١٩١٣ ، وانصب درسه على المذاهب والمصطلحات الفلسفية فى الإسلام .

وعلى أثر قيام الحرب العالمية الأولى طلب للخدمة العسكرية ، وعين ضابطا فى جيش الشرق واشترك فى معركة الدردنيل ، ودخل القدس تحت قيادة ألنبى . ولما وضعت الحرب أوزارها عين فى سنة ١٩٢٠ بديلا لأستاذه Le Chatelier بالكوليج دى فرانس فى كرسى « علم الاجتماع الإسلامى » ، ولم يلبث أن أضحى أستاذا لهذا الكرسى عام ١٩٢٦ ، واستمر يشغله إلى أن بلغ السن القانونيةعام ١٩٥٤ ، فقضى فى الكوليج دى فرانس نحو ثلاثين عاما ، كان فيها منارا للدراسات الإسلامية ، وهاديا لطلاب البحث من عرب ومستعربين . ولم يمنعه عمله بها من الرحلة والسفر ، فلم يفته مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين ، ولم يتردد فى أن يحاضر فى عواصم الإسلام المختلفة ، بل وفى بعض جامعات الولايات المتحدة . وأقام فى كابول وطهران زمنا ، وسافر إلى الهند ليتتبع آثار غاندى ، واجتذبته اليابان بما فيها من حياة دينية وروحية . وكانت هناك أماكن تستهويه بوجه خاص ، وعلى رأسها بيت المقدس ، وأفسس مقر أهل الكهف ، ودمياط التى أسس فيها جماعة الأخوة المسيحية الإسلامية أو « البدلية » ، وقضى فيها يوما كاملا فى البحث عن ضريح . وإلى جانب هذا كله رأس قسم العلوم الدينية بالدراسات العليا فى السربون نحو عشرين عاما ومسابقة تدريس اللغة العربية ما يزيد على عشر سنوات .

حياة حافلة بالكشف والبحث ، والدرس والمحاضرة، وقد أعانه عليها ذهن متوقد ، وعبقرية خارقة ، وصبر وجلد ، وحب وتفان فيما يقصد إليه وما يضطلع به . وأغلب الظن أنه ورث عن أبيه ميوله الفنية ، وبحوثه الأثرية التى بدأ بها حياته العلمية . واتصل بأناس كان لهم أعظم الأثر فى نفسه ، وفى مقدمتهم ويسمانس الكاتب القصصى الكاثوليكى المشهور صديق والده ، زاره فى شرخ الشباب ، وبقيت هذه الزيارة عالقة بذهنه إلى النهاية . ولقى الأب شارل دى فوكو ، ذلك الراهب الذى كان يعيش فى صحراء الجزائر ويدعو إلى الأخوة فى الله . فأخذ باتجاهاته الدينية ، وراسله عدة سنين وتتلمذ لكبار الأساتذة فى عصره ، أمثال برونو فى الأدب الفرنسى ، وسلفان ليفى فى السنسكريتية ، وجولد تزيهر وسنوخ فى الدراسات الإسلامية . وكان لأسفاره العديدة شأن فى استكمال خبراته وتجربته ، وأثر عظيم فى بحثه ، أملت عليه دراسات مختلفة ، وأوحت إليه بآراء كثيرة .

(ب) مصنفاته :

أمضى ماسينيون نحو ستين عاما يكتب ويؤلف وأخرج ما يربو على ستمائة بحث ، بين كتاب ورسالة أو مقالة ومحاضرة ، أو نقد وتعليق .ومنها قدر لم ينشر بعد ، وخاصة محاضرات الكوليج دى فرانس ، وكثير مما نشر موزع بين مجلات العالم وصحفه ، ويضطلع الأب مبارك بجمعه ونشره جملة تحت عنوان : «المؤلفات الصغرى». كتب ماسينيون بالفرنسية بوجه عام، وله بحوث بالعربية والفارسية والإنجليزية والألمانية . والواقع أنه كان يعرف عدة لغات حية وقديمة ، فمن اللغات الحية ضم إلى الفرنسية العربية والفارسية والإنجليزية والألمانية ، ومن القديمة كان متمكنا من اليونانية واللاتينية ،وملما بالسنسكريتية والعبرية . وقد ترجم بعض مؤلفاته إلى لغات مختلفة فى الشرق والغرب ، وأعيد طبع بعضها أثناء حياته ، ومنها ما نفد ولا سبيل إليه ، وخاصة كتابه الكبير عن الحلاج الذى كان قد اعتزم إعادة طبعه ، وما أحوج الباحثين إليه .

ويمكن أن ترد مصنفاته إلى أبواب ثلاثة رئيسية :

١ ــ آثار وتخطيط .

٢ ــ تصوف ودين .

٣ ــ اجتماع وحضارة .

أشرنا من قبل إلى أنه بدأ بالآثار ، وشغل بها فى شمال أفريقية ومصر والعراق . وأخرج فيها بحوثا قيمة يمكن أن نذكر من بينها « لوحة جغرافية للمغرب فى الخمس عشرة سنة الأولى من القرن السادس عشر ، أخذا عن ليون الأفريقى » .

(Tableau géographique du Maroc dans les 15 premiéres années du XVIe siécle, d'aprés léon l'Africain, Alger 1906) .

و « بعثة فى شبه الجزيرة » .

(Mission en Mésopotamie, Le Caire 1912) .

الذى ظهر فى جزئين كبيرين بين مطبوعات المعهد الفرنسى . وله كتاب ثالث ظهر أخيرا عن « قرافة الدرب الأحمر » .

(La Cité des Morts au Caire, Le Caire, 1958) .

ويشهد هذا الكتاب بحق على مدى صبره وجلده وإيمانه بما يسعى إليه .

أما التخطيط فله فيه بحوث نذكر منها تخطيط بغداد ، والكوفة والبصرة

والتصوف فى الواقع دعامة بحوثه ، كتب فيه ما لم يكتب فى أى باب آخر ، وظهرت فيه مؤلفاته الكبرى . وضع فيه أولا « عذاب الحلاج شهيد التصوف فى الإسلام » .

(Le passion d'Al Hallag, martyr mystique de l'Islam, 2 vol. Paris 1922-1954).

وهو رسالته الأولى للدكتوراه .

وثانيا ــ رسالته الثانيــة ، وهى « بحث فى نشأة المصطلح الفنى فى التصوف الإسلامى » .

(Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, Paris 1922, 1954) .

وثالثا ــ « مجموع نصوص لم تنشر تتعلق بتاريخ التصوف فى بلاد الإسلام »

(Receuil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam Paris 1929) .

وله بحوث توضح بعض الظواهر الصوفية كالزهد والحلول والتجربة الصوفية ، أو تترجم لبعض المتصوفة كالمحاسبي وابن سبعين والششترى . وعنى بالحلاج عناية كبرى ، لأنه صادف هوى من نفسه ، أعجب بشجاعته وتضحيته ، ورأى فى حياته تجربة إنسانية تبعث على الطهر والصفاء . فترجم له غيره ، ونشر كتبه وجمع مصادره المختلفة ، وبين أثره فى الحلاجية والزيدية وفريد الدين العطار ولا شك فى أن رسالته الكبرى عنه عمل خالد وذات منزلة ممتازة . تقع فى نحو ١٠٠٠ صفحة ، وتكاد تلم بكل مظاهر الحياة الإسلامية ببغداد زمن الحلاج وتصور بيئته تصويرا تاما . وسيبقى الحلاج وماسينيون مقترنين على مر الزمن .

ولماسينيون بحوث شتى فى الفرق والمشاكل الدينية ، وخاصة ما اتصل منها بالشيعة والإسماعيلية . فعرض للغنوصية والهرمسية والصابئة والقرامطة والنصيرية والدروز وسلمان الفارسى والمباهلة ، كما عرض لأصحاب الكهف وصلوات إبراهيم الثلاث ، وقارن بين الأديان السماوية الكبرى .

كان طبيعيا أن يعنى بعلم الاجتماع ، وقد شغل كرسيه نحو ثلث قرن ، واستوقفته بعض الظواهر الاجتماعية فى ماضى الإسلام وحاضره . فدرس العمل والمشكلة العمالية فى الإسلام ، والمهن والحرف فى المغرب ، وأثر الإسلام فى نشأة المصارف اليهودية فى القرون الوسطى . وعرض لتعلم المرأة والحجاب ، وموقف الإسلام من الحضارة الأوربية . وتابع الأحداث الجارية فى جرأة وصراحة ، فكتب عن « الصهيونية والإسلام » ، و« الإسلام والسياسة المعاصرة » ، و« تقسيم فلسطين » ، و« اللاجئون » ، و« الموقف فى الجزائر » . وكان يعالج ذلك كله بروح الباحث المنصف والعالم المحقق ، ويعرف كيف يقدر ظروف البلاد الإسلامية حق قدرها . وفى مقدمة دراساته الاجتماعية « الكتاب السنوى للعالم الإسلامى » . (Annuaire du mode musulman, 1923-29,54) . أخرجه ثلاث مرات فيما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٥٤ ، مع إضافات وتنقيح مستمر . وهو مصدر ملىء بالمعارف الدقيقة والمعلومات الوثيقة فى الثقافة والسياسة والاقتصاد عن العالم الإسلامى بأسره فى أفريقية وآسيا وأوربا ، فيتحدث عن بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقية وتركيا وإيران وأفغانستان ، والباكستان كما

يتحدث عن أندونيسيا والجمهوريات الإسلامية الروسية ومسلمى الهند والصين واليابان ، ولا يغفل مسلمى أفريقية الغربية والاستوائية ، ولا مسلمى أوربا ، وحبذا لو تعهد هذا المورد العذب .

وإلى جانب هذا عرض ماسينيون للغة العربية وتاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية ، فحدثنا هنا عن ميتافيزيقى اللغة ، وعبقرية النحو العربى ، وقيمة الخط العربى فى تأسيس فن النقش المجرد . ووازن بين المعجم الأوربى والمعجم العربى . وكتب عن « الإسماعيلية ونشر العلم » وعن « البيرونى والقيمة الإنسانية للعلم العربى» ،وعن «غيوم ما جيلانوا كتشاف لها » (Les Nuages de Magellan et leur découverte par les Arabes, Paris 1962) . وهو آخر بحث أخرجه هذا العام ، وكشف عن جوانب بعض كبار فلاسفة الإسلام ، أمثال الكندى والفارابى ، وابن سينا ، وشغل زمنا بإخوان الصفاء . وأدار لمدة ربع قرن أو يزيد « مجلة العالم الإسلامى » (Revue du Monde musulman) . و « مجلة الدراسات الإسلامية » (Revue des détudes islamiques) . التى حلت محلها وفى كلتيهما تحقيقات علمية وأدبية كثيرة وأسلوب ما سينيون صاف نقى ، يتخير لفظه ويتأنق فى عباراته حتى تكاد تشبه النثر المنظوم وله غرام بالتركيز ، وولوع بالرمز والإشارة والتلميح وكأنها عادة اكتسبها من أساليب المتصوفة ولغتهم . وأداء للمعنى على أكمل وجه لا يتردد فى أن يضع ألفاظا جديدة ، وزيادة فى التوضيح يلجأ إلى المجاز والتشبيه وضرب الأمثال ويستطيع بقلمه أن يرسم صورا ناطقة للأشخاص ، كما كان يصنع لهم أبوه بمنحاته تماثيل معبرة . منطقه محكم ، واستدلاله مقنع ، وحجته بالغة : ولا بد فى رأيه أن ترد الأمور دائما إلى أصولها ومبادئها ، وكثيرا ما كانت تجرى لفظة الأصول على لسانه .

***

ويعول فى بحثه ودرسه على المنهج التاريخى والمنهج التحليلى معا ، وهو دون نزاع مؤرخ من الطراز الأول . بدأ حياته العلمية بالحفر والتنقيب عن

الاثار ، ثم استمر ينقب عن المراجع والمصادر ويوازن بينها ، ويكشف عن نقصها أو زللها ، ولا يكاد يغيب عنه مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية قديما كان أوحديثا . وجدّ فى الاستقصاء والبحث عن المخطوطات النادرة إلى درجة لاتبارى ، وكثيرا ما ساعد بها التلاميذ على التحقيق والدراسة . ولا يكاد يعالج موضوعا حتى يستوفى تاريخه ، فدراساته فى التصوف مثلا تاريخ فى تصوف وتصوف فى تاريخ . وأبحاثه الاجتماعية تقوم على الماضى والحاضر معا .

وأما منهجه التحليلى فمدعاة للدهشة والإعجاب ، ذلك لأنه يسرد وقائع ويأتى بتفاصيل عن الماضى البعيد يتساءل السامع أو القارىء كيف استمدها . يغوص حتى الأساس ، وقد يستطرد ، ولكنه يحاول لم الأطراف وجمع الأمور المتشابهة بعضها إلى جانب بعض . وتحليله للنصوص عميق دقيق ، ينفذ إلى صميمها ، وينطقها بحيث يجعل من حروفها الميتة صورا متحركة . ولكنه يحلل ليركب ، ويفصل ليجمل ، ويسرد الوقائع ليستخلص منها مبادىء وأحكاما عامة . وكأنما كان يؤمن بضرب من حتمية التاريخ ، ويرى أن الظواهر التاريخية — كالظواهر الطبيعية — تخضع بدورها لفلسفة وميتافيزيقى خاصة .

يلحظ على مؤلفات ماسينيون ، وخاصة الصغرى وهى الغالبية العظمى أنها أبعد ما تكون عن ملخصات الجمع والتحصيل . وإنما تهدف إلى إثارة مشكلة أو حل أخرى ، أو ترمى إلى إبداء رأى أو مناقشة آخر ، وأستاذ الكوليج دى فرانس إنما كان يخاطب المتخصصين وليس بيسير أن نحاول هنا تتبع آرائه المختلفة ، ونكتفى بأن نشير إلى دعائم تفكيره .

لقد كان يؤمن بالحضارة الإسلامية ، ويرى أنها حضارة ذاتية ، صنعها الإسلام بتعاليمه ومبادئه ، وساهمت فى بنيانها الشعوب الإسلامية المختلفة . ولا نزاع فى أنه سرت إليها تيارات من الحضارات الأخرى ، ولكنها عدلتها وهذبتها وأصبحت جزءا منها ، وهى وليدة عواملها الداخلية قبل أن تكون المؤثرات الخارجية . وإذا كانت قد أخذت عن غيرها ، فإنها أعطت بقدر

ما أخذت أو يزيد . لها علمها وفنها ، ولها نظمها السياسية والاجتماعية ، وقد طبعت العالم الإسلامى كله بطابعها ، ولا سبيل لأن يفهم بدونها . وهى جديرة بأن تشرح وتدرس ، لأنها صورت أحيانا خطأ وفهمت على غير وجهها ، ولها قيمتها بين الحضارات الإنسانية. ولهذا وقف ماسينيون نفسه على درسها ، والكشف عن جوانبها ، والإشادة بتراثها . وهى فى رأيه حضارة إنسانية تعتد بالإنسان وترفع من قيمته ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والتعاون والتساند . وهى أيضاً حضارة دينية تعتمد على الإيمان واليقين ، وروحية تخاطب القلوب ترى فى المادة مجرد وسيلة ، ومثالية لها قيمها وأهدافها ، هى فى اختصار حضارة الإسلام.

والإسلام أخو المسيحية واليهودية ، وهى ثلاثتها تمت بصلة وثيقة إلى شريعة إبراهيم . أو ليس محمد ابن الذبيحين ومن نسل إسماعيل ألم يكن يتعبد ، قبل أن يبعث ، فى غار حراء على سنة إبراهيم الخليل ، ألم يبشر ببعثه رهبان من النصارى ألم يجمع المسلمون والمسيحيون على تقديس أهل الكهف والتعبد بقصتهم ؟ لقد ملأت هذه الأخوة قلب ما سينيون واستولت على روحه حتى أصبح يعد أكبر مسلم بين المسيحيين وأكبر مسيحى بين المسلمين . باسمها استنكر الحروب الصليبية فى الماضى ، وباسمها استنكر العدوان على فلسطين فى الحاضر . ولعله اتجه إليها بوحى من الأب شارل دى فوكو ، ولكنه اعتنقها فى إخلاص ، وعاش يدعو إلى التفاهم والتسامح بين الأديان ، وكم عز عليه أن تهدم السياسة ما بنى فى فلسطين وفى الجزائر . وتقديساً لهذه الأخوة أقام لها شعارا فى دمياط ، وآخر فى Vieux-Marché بمقاطعة بريتانى موطنه الأول ، وكوّن فى أخريات حياته « جامعة أصدقاء غاندى » ، التى كان يصوم ويصلى معها ويرى فى الصوم والصمت خير رد على الباغين والمعتدين .

لقد كان ماسينيون يعيش بروحه ولروحه ، والأرواح فوق الأوطان والأجناس والعصبيات ، وهى بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويمكن أن تكون أوثق رباط بين الإنسان وأخيه الإنسان . ويطيب لماسينيون الصوفى أن يخاطب رابعة العدوية كما يخاطب القديسة تريزة ، أو أن يتحدث عن الحلاج كما يتحدث عن جان دارك . لم يدرس التصوف نظريا فحسب ، بل أحس به

وعاش فيه ، وبدت آثاره فى قوله وعمله ، واتسم به وجهه ، ونعم بلذة الكشف والفيض . والتصوف عنده تجربة فى الألم ، تحمل من مر بها على أن يتسامح مع الناس جميعاً على اختلاف الأجناس والأديان ، وقد يصبح طبيباً روحانيا يعالج آلام الآخرين ، يكشف عن الداء ويصف له الدواء . فهو من فن معالجة الأمراض من طبيب جربها فى نفسه ، لا يقف أثره عند الفرد ، بل يمتد إلى المجتمع . ومهمة المتصوف لا تقتصر على الخلوة والوحدة ، ولابد له أن يتأهب دائما للتضحية فى سبيل الآخرين وقد كان ماسينيون متصوفاً حقاً ، يقف بجانب الضعفاء ، وينتصر للمظلومين ، وتصوفه وثيق الصلة بدراساته وآرائه الاجتماعية وفى التصوف كل القيم الأساسية للإسلام . يبدأ بالعبادة ، ويسمو إلى النورانية ، ثم ينتهى إلى الاتحاد ، والاتحاد الصوفى ممكن عقلا ، وواقع فعلا ، وقد حظى به الحلاج بين متصوفى الإسلام . ولا معنى للحياة إلا إن قامت على أساس روحى وبهذا يعد ماسينيون فى مقدمة أنصار المذهب الروحى بين المعاصرين .

وللعربية عنده وظيفة دينية ، لأنها تعبر عن أوامر الله ، ووسيلة التأمل والمناجاة . هى لغة الوحى ، ومنه استمدت مجدها وقداستها ، ولقد أحبها لأنه وجد فيها نفسه ، وتعمق فيها ، وكشف عن كثير من أسرارها التى لم تكشف لغيره ، وكان يروقه منها أنها لغة مركزة ، تنبعث من ألفاظها المعانى كما تنبعث الشرارة من الحجر ، وتجيد التعبير عن المجردات ، فهى أنسب ، ما يكون للتقرب والعبادة . لم تصل واحدة من أخواتها إلى مستواها ، وبدت فيها العبقرية السامية على أوضح وأكمل صورة . وفى محاضرة ألقاها على جماعة الكرمليين ، عقد موازنة طريفة بين اللغات العالمية ، وقسمها إلى ثلاث أسر : سامية ، وهندوأوروبية ، وطورانية . ولاحظ أن العربية فى أغلبها ثلاثية الأصول ، وأنها لغة سواكن ، وهى أكثر الساميات احتفاظاً بسواكنها ، ولنبرات الصوت شأن فى توضيح المعنى .

وهى لغة حضارة ، تستطيع بألفاظها وتراكيبها أن تؤدى أدق المعانى وأحدثها . وفى نحوها كمال ودقة لم تتوفر لأى نحو آخر . وربما امتدت إليه آثار يونانية أو سريانية ، ولكنه فى أساسه عربى ، وقد أثر دون نزاع فى تطوير النحو العبرى والسوريانى . وجدير بنا ألا نستجيب لدعوة بعض المربين الذين يريدون أن يحلوا محله نحوا أوربيا لنيسر تعليمه ولا يصح مطلقاً أن نعدل أصوله . وفى الخط العربى جمال ينبغى ألا يحرم منه التراث الإسلامى ، وله شأن فى تأسيس فن النقش المجرد . وقد مال ماسينيون فى البداية إلى الإصلاح التركى الذى رمى إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عنه واستنكره .

* * *

هذه فى اختصار هى دعائم الدراسات الإسلامية التى قام بها ماسينيون ، وتكاد تحمل كلها طابعا صوفيا ، وكأنما كان يرى الأشياء جميعها من خلال تصوفه ومهما يكن فإنه دفع هذه الدراسات دفعة لم يقو عليها مستشرق آخر ، وأضحى رمزاً لها وعلما عليها فى الشرق والغرب ، والتف حوله جمع وفير من التلاميذ والأعوان . واستمر يتعهدها حتى النفس الأخير ، وقد رسمنا سويا فى أغسطس الماضى خطة عدد خاص من مجلة « بابل » فى موضوع الترجمة المعاصرة من العربية وإليها ، على أن يساهم فيه ألمانى وفرنسى وإنجليزى ، وإيطالى وعربى وقبلوا جميعاً ، واتفق على أن يظهر فى أبريل القادم ، وعسانى أوفق لذلك إحياء لذكراه . واستحق بهذا كله تقدير المجامع والهيئات العلمية فى العالم بأسره ، واختير عضوا فى أكاديميات السويد والدانمارك وهولندة وبلجيكا وروسيا وإيران والعراق وسوريا ومصر .

* * *

لم يكن ما سينيون الإنسان بأقل شأنا من ماسينيون العالم ، امتلأ قلبه بالشفقة والرحمة وانطبعت نفسه على العدل والحق . كان يمقت الغموض والادعاء والغش والمواربة . يخشى الخطيئة ويبكى لها فى ساعات تقربه فى جبل قيسون بدمشق أو فى بيت المقدس أو فى دمياط ، وما أسرع عبراته وما أحرها . دفعه

واجب الأخوة فى الله إلى أن يعطى العمال الجزائريين المقيمين فى مقاطعة السين دروساً مسائية فى اللغة الفرنسية ، ولم يأنف أستاذ «الكوليج د ى فرانس» أن يصبح معلم عمال . ويوم أن حكم على بعض نوا ب مدغشقر بالإعدام لم يستقر له قرار إلا بعد أن استصدر العفو عنهم . كان يرى أن الإيمان شهادة ، وفكرة الشهادة هذه من أعز الأشياء لديه . لهذا كان يحرص دائما على أن يقول كلمة الحق ، ولقد قالها دائماً برغم القوة وعنفها . دعا إلى استقلال مراكش وأيد محمداً الخامس واستنكر تصرف الجلاوى ، وعارض حرب الجزائر كما عارض حرب السويس . وجرّت عليه معارضته ما جرت من أذ ى وعدوان ، فقبض عليه مرة فى ڤنسين وقيد إلى مركز الشرطة ، وعومل معاملة الأشرار . و ضرب مرة أخرى ضرباً مبرحا فى اجتماع عام ، كان يعرض فيه قضية الجزائر . وما كان يتبرم قط بهذا الأذ ى ، بل كان يطيب له أن يردد بيت الحلاج :

اقتلـونى يـا ثقـاتى إن فى قتلى حياتى

لطفى السيد أستاذ الجيل

سيداتى ، سادتى :

قل أن توافرت لشخص صفات الأستاذية مثلما توافرت للطفى السيد : بسطة فى العلم ، ورجاحة فى العقل ، ووضوح فى البيان ، وإدراك تام لعقلية محدثيه ومن يستمعون إليه . لم يمتهن التدريس قط ، وإنما كان يعلم فى ناديه ومجلسه ، فى حديثه وسمره ، على طريقة سقراط أو جمال الدين الأفغانى وخير العلم ما جاء إحياء وتلبية ورغبة .

ولمجلسه عشاق وطلاب ، يسعون إليه ، ويحرصون عليه ، وينعمون به . فيه جد ودعابة ، وأدب ولغة ، وعلم وحكمة ، واجتماع وسياسة ، . ولم أر مجلساً أحب من مجلسه ، ولا حديثاً أمتع من حديثه ، يعرف كيف يصرف الحديث ، ويفتح باب المناقشة ، ويثير المشاكل والمعضلات . وإذا قعد به المرض سعى طلابه ومريدوه إليه ، فيجد فى الدرس صحته وفى الحديث شفاءه ولم أجلس إليه قط إلا وخرجت برأى صائب وحكمة بالغة .

ولطفى السيد الصحفى أستاذ أيضاً ، رسم لفن الصحافة حدوده ومعالمه يوم أن كان فى امس الحاجة إلى ذلك . أراد بها أن تكون وسيلة ناجعة من وسائل التوجيه وتربية الوعى السليم ، واستمسك بحريتها واستقلالها ، بحيث لا تخضع لميل أو هوى ، ولا تجارى ظالماً فى ظلمه ولا مستبداً فى استبداده . وخلق منها — حين عز النصير — قوة شعبية ، تقف فى وجه السراى تارة ، وفى وجه دار المعتمد البريطانى تارة أخرى ، ويحسب لها حساب فى ساعات الحرج والشدة .

(*) كلمة ألقيت فى مهرجان محافظة الدقهلية للذكرى السنوية الأولى .

ولطفى السيد المؤلف والمترجم أستاذ غير منازع ، يرى أن الحضارة الإنسانية كل متصل الأجزاء ، يرتبط حاضرها بماضيها ، وهما معاً يمهدان لمستقبلهما .

لذلك عمد إلى التراث القديم يكشف عنه ، وإلى ذخائر الفلسفة اليونانية يعربها . وهو جهد شاق وعمل مضن ، إلى جانب رسالته الكبرى وأعبائه الباهظة ولكنه أبى إلا أن يضرب فيه المثل ويرسم الخطة . وما أجدرنا أن ننظر إلى مترجماته خاصة من ناحية أهدافها وغاياتها ، دون أن نقف فقط عند جانبها الفنى والعلمى ولا يزال إحياء التراث القديم فى حاجة إلى صوت قوى مثل صوته ، وتعريب الذخائر الخالدة إلى سند مثل سنده .

* * *

سيداتى ، سادتى :

لقد كان لطفى السيد رئيس مدرسة كبرى ، تخرج فيها الأدباء والعلماء والساسة والمصلحون ، أمثال : مصطفى عبد الرزاق ، محمد حسين هيكل ، منصور فهمى ، عباس العقاد ، طه حسين ، ومحمد كامل حسين . ولهذه المدرسة شأن واضح فى الحركات القومية والوطنية ودعوات النهوض والإصلاح فى الخمسين سنة الأخيرة ساهمت فى ثورة ١٩١٩ ، ووجهت إلى ثورة ١٩٥٢ .

رأس لطفى السيد هذه المدرسة منذ فجر هذا القرن ، ورسم لها منهج البحث والدراسة ، وغذاها بآرائه وتعاليمه . وكان يؤمن بالعقل إيمانه بسنة النشوء والارتقاء ، وكم كان يروقه أن يقول : « قال مولانا أرسطو » ، ذلك لأنه كان يرى فيه رمز المنطق ، وعلماً من أعلام المذهب العقلى بين اليونان . وللطفى السيد ولوع بالمنطق فى حواره وجدله ، يقيس ويوازن ، ويبحث عن العلل والأسباب ويرد الأشياء إلى أصولها ، ويمقت المغالطة والتضليل .

وفى العقل إدعام للرأى ، واتقاء للأهواء ، وأمان من الزلل ، وجمع للكلمة ، وقل أن يضل قوم حكموا عقولهم تحكيماً سليما . وعلى هذا يجب أن تقام السياسة على أسس عقلية ، وهذا ما أخذ لطفى السيد به نفسه منذ بدأ يحرر فى الجريدة ويشترك فى حزب الأمة ، واستمسك به فى جميع مواقفه السياسية

التالية . فكان يبحث عن الأصول والمبادئ ، ويحتج بالنظريات السياسية المختلفة ويستمع فى سماحة لمعارضيه ليزن حججهم ويقف على منطقهم ، والسياسة ميدان لا يخلو من ميل الهوى وجموح العاطفة ، واستطاع هو أن يسمو على ذلك ، ولئن تمكن منه ميل ما أبى إلا أن يصوغه فى قالب عقلى . وربما كان هذا هو سر ما اتسم به من اعتدال ، وأخذ بأسباب الفهم والتفاهم ، وتقريب لوجهات النظر .

وأما التطور فكان عقيدة راسخة لديه ، يرى أن الفرد يتطور كما يتطور المجتمع ، وأن جيل اليوم غير جيل الأمس . ولقد بقى لطفى السيد فسيح الصدر دائماً للأفكار الجديدة ، برغم تقدم سنه ، يستقبلها فى ثقة ، ويزنها بميزانها الصحيح ، ويحاول أن يلائم بينها وبين سنة التطور ، ولم أر شيخاً اقترب من الشبان والكهول قربه ، يحس بإحساسهم ، ويستطيع أن يعيش فى عالمهم .

ولم يكن هذا التطورى يؤمن بالنشوء فحسب ، بل كان يؤمن أيضاً بالارتقاء فالإنسانية سائرة إلى الأمام فى علمها وفنها ، فى نظمها وقوانينها ، وقد تعترضها محن وأزمات ، ولكنها لا تصرفها عن الغاية المحتومة . وجيل اليوم خير من جيل الأمس ، وثلاثة أجيال كفيلة بأن تصل بالأمة المصرية إلى ما تصبو إليه ، وفكرة الأجيال الثلاثة هذه مشهورة لدى أصدقائه ومريديه والتطور على كل حال أساس الثورة والانطلاق ، وقد مد الله فى أجله إلى أن رأى ثمار آرائه وتعاليمه حية متحركة .

سيداتى ، سادتى :

هذا هو لطفى السيد أستاذ الجيل ، ومن حق محافظة الدقهلية ، وهو علم من أعلامها ، أن تحتفى به وتخلد ذكراه . وما أحوجنا فى ثورتنا العارمة وانطلاقتنا الجبارة إلى أمثلة حية نحتذيها ، وهداة نسترشد بهم ، ولا شك فى أن لطفى السيد كان فى الصف الأول من قيادتنا الفكرية والروحية طوال نصف القرن الأخير .

محمد البشير الإبراهيمي

نجتمع اليوم لنؤبن شيخاً من شيوخ الإسلام ، وعلماً من أعلام النهضة الجزائرية ، فقدنا فيه أديباً بليغاً ، ومربياً كبيرا ، ومصلحاً عظيما ، ومجاهداً مؤمناً قضى فى وطنه ثلاثين عاما أو يزيد فى خدمة الدين واللغة ، فأحيا معالم القومية ، وأعد جيلا من المكافحين والمناضلين ، ومهد السبيل لاستعادة الاستقلال والحرية . أحب المجمع واتصل به منذ زمن ، وعد من أصدقائه الأوفياء — وفى عام ١٩٦١ اختير لعضويته العاملة ؛ وكنا نعول التعويل كله على مساهمته والإفادة من علمه وفضله ، ولكن دعوة الأهل والوطن اجتذبته ولم يشهد معنا إلا مؤتمرا واحداً . ثم قعد به المرض ، ولزم داره نحو ثلاث سنين ، ورزئنا بفقده قبل نهاية دورة المجمع الماضية ، وودعناه دون أن نلقاه . وكأنما استشف حجب الغيب ، فبعث إلينا فى يناير الماضى برسالة كلها حنين وشكوى وذكريات ووداع .

سيداتى ، سادتى :

إن مجال القول فى البشير ذو سعة ، وإن الحديث عنه ذو شجون . وقد أرخ لنفسه فى صفحات طوال نرى من الوفاء له أن نسجلها فى محضر هذه الجلسة ، ونجتزئ هنا قدرا منها .

(أ) حياته :

لقد كانت حياة البشير ملأى بالدرس والبحث ، والدعوة والإرشاد ، والجهاد والكفاح ، ويمكن أن ترد إلى مراحل ثلاث : نشأة وتكوين ، رحلة وأسفار ، ثم دعوة وجهاد وما أشبهه فى نشأته بكثير من شيوخ الإسلام فى القرون الأخيرة ، أولئك الذين أفادوا من الوراثة والبيئة ، ووقفوا أنفسهم على العلم وتفرغوا له تمام التفرغ .

ولد الفقيد عام ١٨٨٩ من أسرة كريمة ، وفى بيت علم ، فأما أسرته فتصعد إلى الأشراف الأدارسة ، وأما بيته فهو أحد تلك البيوتات التى حفظت العلم ، وتدارسته قرونا فى المغرب الأوسط ، ومن أجداده من رحل إلى مصر طلباً للعلم فى الجامع الأزهر ، وتسمى باسم الأمير أو الصاوى أو السنهورى . وقد ربى البشير تربية دينية عربية ، تعهده أبوه ، وأشرف عليه عمه ، وكان أحد شيوخ العربية بإقليم قسطنطينة فى عصره ، وأستاذا التف حوله الطلاب فى بيته بدأ فقيدنا حفظ القرآن ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأضاف إليه بعض المتون كالألفية والكافية ، وأولع بالشعر والنثر ، وتوسع فى دراسة النحو والصرف ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى توافر له من العلم حظ غير قليل ، واستطاع أن يقوم بالتدريس بإجازة من عمه .

وأبت الظروف إلا أن يرحل أبوه إلى المدينة سنة ١٩٠٨ ، فارا من ظلم المستعمرين واضطهادهم ولم يكن بد من أن يلحق به بعد قليل . وهنا تبدأ مرحلة أسفار دامت نحو عشر سنين ، اتسعت بها معلوماته واكتملت خبرته . مر بالقاهرة أولا ، ومكث فيها ثلاثة أشهر مقبلا على حلقات الدرس فى الأزهر والمسجد الحسينى ودار الدعوة والإرشاد ، واتصل ببعض كبار الشيوخ ، أمثال البشرى ، وبخيت ، والدجوى ، والسمالوطى ، ورشيد رضا ، ولم يفته أن يزور شوقى ، وحافظ إبراهيم ثم انتقل إلى المدينة ولم يكن له فيها عمل إلا البحث والدرس ، والاطلاع والقراءة ، وعنى خاصة بعلوم الحديث والتفسير وبعض علوم المعقول . وكانت المدينة حين ذلك ملجأ لنفر من كبار علماء الإسلام ضاقت بهم أوطانهم ، فرحلوا إلى كنف الرسول حيث الهدوء والطمأنينة . وهناك لقى العزيز الوزير التونسى ، وحسين أحمد الهندى ، وعبد الباقى الأفغانى ومحمد الشنقيطى ، ومواطنه وزميله الأكبر عبد الحميد بن باديس ، شيخ شيوخ شمال إفريقية ، فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ثم قضت ظروف الحرب العالمية الأولى بأن ينتقل مع سكان المدينة إلى دمشق ، حيث يبدأ رحلة علمية ثالثة . فاتصل بمجالس العلم ، ودرس فى المسجد الأموى والمدرسة السلطانية ، وهى المدرسة الثانوية الوحيدة حين ذاك ، وتتلمذ عليه بعض رجال الفكر والأدب المعاصرين .

وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عاد إلى وطنه ليؤدى واجبه ويساهم فى نهضته . وقد أبلى فى ذلك بلاء حسنا . فعقد الندوات ، وألقى المحاضرات ، وقام بالوعظ والإرشاد متنقلا من مدينة إلى أخرى . ونظم دروساً لصغار التلاميذ، لم تلبث أن أضحت مدارس تزود النشء بزاد من العلم الصحيح واللغة القويمة . وأسس مع ابن باديس ، صديقه وزميله فى المنفى ، جمعية العلماء التى كان لها شأن فى يقظة الجزائر واستقلالها ، اضطلع بقسط كبير من أعبائها ، وظل يجاهد ويناضل باسمها إلى أن ضاقت به سلطة الاستعمار فاعتقل عام ١٩٤٠ ، بدعوى أنه أصبح خطراً على الدولة ، ونفى إلى صحراء وهران . وبقى فى المنفى نحو ثلاث سنوات توثقت فيها صلته بالقبائل المختلفة ، وألم بعدة لهجات وما إن أطلق سراحه حتى عاد إلى نشاطه ، مما دفع المستعمرين إلى تدبير ثورة اتهم بأنه أحد دعاتها . وحكم عليه بالسجن نحو عام . . ولم يحل كل ذلك دونه وأداء رسالة جمعية العلماء ، وباسمها رحل سنة ١٩٥٢ إلى المشرق لينبه إلى أهدافها ، ويطلب لها عونا للوصول إلى غاياتها . وقدر للثورة الجزائرية أن يشرق صبحها ، فبقى فقيدنا فى مصر نحو عشر سنين ، ثم عاد إلى وطنه ليشهد ثمار جهوده ، ويناضل فى سبيل آرائه حتى النفس الأخير .

حياة خصبة مثمرة ، نهلت من معين الآباء ، وأفادت من صحبة الإخوان والأصدقاء ، وجمعت بين ثقافة المشرق والمغرب ، وأمدت صاحبها بوسائل الجهاد والنضال ، وقد أدلى فيه بدلوه ، وساهم بنصيبه، ولاقى مالاقى من عنت واضطهاد .

(ب) مؤلفاته :

وما كان لحياة كهذه أن تفسح المجال لتحقيق وتمحيص ، وتحرير وتأليف ومع هذا لم يفت البشير أن يعالج فى اللغة والأدب موضوعات لها طرافتها ، نذكر من بينها :

١ — أسرار الضمائر فى العربية .

٢ — التسمية بالمصدر .

٣ — الاطراد والشذوذ فى اللغة .

٤ – كاهنة أوراس .

٥ – ملحمة رجزية فى نحوستة وثلاثين ألف بيت ، نظمها فى منفاه بصحراء وهران ، وحاول أن يصور فيها المجتمع الجزائرى فى فرقه ونحله ، وفى آرائه ومذاهبه الاجتماعية والفكرية .

ومما يؤسف له أن ذلك كله لا يزال مخطوطاً وكان الفقيد يعتزم إخراجه إلى النور ، ولم ينشر له فيما نعلم إلا « عيون البصائر » وهى جملة الافتتاحيات التى كتبها فى « جريدة البصائر » لسان حال جمعية العلماء .

وكم نود أن يتضافر تلاميذه وأبناؤه على نشر مؤلفاته ، تخليدا لذكراه وإحياء لهذا التراث .

(ج) البشير وجمعية العلماء :

لا نظن أحدا يعرض ليقظة الجزائر ونهضتها الأخيرة إلا ويذكر جمعية العلماء ، ويذكر معها ابن باديس والبشير الإبراهيمى اشتركا معا فى تأسيسها وقاما على أمرها ، وتعاقبا على رياستها اضطلع ابن باديس برياستها أولا وبعد موته خلفه البشير ، وظل يرعاها إلى أن قامت الثورة الجزائرية ، وهى جمعية تهدف إلى الإصلاح الدينى والعلمى ، وتنشد نهوضاً سياسياً واجتماعياً دعا إليها ما انتهت إليه الأمور فى الجزائر فى أوائل هذا القرن من تفشى الجهل وحرص الاستعمار على تقويض دعائم الوطنية ومحو معالم الدين واللغة .

نبتت فكرتها بالمدينة ، حين التقى البشير بأخيه الأكبر ابن باديس ، وكانا يسمران معا ليالى طوالا يستعرضان فيها أدواء الجزائر الاجتماعية والسياسية ، ويحاولان أن يطبباها ، واستقر رأيهما على أن الأمر يستلزم نهضة شاملة ، وإصلاحا يقوم على أساس من العلم والدين واللغة . ولا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين هيئة تبث الدعوة ، وتنشر ألوية العلم فى البلاد وما أجدرها أن تحتمى براية الإسلام ، كى تسلم من اضطهاد المستعمر وبطشه . وقد سبق ابن باديس أخاه إلى الجزائر ، واستقر فى قسطنطينة واتخذ من أحد مساجدها حلقة لدرسه ، وأقبل عليه الطلاب من كل جانب ، ووضع حجر الأساس لبناء نهضة عربية ثم لحق به البشير بعد سبع سنين ، وسار على نهجه . وكانا يلتقيان من حين لآخر

لتبادل الرأى ، ومتابعة ما تم ، ورسم برنامج المستقبل ، واستمرا على ذلك نحو عشر سنين يعدان العدة ، ويتأهبان لتكوين جمعية العلماء . وفى عام ١٩٣١ تم تأسيسها ، وأقر قانونها الأساسى الذى وضعه البشير ، وحددت أهدافها ورسمت لها السبل والوسائل .

وهى تهدف بخاصة – فيما يرى البشير – إلى محاربة ضربين من الاستعمار أحدهما داخلى والآخر خارجى ، أو بعبارة أخرى : أحدهما روحى ، والآخر مادى . فأما الأول فهو جناية بعض من ينتسبون إلى الدين من العلماء والدين منهم براء ، يتجرون باسمه ، ويفرطون فى حقوقه . وأما الثانى فهو استعمار الغاصب الذى أذل النفوس ، وأهدر الكرامة . ورأت الجمعية أن تبدأ بالأول لأنه أعمق وأدخل فى النفوس . وقررت أن تواجهه على بساط العلم والمعرفة . فنظمت حملة جارفة على البدع والخرافات وجهت فيها الخطباء والوعاظ إلى المساجد والأندية ليرشدوا المسلمين إلى حقيقة الدين الحنيف ، وألقت ما ألقت من محاضرات للعامة والخاصة ، ووضعت لذلك كله نظاما دقيقا ، فعينت مشرفا لكل مقاطعة من مقاطعات الجزائر الثلاث : ابن باديس لقسطنطينة ، والطيب العقبى للجزائر ، والبشير الإبراهيمى لوهران ، ويعاونهم نخبة من العلماء والخطباء ، استعانت بالصحافة على نشر دعوتها ، واتخذت لنفسها صحيفة خاصة هى جريدة « البصائر » ، كان فقيدنا قطب رحاها .

وأبت الجمعية إلا أن تواجه الأمر من أساسه ، فتبدأ بتربية النشء تربية إسلامية عربية ، وأنشأت فى عام واحد ٧٣ مدرسة ابتدائية ، واستجاب الشعب لدعوتها ، فأمدها بالمال ، وشيدت مدارسها على طراز خاص ، واستطاعت أن تشيد ما يزيد على ٤٠٠ مدرسة موزعة على البلاد كلها ، وبلغ عدد التلاميذ فى هذه المدارس عشرات الآلاف ، وأضحت الجمعية أشبه ما تكون بوزارة تربية شعبية ، لها مالية مستقلة وإدارة محكمة . ولم تقنع بالتعليم الابتدائى ، بل شاءت أن تضم إليه التعليم الثانوى ، وأنشأت فى قسطنطينة معهدا ثانويا سمته المعهد الباديسى ، تخليدا لذكرى أول مؤسسها ، وكان يرجى أن ينشأ إلى جانبه معهدان آخران : أحدهما فى الجزائر ، والآخر فى وهران .

سيداتى . . . سادتى

هذه هى جمعية العلماء وهذا هو موقف البشير منها ، ولا شك فى أنها أوقدت الشعلة ، وأحيت اللسان العربى ، وأيقظت النفوس . فاندفع الشعب الجزائرى إلى الثورة يحطم الأغلال ، وينشد حياة العزة والكرامة ، ويربط الحاضر بالماضى ، ولا شك فى أن عددا غير قليل من أبناء هذه الجمعية وتلاميذها كانوا قادة وجنودا فى حرب الجزائر الخالدة . وكم كان البشير معجبا بها . يعدها مناط فخره ، وتاج أعماله ، عمل فيها للدين واللغة والوطن .

(د) البشير الابراهيمى الأديب :

أولع البشير بالشعر والنثر منذ نشأته ، وحفظ منهما مختارات كثيرة ، ويظهر أنه أعجب كثيرا بسهل بن هرون وبديع الزمان . وأتاحت له الخطابة والصحافة فرصة مواتية لتنمية ملكاته وإشباع مواهبه . وفتحت الرحلة أمامه أبوابا جديدة ، وأمدته بمعلومات غزيرة . قال شعرا ونثرا ، وهو إلى الكتاب أقرب عرض لموضوعات شتى فى العلم والدين ، والأدب واللغة ، والاجتماع والسياسة فعالجها فى عمق ودقة ، وشرحها فى استيعاب وإحاطة ، وفى «عيون البصائر» ألوان من ذلك طريفة وجذابة .

وفى وسعنا أن نقرر أن البشير من أكتب كتاب المغرب المعاصرين ، يسترسل فيجئ بالجزل والسهل ، لفظ مألوف ، وجملة قصيرة ، ولغة واضحة وتقسيم وترتيب فى منطق سليم . يتحدث عن العربية فيقول : « اللغة العربية هى لغة الإسلام الرسمية ، ومن ثم . . فلها على الأمة الجزائرية حقان أكيدان كل منهما يقتضى وجوب تعلمها ، فكيف إذا اجتمعا ، حق من حيث إنها لغة دين الأمة ، بحكم أن الأمة مسلمة ، وحق أنها لغة جنسها ، بحكم أن الأمة عربية الجنس ، ففى المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا » .

ويتحدث عن جمعية العلماء ، فيقول « إنها جاءت على عبوس من الدهر وتنكر من الأقوياء ، فنفخت من روح العروبة فى تلك الأنساب ، فإذا هى صريحة ، وسكبت من سر البيان العربى فى تلك الألسنة ، فاذا هى فصيحة ، وأجالت الأقلام فى كشف تلك كنوز ، فإذا هى ناصعة بيضاء ، لم يزدها تقادم الزمان إلا جدة » .

ويتحدث أخيرا عن السياسة ، فيقول :« هذه هى السياسة فى الجزائر بين الحاكم والمحكوم ، يجعلها الأول أداة مساومة وفخ اقتناص للمذبذبين ، وسلاح ترهيب وتخويف للمخلصين ، ويجعلها الثانى وسيلة جاه ، وذريعة تضليل للأمة . وقد بلوناها وخبرناها ، وحاولنا إصلاحها فى رجال السياسة منا إشفاقا على هذه الأمة الصالحة ، فبحت الأصوات وأكدت الوسائل ، فلا يقولن قائل فيها وفينا غير هذا ، فأهل مكة أدرى بشعابها » .

وقد يتأنى ويتأنق ، فيسمو أسلوبه ، وتبدو عليه الفخامة ، ولا نزال نذكر كلمته بيننا باسم الأعضاء الجدد رداً على استقبالهم ، ونذكر ما اتسمت به من جلال وروعة .

وفيها يقول «أيها الإخوة : إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة ، وإن الرابط الطبيعى بينها هو هذه اللغة ، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما أضعف تلك الرابطة حتى رثت حبالها ، وغالبتها العامية فى كثير من أحكامها وكثير من مفرداتها » .

«أيها الإخوة إن أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لا تخالطها عجمة ، ولا يطرق ساحتها دخيل ، ولا يداخل نسبتها إقراف ولا هجنة ، فلنعمل للغتنا بأنفسنا ، ولنسكب عليها عصارة أرواحنا ، ولنضاعف جهودنا ، ولنشدد عزائمنا ، ولنوجه كل قوانا لخدمتها ، والذب عن حرماتها ، ولنعلم إنه إن أصابها سوء ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » .

سيداتى . . . سادتى .

لقد عشنا مع البشير لحظات ، وعرفناه فى طفولته وصباه ، وتابعناه فى كهولته وشيخوخته ، أقمنا معه حيث أقام ، ورحلنا حيث رحل . ووقفنا على أعماله الجليلة وآثاره الخالدة . واستخلصنا من حياته الدرس النافع ، والعظة البالغة ، وسنذكره ما ذكر العاملون المخلصون . تغمده الله برحمته ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء .

الشبيبي في مجمع الخالدين

السيد الشبيبي ربيب بيت من بيوت الأدب واللغة ، وشيخ من شيوخ العراق الأجلاء ، ورائد من رواد الفكر المعاصر ، وعلم من أعلام النهوض والإصلاح .

دخل مجمع اللغة العربية من أكثر من باب واحد ، فهو شاعر وأديب ، محقق ومؤرخ ، وشاءت الأقدار أن يشغل المكان الذى خلا بوفاة لغوى العراق الأسبق ، الأب أنستاس الكرملى ، فكان خير خلف لخير سلف .

دخله عام ١٩٤٨ ، وارتبط به بأوثق رباط . فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته ، ولم يتوان عن دعوة من دعواته اختير لبعض لجانه ، ورأس عدداً من جلساته، ساهم مساهمة جادة فى بحوثه ودراساته ، واشترك فى مناقشاته وتعليقاته أحب المجمع ، وأحبه المجمعيون جميعاً على السواء .

* * *

١ — الشبيبى الشيخ :

وهنا عرفته ، فعرفت فيه الوقار الجم والسماحة العذبة ، ونعمت بأنسه ومجلسه ، وفهمت من نظرته الخاطفة وبسمته الناطقة ، وأفدت من خبرته وتجربته وكنا جميعاً فى القاهرة نرتقب مؤتمر المجمع السنوى لنلقاه ، فنجدد العهد ، ونواصل الدرس .

عرفته شيخاً كله حماس وقوة ، وشباب وفتوة . يسبق الركب ، ويصعد الجبل وتتوق نفسه دائما إلى كشف الجديد . وقل أن نرى شيخاً فى حب استطلاعه يسأل ويستفسر . ويحقق ويدقق فى آيات الكون وصنع الإنسان يقبل على الرحلات ، ويحرص على زيارة المعاهد والمصانع . وقد اشتركنا فى كثير من

---

(١) كلمة ألقيت فى حفل التأبين الذى أقيم ببغداد فى ١١ من فبراير سنة ١٩٦٦ .

ذلك ، فكان دائما المبكر فى الحضور ، والسباق إلى الهدف . لا يقنع بأن يشاهد ويلاحظ ، بل يأبى إلا أن يسجل ويدون . وكأنما كان يحرص على أن يكتب عن رحلاته ، لكى يشاركه الآخرون فى مشاعره وإحساساته . وقد خلف لنا صحائف حافلة بالتحليل والتصوير لبعض رحلاته ، فيها تفصيل دقيق ، واستيعاب تام ، ورسم كامل للوحة تريك المنظر وكأنك تعيش فيه .

* * *

٢ – الشبيبى الزميل :

وعرفته زميلا يضطلع بالواجب ، ويؤدى الأمانة ، يعد العدة ، ويتأهب لكل جلسة ، فيقرأ ويبحث ، ويحقق ويراجع يصغى لما يقال ، فيؤيد ما يؤيد عن بينة ، ويرفض ما يرفض عن اقتناع لا يصدر إلا عن روية ، ولا يعرض لما لا يعرف ، وله فى محاضر المجمع ملاحظات قيمة وتوجيهات نافعة وقل أن تخلو جلسة من استدراك له أو تعليق .

ودون أن ندخل فى تفاصيل ذلك ، نكتفى بأن نشير إلى شئ منه . دعا غير مرة إلى توحيد المصطلح العلمى فى كل الأقطار العربية ، وذلك بإحياء القديم منه ، وكثيرا ما نبه إلى كتب قديمة فى مصطلحات العلوم والفنون ، وكان يدعو المجمع إلى تحقيقها ونشرها ، مثل « كتاب النبات » لأبى حنيفة الدينورى و« كتاب جامع أشتات النبات » للشريف الإدريسى ، و« كتاب تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم » لفخر الدين وزير الصالح أيوب ، وهو معجم فى الحرف المصرية . ومن وسائل توحيد المصطلح عنده سهولة لفظه ويسر نطقه ، بحيث يمكن تداوله وقديما عاب البلاغيون الألفاظ الثقيلة والمستهجنة .

ومن الألفاظ الثقيلة بعض المصطلحات الأعجمية والدخيلة التى ينبغى أن نتخفف منها ما أمكن ولا نلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى . ولم يكن الشبيبى ممن يرحبون بالتعريب ، بل كان يمقت فيه – على حد تعبيره – سياسة الباب المفتوح التى تقضى بتدفق الكلمات الأجنبية حتى لتكاد تطغى على الألفاظ العربية الأصيلة .

وكانت دعوة التوحيد عزيزة لديه ، إلى حد أنه أراد بها أن تشمل أبواب الثقافة على اختلافها وكم نوه بالعلاقات الثقافية بين مصر والعراق فى الماضى والحاضر .ووجه الدعوة إلى عقد مؤتمر للمجمع اللغوى فى بغداد ، وألح فى طلبها ، ولم ير زملاؤه بدا من أن يلبوا طلبه ، إيماناً منهم بأن ذلك سبيل من سبل التعاون اللغوى ، ويوم أن تحققت رغبته أبت الأقدار إلا أن نحرم من عونه ومشاركته .

وكان يرى بحق أنه ينبغى توحيد نطق أسماء الأعلام وتوحيد رسمها وصور كتابتها فى العالم العربى جميعه ، لأنها باب من أبواب البلبلة والاضطراب فننطق نطقاً مختلفاً ، ونرسم رسما مبايناً من إقليم لآخر .ولابد لنا من توحيدها ،سواء أكانت أسماء أشخاص أم أسماء أماكن ، وسواء أكانت قديمة أم حديثة . وكتب التاريخ والجغرافية المدرسية مملوءة بهذا الاختلاف والتباين ،وما أجدرنا أن نتخلص منه ، ونلتقى فى أسماء الأعلام على كلمة سواء .

* * *

٣ ـ الشبيبى الباحث :

وعرفت الشبيبى الباحث ، فعرفت فيه طول النفس وحب الاستقصاء وكم كان يعز علىّ أن أشير عليه أحيانا بشئ من الاختصار والتركيز . كان يميل دائما إلى الإستيعاب ، فيلم بجميع أطراف الموضوع الذى يعالجه ، ويأتى على دقائقه وله ولوع بسرد النصوص والنقل عن القدامى والسابقين ، يستهويه ذكر الوقائع والأحداث،ويعول على التاريخ كل التعويل . ويحرص فى هذا كله على وضوح المعنى وسهولة الأسلوب ،يكتب كما يتكلم فى غير ماتأنق ولا تكلف.

وهو مكثر بقدر ما هو مطيل ، تنوعت دراساته وتعددت أبحاثه ، وقد يعالج الموضوع الواحد من زوايا مختلفة ويكفى أن نشير إلى أنه فى نحو خمس عشرة دورة من دورات المجمع استطاع أن يغذيه بخمسة وثلاثين بحثاً ، وكثيرا ما كان يقدم فى المؤتمر الواحد بحثين أو ثلاثة . ويمكن أن ترد هذه البحوث إلى أبواب ثلاثة : أبحاث، ومصطلحات ،وتعريف ببعض الأشخاص والكتب .

وقد عنى باللهجات عناية كبرى ، فعرض لشئ من تاريخ اللهجة المصرية ووقف طويلا عند أصول اللهجة العراقية ، وأشار إلى بعض اللهجات فى جنوب الجزيرة العربية ولم يرقه بحال تعدد هذه اللهجات وتباينها فى العالم العربى ، لأنها مبعث بلبلة واضطراب ودعا جاهدا إلى درسها والبحث عن وسائل توحيدها ، أو تقريب بعضها من بعض على الأقل . وعنده أن أنجع وسيلة لذلك أن ينشر التعليم بين أبناء العروبة جميعاً ، لا فرق بين مدينة وقرية ، ولا بين حاضرة وبادية . وفى الإذاعة الناطقة والمرئية وسيلة أخرى لتسديد النطق وتقويم الألسن وما أحوجنا أن نأخذ بذلك كله ، كى يصح شعارنا : « لغة واحدة » « وثقافة واحدة » .

ولم تكن عنايته بالمصطلحات أقل من عنايته باللهجات ، وكان يرى أنه ينبغى الكشف عن تراثنا العلمى ، ففيه ما فيه من مصطلحات أغفلناها ، واستعمالات أهملناها . وحاول أن يكشف بنفسه عن مصطلحات قديمة فى الطب وعلوم النبات ، والأدب والقومية ولاحظ بحق أن المستعمرين والدخلاء أفسدوا لغتنا العلمية ، وقضوا على كثير مما استقر من أمورها فحرف الأعاجم بعض أسماء الأشخاص والبلدان ، وطغت الألفاظ الأيوبية زمنا على اللغة المصرية وكان للتركية أثرها فى لغة الدواوين والشئون الإدارية وقد بدأنا نتدارك ذلك ونعود بالعربية إلى سالف مجدها .

وفى مجال التعريف ينوه الشبيبى تارة بأعلام مشهورة ، ويكشف الحجاب أحيانا أخرى عن أمور خفية . فيعرض مثلا لابن خلكان ، ويطيل الحديث عنه فيشرح منهجه ، التاريخى ، ويبين طريقته فى التراجم ، ويوضح وسائله فى الضبط والإتقان . وقد لفت صاحب « كتاب وفيات الأعيان » أنظار الباحثين من قديم ، وأقبل عليه العرب والمستعربون ، وعد كتابه فى مقدمة المصادر التى يعول عليها فى التاريخ للرجال . ويوجه فقيدنا النظر إلى مخطوط أشرنا إليه ، من قبل ، ولم ينشر بعد ، وهو « كتاب جمع أشتات النبات » للإدريسى ، وما أشبهه بمعجم فى علوم النبات قد لا يجد له نظيرا فى العربية . يعرض المصطلح ،

ويعرفه ، ويبين مقابله فى لغات مختلفة بين شرقية وغربية . وللشبيبي بحوث أخرى فى « المعجم المساعد » للكرملى ، وفى « كتاب النيروز » لابن فارس ، وستبقى مقالاته فى « مجلة المجمع » ، و « مجموعة بحوثه » ، ذخراً للدارسين والباحثين .

هذا هو الشبيبي المجمعى ، أخلص للغة وتفانى فى خدمتها ، ورأى فيها دعامة كبرى من دعائم القومية . فقدناه ونحن أحوج ما نكون إليه ، وسعينا إليه فى بلده وعاصمة وطنه ، لنؤكد أواصر الأخوة بين خدام اللغة فى مجمعى بغداد والقاهرة ، وأبت الأقدار إلا أن يكون سفرنا لتوديعه الوداع الأخير تغمده الله برحمته ، وجزاه عن العربية والعروبة خير الجزاء .

على عبد الرازق

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى .

نجتمع اليوم لنؤبن شيخنا جليلا ، وعالما فاضلا ، وفى التأبين عظة وعبرة نؤبن رجلا استطاع أن يقول كلمة الحق ، برغم بطش الملكية واستبدادها ، ولاقى فى سبيلها ما لاقى ، ولا قيمة لقوم يضيع الحق بينهم . نؤبن تلميذا من تلاميذ الأستاذ الإمام ، وهم نخبة صالحة حملت المشعل ، وأنارت السبيل ، ورسمت مناهج للإصلاح والتجديد . نؤبنه هنا فى هذه القاعة ، لنرد إليه شيئا من اعتباره ، والتاريخ يصلح ما أفسد أحيانا . فبالأمس تنكرت له هيئة كبار العلماء وأنكرته ، وها هو ذا الأزهر جميعه يودعه اليوم الوداع الأخير فى تكريم وتبجيل . ويرحب بتأبينه فى هذه القاعة ، ليحشر فى زمرة محمد عبده ، ويسير فى وفده ميتا كما سار فيه من قبل حيا .

ولا سبيل إلى نهوض سياسى أو اجتماعى ، ما لم تمهد له حياة فكرية يقظة سليمة وقد قدر لهذه الأمة أن تنبعث فيها فى القرن الماضى حركة من حركات الفكر والثقافة ، غذاها فى البداية أمثال الشيخين حسن العطار ورفاعة الطهطاوى ، ثم قام على أمرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . ولم تلبث هذه الحركة أن آتت أكلها ، وأخرجت لنا قادة فكر ، نذكر من بينهم قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، والشيخين محمد شاكر ومصطفى المراغى . وتلاهم رعيل آخر من الأصدقاء والمريدين ، كونوا مدارس مختلفة فى الفقه والتشريع ، والأدب واللغة ، والفلسفة والدين . وفى مقدمة هذا الرعيل الأخوان مصطفى وعلى عبد الرازق ، وهما صنوان لاينفصلان ، تزاملا طول حياتهما ، وكان فارق السن بينهما ضئيلا ، وتبادلا الرأى فيما عنّ لهما من أمر ، وخضعا لظروف متحدة أو متشابهة .

وقد عرفت على عبد الرازق القاضى والمحامى ، والنائب والشيخ ، والوزير والسياسى ، وعرفت فيه فى مجمع اللغة العربية الأديب واللغوى . ويطول بى الحديث إن عرضت لذلك كله ، ويكفينى هنا أن أقول كلمة :

١ – عن البيئة التى نشأ فيها .

٢ – وعن حياته ومؤلفاته .

٣ – وشيئا عن نزعته وآرائه .

١ – بيئتـه :

نشأ فقيدنا فى بيت عريق من بيوت العلم والقضاء ، تصعد أصوله إلى نحو قرن ونصف ، و يزيد ، وله دون نزاع شأن يذكر فى الحياة الفكرية والثقافية فى النصف الأول من هذا القرن ، يلتقى فيه الشرقى بالغربى ، والمصرى بالعربى ، ويدور حديثهم حول الماضى وأمجاده ، والحاضر فى آماله وأهدافه يعالجون ألوانا من فنون الأدب واللغة ، ويتعمقون فى قضايا الدين والفلسفة وما كان أشبه مجلسهم بمنتدى يؤمه كبار العلماء ويثار فيه أدق المشاكل وأعمق الآراء ، ولا يستطيع مؤرخ الحياة الثقافية المعاصرة فى مصر أن يغفل ما كان « لبيوت آل عبد الرازق » فيها من أثر . فى هذه البيئة الخاصة شب على عبد الرازق وترعرع ، أخذ عنها ، وأفاد منها ، وسمع فيها دعوات تناصر القديم وأخرى تؤيد الجديد .

وإلى جانبها بيئة عامة ، ملأها الأستاذ الإمام « محمد عبده » حياة وقوة وفجر فيها ينابيع للإصلاح والتجديد فكان يدعو إلى النهوض بالأدب واللغة ويقوم معوج الأفكار الدينية ، ويصور الإسلام بصورته الحقة ، ويحرر الفقه والتشريع من قيوده ، ويحاول بوجه خاص أن يصلح التعليم الدينى . عاش فى الأزهر ، وعرفه حق المعرفة ، ووقف على كتبه وطرائق التدريس فيه ورأى أنها أصبحت لا تلائم العصر ، ولا تحقق النهوض المنشود . وأخذ يغير الكتاب والطريقة معا ، و ضرب لذلك مثلا من درسه وبحثه ، فكان يدرس فى البيان « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى ، بدلا من « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى ، ويفسر القرآن على نحو يختلف عما درج عليه البيضاوى

وكل ذلك فى عبارة طلية ، وفكر واضح ، وروح صادقة ، ونقد أخاذ .
فاستجاب له الشباب ، وأقبلوا عليه ،وتعلقت به أرواحهم وعقولهم واستطاع أن يرى فى حياته بعض ثمار غرسه ، وتضافر نفر من بعده على إنجاز ما أوصى به ،فأنشىء معهد الإسكندرية الدينى قبل موته بعام واحد ، وقام على أمره الشيخ محمد شاكر ، أحد تلاميذه ، وشاء أن ينهج به نهجا جديدا وأنشئت مدرسة القضاء الشرعى بعدموته بعامين وهدفها الأول تخريج جيل جديد من رجال الدين . وتوالت دعوة الاصلاح فى الأزهر نفسه منذ فجر هذا القرن ، وبدت لها صور متلاحقة آخرها « جامعة الأزهر » الناشئة التى تستضيفنا اليوم .

فى هذا الجو نشأ على عبد الرازق ، واتصل بالأستاذ الإمام عن قرب ، تتلمذ له مع أخيه مصطفى ، ورآه فى بيته يزور والده ، وقد ربطت بينهما صلات ود وزمالة فى مجلس شورى القوانين – واتصل أيضا بلطفى السيد فى « الجريدة » وكانت تضطلع بنشر تعاليم أخرى لجمال الدين ومحمد عبده . تعتز بحرية الرأى وصراحة القول ، ووضوح الكلمة وسمو الأسلوب ، وتنادى بالاصلاح والتجديد . نشأ فقيدنا فى هذا الجو ، وتابع السير فى حياة مليئة بالأحداث ، ولا نستطيع هنا إلا أن نرسم خطوطها الكبرى .

(ب) حياته ومؤلفاته :

ولد على عبد الرازق بأبى جرج ،من أعمال محافظة المنيا فى أخريات العقد التاسع من القرن الماضى (١٨٨٨م) وسلك سبيل أخيه مصطفى فى التعليم فألحق بكتاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، وحفظ قدرا من القرآن الكريم ، ثم وجه إلى الأزهر ، ففرغ له ، وأولع به ، وأقبل على درسه ، واتصل بكبار شيوخه ، وبخاصة الشيخ أبو خطوة ، وكان والده وهو أزهرى قديم يتذاكر معه ومع أخيه مصطفى بعض كتب الشعر والأدب . واستطاع فقيدنا أن يتابع فى الوقت نفسه دروس الجامعة المصرية القديمة ، وتتلمذ فيها لنلينو وليتمان وسانتلانا من كبار المستشرقين .

ولا شك فى أن على عبد الرازق كان مخلصا للأزهر الإخلاص كله ، يتعصب له ويدافع عنه ، وكان يرى أن إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لم يكن

إلا إصلاحا جزئيا مغالى فيه ، وكان الأولى أن ينصب الإصلاح على الأزهر نفسه ، فتهذب نظمه وكتبه وطرائقه . ولم يرقه أن يقبل أخوه مصطفى ، وهو الأزهرى المرموق، التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ، وما زال به حتى استقال من وظيفته . واشترك الأخوان فى إضراب الأزهر الكبير فى عام ١٩٠٨ ، وجدا فى تحديد مطالب الأزهريين ، وكانا قريبين كل القرب من الحلول التى انتهى إليها الموقف حين ذاك . وتابع على دراسته إلى أن حصل على شهادة العالمية بعد أخيه بثلاث سنوات ، وعقد على الفور لنفسه حلقة درس فيها متبرعا علم البيان ، وهذه أولى خطواته فى التدريس والتأليف .

ثم أريد به أن يضم الثقافة الغربية إلى ثقافته الشرقية ، ويظن أنه لم يكن راغبا فى ذلك كل الرغبة . وكان يعيب على شقيقه مصطفى ، الذى سبقه إلى أوربا ، ولعه ببعض تقاليد الغرب وعاداته . وإذا كان مصطفى قد سافر إلى فرنسا ، فجدير بعلى أن يذهب إلى إنجلترا . وفى عام ١٩١٢ شد رحاله إليها ، وبدأ يدرس فى أكسفورد علمى الاقتصاد والاجتماع ، ولم يبق بها إلا ثلاث سنوات . واضطر إلى العودة تحت ضغط ظروف الحرب العالمية الأولى . وليته استطاع أن يقيم أكثر من هذا ، لكى يفهم الثقافة الغربية على وجهها ، و يقف على أسرارها ودقائقها .

وبعد عودته أخذ يضطلع بأعباء الحياة ، ويذوق حلوها ومرها ، فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية ، واستمر فى القضاء إلى أن ظهرت محنة الخلافة . ونحن نعلم أنه بعد أن ألغى مصطفى كمال نظام الخلافة فى تركيا ، شاء الاستعمار البريطانى أن يبحث لها عن موطن آخر ، ويتخذ منها أداة لمطامعه ، وكانت مصر راغبة فيها ، ويأبى مصرى إلا أن يقف فى سبيل هذه الرغبة ، وأعلن على عبد الرازق فى جرأة وصراحة أن نظام الخلافة ليس من الدين فى شىء ، ولم ينص عليه فى كتاب ولا سنة . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم خليفة ، ولا ملكا ، وإنما كان مجرد رسول يبلغ آيات ربه « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » . ومات النبى دون أن يعين خليفة من بعده ، ودون أن يحدد نظاما معينا للحكم ثم كانت الخلافة

ولم تلبث أن جرت على المسلمين ما جرت من خصام وفرقة ، وتحولت إلى ملك وراثي يعدل حينا ويظلم أحيانا . ويقول على عبد الرازق : « إن ما يسمى عرشا لا يستقر إلا فوق أعناق البشر ، وإن ذاك الذى يسمى تاجا لا حياة له إلا بما يأخذه من حياة البشر ، ولا قوة له إلا بما يغتاله من قوتهم ، ولا عظمة ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم ، وما أكثر ما يرتكب الملوك من شرور وآثام ثم يحاولون أن يكسوها بكساء الدين .

صيحة جريئة حقا ، وحملة عنيفة موجهة مباشرة إلى الجالس على عرش مصر . وكيفما كانت حججها العقلية والنقلية ، فإنها تحمل دون نزاع طابعا سياسيا ، وقد أثارت ما أثارت من جدل ، أيدها فريق ، وعارضها آخرون ، وطغت فيها السياسة على الاعتبارات الدينية والتاريخية . ورأت هيئة كبار العلماء — نزولا عند رغبة أولى الشأن — أن تخرج على عبد الرازق من زمرتها . وكان لا بد تبعا لهذا أن يفصل من القضاء ، وإن عارض فى ذلك عبد العزيز فهمى وزير العدل ، واضطر إلى التخلى عن الوزارة قبل أن يوافق على فصل قاض لا ذنب له إلا أنه رفع صوته جهرة بما يؤمن به . وحورب على عبد الرازق فى نواح كثيرة ، ولكن يكفيه فخرا أنه جهر بما كان يتهامس به آخرون ، وقال كلمة لم يجرؤ عليها أحد سواه .

ثم دارت الأيام دورتها ، وانغمس فقيدنا فى السياسة ، ويظهر أنها لم تكن من ميوله الأولى ، برغم أنه نشأ فى بيت كبير من بيوتها ، وربما كان لمحنة الخلافة شأن فى هذا الاتجاه الجديد . فانتخب عضوا فى مجلس النواب ، ثم جاوزه إلى مجلس الشيوخ . واختير وزيرا للأوقاف ، وأضحى قطبا من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين . وفى وسع مؤرخه أن يكتب صفحات عن حياته السياسية وما خالطها من أحداث . ويتحصن السياسيون أحيانا بشىء من الحذر والحيطة والشك والريبة ، ولا يقنعون بظواهر الأمور ، ويأبون إلا أن ينفذوا إلى ما وراء الستار . وانغمس فقيدنا فى السياسة إلى حد أنه طبع بطابعها ، وبدت آثارها فى تفكيره ومسلكه ، فكان إلى الشك أميل ، وإلى الحذر أقرب ، حتى فى مواطن لا تدعو إلى حذر أو ريبة .

انتخب على عبد الرازق عضوا فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٨ ، ويبدو أنه صادف هوى من نفسه ، وعاد به إلى ما كان يطمئن إليه . وإذا كانت بعض اعبائه السياسية قد صرفته عنه فى البداية قليلا ، فإنه تفرغ له فى الخمس عشرة سنه الأخيرة ، ووقف عليه كثيرا من وقته وجهده . فاشترك فى أربع من أهم لجانه ، ولم يتخلف إلا نادرا عن جلسة من جلسات مجلسه ومؤتمره . وله فى ذلك كله ملاحظات دقيقة ، وتوجيهات نافعة ، ومناقشات ممتعة . اكتمل ذوقه ، واتسع اطلاعه ، فلا يحكم إلا عن إحساس وشعور ، ولا ينطق إلا عن بينة وفى محاضر المجمع ومجلته صور من هذا الذوق السليم والحكم الدقيق .

لم يمتهن الفقيد التدريس ، وإن تاقت نفسه إليه . فتطوع له عاما أو بعض عام على أثر حصوله على شهادة العالمية ، ودعى إليه فى عدة مناسبات فلبى . درس تاريخ الأدب فى الجامعة الأمريكية إبان نشأتها ، وانتدب ، وهو قاض بالإسكندرية ، للتدريس بمعهدها الدينى . وبعد ذلك بنحو عشرين سنة ، ألقى سلسلة من المحاضرات فى قسم تخصص الشريعة بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة . ومنذ خمس سنوات فقط حاضر فى معهد الدراسات العربية العالية ودارت محاضراته حول موضوع محبب إليه ، وهو « حياة محمد عبده » . وله نشاط قديم فى الصحافة الأسبوعية والشهرية ، يكتب ما يكتب على انفراد أو بالاشتراك مع أخيه مصطفى .

بيد أنه لم ينشر كل إنتاجه . وفى مخلفاته بحوث ودراسات نرجو أن تخرج إلى النور ، ويخيل إلينا أن التدريس كان يستحثه على التأليف والنشر فأخرج أول ما أخرج :

١ — « أمالى على عبد الرازق » ، وهى رسالة فى علم البيان وتاريخه ، جاءت ثمرة لتلك الدروس التى تطوع بها عام ١٩١١ — وتمتاز بوضوح الأسلوب وسعة الاطلاع ، يستعرض فيها تاريخ علم البيان ، ويوضح بعض قضاياه ، وأسوة بالأستاذ الإمام يميل إلى المتقدمين ، ويرى أن علم البيان « الحق ما قال به

عبد القاهر الجرجانى . أما السكاكى فقد حجره ، ووضعه فى قوالب جامدة ، ولو ترك مفتوحا لضمت إليه أسرار جديدة .

٢ — وفى عام ١٩٢٥ : ظهر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ؛ الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو كتاب رأى ، عالج فيه مشكلة سياسية شغلت الأذهان ، أعد له منذ سنين ، وكان هدفه أن يكتب فى تاريخ القضاء ، ورأى أن يمهد له بشرح نظرية الخلافة والحكم فى الإسلام . وقد عول فيه على عدة مصادر عربية وأجنبية ، واستعان ما وسعه بالتاريخ والنصوص الثابتة وعالج فيه ثلاث قضايا أساسية . فلاحظ أولا أن لا حياة للمجتمع بدون حكومة تنظمه وتدبر شئونه ، وما الخلافة إلا ضرب من نظم الحكم ، وإن لم ينص عليها كتاب ولا سنة . ولاحظ ثانيا أن الخلفاء والملوك فى الإسلام شاءوا أن يجعلوا من الخلافة والملك مقاما دينيا يستظلون بظله ، ويحتمون وراءه . ودعا أخيرا دعوة صادقة إلى طلب العلوم الحديثة والجد فى تمامها ، لكى نستعيد بها مجد الماضى ، ونناقس فى الحاضر ، وعنده أن « لا شىء فى الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى فى علوم الاجتماع والسياسة كلها » ولا نزاع فى أن كتاب الإسلام وأصول الحكم يعد من الأحداث الكبرى فى حياتنا الفكرية المعاصرة .

٣ — وفى عام ١٩٤٧ أخرج على عبد الرازق كتاب الإجماع فى الشريعة الإسلامية وهو جملة المحاضرات التى ألقاها على طلاب دبلوم الشريعة بجامعة القاهرة . ويحاول فيه أن يوضح حقيقة الإجماع ، وإمكان حدوثه ، وحجيته ، وحكمه ، ومنزلته بين أصول الفقه . وهو حريص دائما على الجمع أو النقل ، وربما زاده كتاب الإسلام وأصول الحكم حرصا ، فينقل عن السابقين نقلا أمينا ، فى وقوف على المصادر ، واطلاع واسع ، وتحرير لمواطن الخلاف .

٤ — وبعد وفاة شقيقه الشيخ ، أخرج عام ١٩٥٧ « من آثار مصطفى عبد الرازق » وله فيه نبذة طويلة عن تاريخ حياة أخيه تشتمل على نقد وتحليل وتستكمل أحداثا ووقائع لا سبيل للوقوف عليها إلا عن طريق السماع أو الرؤية .

ويعنى على عبد الرازق العناية كلها بوضوح الأسلوب ، ودقة العبارة ، فيتخير ألفاظه ويصفى جمله . ويقسم بحوثه إلى أبواب وفصول ، وقد يبالغ فى هذا زيادة فى الضبط والتقسيم وهو مولع بالضبط والتحقيق ، يضبط أسماء الأعلام كلما صادفها ، ويحقق تاريخ الميلاد والوفاة . يصعد إلى المصادر الأولى فيما ينقل ويروى ، ويعزو كل قول إلى صاحبه ، ويكاد تأليفه أن يكون مجرد رواية خالصة . وإن بدت منه إشارة أو ملاحظة ، رجح أنه وقف عليها فى قراءاته ، وكأنما يعز عليه أن يعزو شيئا إلى نفسه .

(ج) نزعته وآراؤه :

على عبد الرازق محافظ بفطرته ، سلفى فى ميوله وتفكيره ، لآراء السابقين وزن كبير عنده ، يجلها ويستمسك بها ، ويتردد كثيرا فى التعليق أو العدول عنها ، ولم تغير بيئة الإصلاح والتجديد التى عاش فيها كثيرا من هذه الفطرة ، ولم تخرج به إقامته القصيرة فى إنجلترة عن مألوفه وعادته . يقول بالإصلاح ولكن فى هوادة ، ويأخذ بالتجديد ولكن فى تحفظ . ويظهر أنه مر بمرحلتين متميزتين : مرحلة شباب وفورة تحاول أن تغير وتبدل ، وأن تصلح وتجدد ، ومرحلة كهولة وشيخوخة تجنح إلى الهدوء والسكينة ، وتنفر من المجهول وغير المألوف . وكأنما كانت محنة الخلافة حدا فاصلا بين هاتين المرحلتين .

ودون أن نعرض لآرائه الاجتماعية والسياسية نكتفى بأن نشير إلى شيء من آرائه فى الأدب واللغة . وسنقف عند كلمته الأولى فى مجمع اللغة العربية فيها يتحدث عن آراء الفتوة والشباب فيقرر « أن فى قواعد النحو كثيرا من التكلف يجعلها معقدة معسرة ... وأن فى الإمكان استنباط قواعد جديدة أحسن ضبطا ، وأقرب تناولا » . قال هذا قبل أن يظهر إحياء النحو لإبراهيم مصطفى وقبل أن تفكر وزارة المعارف فى تكوين لجنة لتيسير النحو ، وقبل أن يعرض مجمع اللغة العربية لهذا الموضوع ، ويقر مقترحات هذه اللجنة كلها تقريبا .

ويلاحظ أيضا أن علماء البلاغة حصروا أبحاثهم فى تلك الأبواب التى نعرفها فى علم المعانى والبيان والبديع ، والأمر أوسع من ذلك ، وحسن

الكلام وروعته يأخذان صورا شتى ، ويخضعان لاعتبارات كثيرة . وليست البلاغة بمقصورة على العربية وحدها ، بل لكل لغة بلاغتها ، وجدير بنا أن نقف على أوجه البلاغة وأسرارها فى لغات أخرى ، ففى ذلك ما يفتح أمامنا آفاقا جديدة فى البلاغة العربية نفسها . والواقع أن البلاغة فن من الفنون الجميلة التى تتوارد على إدراك جمالها والتأثر بها أمم مختلفة .

تلك خواطر — أو أطياف كما سماها على عبد الرازق نفسه — كانت تجول بذهنه أيام شبابه ، وقد استذكرها حين انضم إلى زمرة الخالدين ، ويظهر أنها استعيدت فقط لمجرد الذكرى . لم يكن لها أثر ملحوظ فى عمله المجمعى بل على عكسها كان يسير ، يحمل راية السلف ، ويستمسك بالقديم . وقد قال عن أخيه مصطفى : « هو رجعى فى أكثر نواحيه ، ولكن فى حدود النظر الذكى والفطرة السليمة ، فلا تتسرب إليه خرافة ولا تشوبه شائبة من شوائب الشرك الخفى ، وهو تقدمى فى بعض نواحيه ، ولكن مع الاستمساك بكثير من التقاليد الموروثة ، ومع الرجوع إلى سنن من سلف ، واتباع أحسنها . ولعله كان فى جملة الأمر إلى المذهب الرجعى وحب القديم أقرب » .

وعندى أن هذا القول يصدق على فقيدنا أكثر من صدقه على الشيخ الأكبر تغمدهما الله برحمته ، وأجزل لهما الجزاء عما قدما للعلم والدين .

حسن حسني عبد الوهاب

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

منذ أسبوعين أو يزيد قليلا ، كان من حظى أن أزور تونس الخضراء موفداً من مجمع اللغة العربية ، وذلك أداء لواجب مقدس ، وتوديعاً لراحل عظيم : هو المرحوم — حسن حسنى عبد الوهاب . وتلك أول مرة يوفد فيها المجمع إلى بلد آخر من ينوب عنه فى إحياء ذكرى أحد الخالدين ،وإن فقيدنا لجدير بكل تقدير وتكريم .

وأشهد أن تونس اشتركت كلها فى وداعه حكومة وشعباً ، شيوخا وشباباً كتابا وشعراء ، صحافة وإذاعة . ودعت فيه الابن البار ، والشيخ الجليل ، والخلق السمح ، والعلم الغزير . ودعت فيه الرائد الصادق ، والمصلح الحكيم والإمام الذى خلف وراءه التلاميذ والأتباع . ولقد قضيت فى نادى أبى القاسم الشابى نحو ثلاث ساعات أستمع لأصدقائه وأبنائه يرددون مآثره ، ويلهجون بأياديه . وزرت ذلك المعرض الذى جمعت فيه مخلفاته ، وأريد به أن يمثل مراحل حياته ، فجاء آيه من آيات الوفاء والإخلاص . وفى الحق أنه أحب تونس فأحبته ، ووقف عليها حياته كلها فتعلقت به . وقضى عمره يتحدث عنها ، ويحيى أمجادها ، ويسهم بعقله وقلمه فى نهوضها .

واليوم أود أن أقول كلمة مصر قبل أن أقول كلمة المجمع والمجمعيين ، فقد كان حسنى عبد الوهاب مصرياً بقدر ما كان تونسياً . عد مصر وطنه الثانى عرف من شئونها ما لم يعرفه كثيرون ، وتوافرت له فيها صداقات قل أن يحظى بها أحد سواه من أصدقاء مصر الكثيرين ، زار القاهرة منذ عهد مبكر ، وأحبها حبه لتونس أو القيروان ، ولا غرابة ، فالقاهرة المعزية التى نحتفل بعيدها الألفى هذا العام يمكن أن تعد بنت القيروان ، وكان يتردد عليها كلما

سنحت له الفرصة ، ويطيب له المقام فيها . ألمّ بدقائق تاريخها ، وعرف أحياءها القديمة التى قد لا يعرفها بعض أبنائها . وكان يروقه أن يقف إخوانه ومواطنيه ، التونسيين على آثارها ، وأن يزور معهم مختلف معالمها .

وقد سئل مرة : كيف وجد مصر ؟ فكان جوابه ، على نحو ما صنع مغربى سابق هو المقرى صاحب « نفح الطيب » : « من لم يزر مصر لا يعرف عز الإسلام » . ولقد أعزته مصر بقدر ما أعزها ، فاختارته عام ١٩٣٢ من بين شيوخ المغرب وعلمائه ، ليكون أحد مؤسسى مجمعها . ونشرت المطبعة الأميرية عام ١٩٤٤ فى طبعة ثانية كتابه « تاريخ الأدب التونسى » ، بعد أن انقضى على طبعته الأولى فى تونس نحو خمسة وعشرين سنة . وفى عام ١٩٥٠ منحته جامعة القاهرة ، أو جامعة فؤاد الأول حين ذلك درجة الدكتوراه الفخرية فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية .

سيدانى ، سادتى :

إن مجال القول فى الراحل الكريم ذو سعة ، ومن العسير أن يوفى حقه فى موقف كهذا ، وحسبى أن أعرض لنشأته ، وأنوه بشىء من نشاطه الإدارى والعلمى ، وأقف قليلا عند حسنى عبد الوهاب مؤرخ الحضارة .

(أ) نشأته :

إن حياة فقيدنا خصبة وممتعة ، طويلة وعريضة ، « وخيركم من طال عمره وحسن عمله » . ملئت كلها بالجد والعمل والبحث والدرس وآتت ثماراً يانعة ، وخطت بتونس خطوات فسيحة نحو النهوض والتقدم ولد فى عهد الاستقلال ، وعاش طويلا تحت حكم الاحتلال ، وأقر الله عينه بأن يستعيد الوطن استقلاله فى حياته ، وأن تنعم أمته بالحرية قبل مماته ؛ وكان فى هذا كله مثال المواطن الصادق الذى يخدم وطنه برغم الظروف ، ويرعى حقوقه ، ومصالحه إزاء اضطهاد الغاصب المستعمر .

وهو سليل أسرة من أسر تونس العريقة التى كان لها شأن فى الأدب والسياسة ولد عام ١٨٨٤ ، ونشىء تنشئة إسلامية عربية ، فألحق فى سن مبكرة بكتاب

سيدى الموحد ، ونقل بعد قليل إلى المدرسة الابتدائية ، حيث حفظ الربع الأخير من القرآن ، ودرس شيئاً من علوم الدين واللغة ، وتعلم مبادىء اللغة الفرنسية ثم ألحق بالمدرسة الصادقية . وكانت بعد « الزيتونة » منارة العلم فى تونس تجمع بين الثقافتين التقليدية والعصرية وتضم الرعيل الأول من المجددين والمصلحين .

وما إن أتم دراسته بها حتى سافر إلى فرنسا ، والتحق « بمدرسة العلوم السياسية » بباريس ، حيث توسع فى دراسة الاقتصاد والسياسة والقانون . وكان مولعاً بتتبع كبار الأساتذة والمحاضرين . واتصل بنفر منهم ، أمثال شاركو المشهور Charcot عامين أو يزيد قضاهما فى باريس طالبا ومحصلا ، فضم إلى ثقافته العربية الثقافة الفرنسية ، واكتمل نضجه ، وتأهب لما هو مقبل عليه من أعباء جسام وشاءت الأقدار أن يموت والده . وهو فى سن العشرين ، فاضطر أن يعود إلى وطنه عام ١٩٠٤ ، ليؤدى واجبه نحو أهله وقومه .

(ب) نشاطه الإدارى :

وما إن عاد إلى وطنه حتى دعى إلى خدمة بلده ، فانخرط فى السلك الوظيفى متنقلا بين إدارات مختلفة . التحق أولا بإدارة الفلاح مشرفاً على شئون الريف والزراعة ، ومنها إلى الإدارة الاقتصادية التى تعنى بشئون المال والتجارة . ثم انتقل إلى إدارة المحفوظات التى كانت فى حاجة ماسة إلى التنسيق والتنظيم ، فوضع لها نظما سارت عليها إلى اليوم . تجارب ولا شك متنوعة ونافعة أهلته لأن يشرف على شئون الولايات فى الأقاليم وقضى فى ذلك نحو خمس عشرة سنة ، وتلك ناحية تعين على النهوض بالقاعدة ، وخدمة عامة للشعب على نطاق أوسع . تتولى بالتتابع أمر عدة ولايات تونسية ، وحاول أن ينهض بها ثقافيا وعمرانيا . فأسس المدارس والمكتبات وعبّد الطرق ، وزود القرى بوسائل الإضاءة ومياه الشرب الصالحة . وكان يضرب من نفسه المثل للإرشاد والتوجيه ، فكان يلقى على أهل ولايته محاضرات مختلفة ، ويدخل معهم فى حوار مشترك ، وكثيراً ما أهدى المكتبات التى أنشأها فى الولايات بعض كتبه الخاصة . وبرغم بلوغه السن القانونية عين مديراً لمصلحة الأوقاف ، فحماها من أيدى الطامعين والمعتدين . ثم اختير وزيراً للقلم فأشرف على

الشئون الداخلية ، وتولى أمر التراسل مع الدول والهيئات الأجنبية . أربعون سنة أو يزيد قضاها فى خدمة بلاده وتصريف بعض الشئون العامة ، وبذل فيها من نفسه وماله وصحته ، وخطا بأمته نحو الاستقلال والحرية .

وفى عام ١٩٤٧ حق له أن ينال حظه من الراحة ، وأن يعفى من هذه الأعباء الثقال. غير أن حماس التحرر والاستقلال اجتذبه إلى ميدان الجهاد والعمل المضنى ففى عام ١٩٥٧ دعى فى شيخوخته ، وكان مملوءا بالنشاط دائما ، إلى الإشراف على «المعهد القومى للآثار والفنون» وقد وقف عليه خمس سنوات كاملة ، كانت مثار نشاط لا ينقطع ، أعانه عليه تلاميذه ومحبوه . فنقل مصلحة الآثار من مقرها القديم البالى إلى دار فخمة كان يسكنها قائد الجيش الفرنسى ، وأسس خمسة متاحف : أربعة منها للآثار الإسلامية ، وخامسها فى قرطاجنة للآثار الرومانية .

(ج) نشاطه العلمى والأدبى :

لقد كان فقيدنا يعرف دائماً كيف يلائم بين عمله ودرسه ، فلم يفته أن يفيد الطلاب والتلاميذ من درسه النافع وعلمه الغزير ، ولم ينقطع عن البحث والكتابة منذ أتم دراسته فى باريس ، وعلى الرغم من أعباء وظائفه لم تحرم من دروسه المدرسة الخلدونية ، ولا المدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس وامتد نشاطه العلمى إلى ما وراء تونس ، فدعى إلى إلقاء محاضرات فى معهد الدراسات الإسلامية بباريس .

وعنى بالكتابة والتأليف منذ أوائل هذا القرن ، وبقى على ذلك إلى أن لقى ربه . وكانت مكتبته أحب شىء لديه ، فهى صومعته التى كان يأوى إليها للبحث والتأمل . كتب بالعربية كما كتب بالفرنسية ، وغذى الصحافة التونسية والأجنبية ، وأمد دائرة المعارف الإسلامية بعدة فصول ، وشجع تلاميذه وأبناءه ، فقدم لكتبهم ، وعلق على بحوثهم ، وكان موردا عذبا لا ينقطع . .

أخرج عشرات من الكتب والرسائل فى الأدب واللغة ، والتاريخ والسياسة ، والاقتصاد وهذه الكتب يمكن ردها إلى بابين هامين : تحقيق وتأليف . وقد

أولع منذ شبابه الباكر بجمع النفائس من تحف ومخطوطات ، وفى مكتبته قدر من المخطوطات النادرة ، كشف عنها ، وجهد فى استنساخها أو الحصول على صورة منها ، وأخرج منها قدرا فية جدة وطرافة . وقد سلك فى تحقيقه مسلكاً علمياً دقيقاً : جمع الأصول وراجعها ، وبنى عليها ما ينشره . وكان يحرص على أن يقدم لتحقيقه ، وأن يشرح غامض النص ، ويبين فكرته الأساسية . واستطاع أن ينشر تسعة تحقيقات كشفت عن ذخائر مدفونة ، وبرهنت على ما امتاز به من حسن الاختيار ورهافة الحس . وحسبي أن أشير إلى مثلين اثنين أولهما « التبصير بالتجارة » للجاحظ ، والجاحظ بحر زاخر ، لا تزال تكشف عن جوانبه المجهولة ، وقد عاش النصف الأول من حياته فى البصرة بين تجارها المهرة الذين كانوا يربطون الشرق الأقصى بالشرق الأدنى . أما النص الثانى فهو « ملقى السبيل » لأبى العلاء المعرى ، وهو رسالة صغيرة وضعها الشاعر الفيلسوف فى أخريات حياته ، فخرج فيها من الشك إلى اليقين ، وأرسل آيات فى الوعظ والحكم ، وقد حرص المحقق على أن يقارن بينه وبين شوبنهاور ، شيخ المتشائمين فى الفكر المعاصر .

وفى ميدان التأليف أخرج الفقيد عدة كتب ورسائل بالعربية والفرنسية ، ومنها ما قصد به معونة طلاب الدراسة الثانوية ، « كخلاصة تاريخ تونس » ، و « المنتخب المدرسى فى الأدب التونسى » . ومنها ما اتجه نحو تحقيق بعض الأحداث التاريخية ، « كاستيلاء المسلمين على صقلية » ، و « نهوض الموسيقى العربية بالمشرق والمغرب » . وأود أن أشير بوجه خاص إلى كتاب أخرجه فى السنوات الأربع الأخيرة ، وهو « ورقات عن الحضارة العربية بتونس » ، ظهر منه جزءان ويعد الجزء الثالث والأخير للطبع الآن . وهذا الكتاب وثيق الصلة بكتاب آخر شغل به الفقيد طويلا ، وسماه « كتاب العمر » . والأمل معقود على أن ينشر هذا الكتاب قريباً ، كى نعيش مع الراحل الكريم فى تأملاته ونتابعه فى بحوثه ودراساته .

وأسلوب الفقيد من السهل الواضح ، ينفر من الغريب والغامض ، ويتحاشى الصنعة والتكلف . يتخير ألفاظه ويزنها بميزان دقيق ويؤثر الجملة القصيرة ذات الدلالة المباشرة . وهاكم نموذجا من عباراته العذبة يتحدث فيه

عن البحر المتوسط ، فيقول : « إن هذا البحر المتوسط لشأن عجيب ! مهد الحضارة ، ومبعث الرسالات ، ومنبع الشعر والفن والسحر . البحر المتوسط قلب الدنيا النابض وفلك العالم الدائر ، وقطبه المنير . على ضفافه الهادئة المعتدلة نشأت مدنيات ومدنيات ، قديمة وحديثة ، وظهرت آيات التفكير البشرى ، وعجائب الحقائق ، ونبعت معجزات سرمدية » .

وفقيدنا علم بين المستشرقين ، عرفهم وعرفوه منذ ستين سنة أو يزيد ، اشترك معهم لأول مرة فى مؤتمر الجزائر عام ١٩٠٥ وتوثقت صلته بشيوخهم أمثال جورج براون بين الإنجليز ، ونولدكه بين الألمان ، وجولد زيهر بين النمساويين ، وأسين بلاسيوس بين الأسبان ، وماسينيون بين الفرنسيين ، وحرص على أن يشهد مؤتمراتهم بانتظام ، وكان له فيها إسهام ملحوظ . وإن أنس لا أنسى موقفه فى مؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٠٨ من لامانس وشيخو فيما كتبا عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان لرده عليهما صدى كبير بين جميع المؤتمرين .

وللراحل الكريم تاريخ حافل فى مجمع اللغة العربية ، عاش معه منذ نشأته إلى اليوم ، فأسهم فى تأسيسه ووضع نظمه ، واشترك فى كثير من لجانه ، ورأس بعض جلسات مؤتمره . ولن أعرض فى تفصيل لما قدم للمجمع من رأى وبحث ، وقد عرضت لشىء من ذلك فى حديثى بتونس عن « حسنى عبدالوهاب المجمعى الرائد » . وأكتفى بأن أشير هنا إلى موقفه من الاقتراح الخاص باتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية ، وكان واضحا وصريحا فى معارضته له كل المعارضة ، لأنه يرى أن الكتابة العربية موفية بجميع الغرض المطلوب منها ، وهو التعبير عن مخارج الحروف فى لغة « الضاد » وفوق هذا ، استعملت هذه الكتابة فى لغات غير لغتنا ، فكتبت بها الفارسية والأردية ، كما كانت تكتب بها التركية . ويكتب أهل الملايو بحروف عربية — وأكثر من هذا استطاع العرب قديما أن يكتبوا الأسبانية بحروف عربية ، ويحرص الأسبان اليوم على أن يصححوا لغتهم ويكملوها فى ضوء ما كتب بالعربية .

(د) حسنى عبد الوهاب مؤرخ الحضارة :

لقد كان مؤمنا الإيمان كله بوطنه وأمته ، فكان يرى أن البلاد التونسية قسمت البحر المتوسط قسمين مستويين ، وكانت همزة وصل بين الشرق والغرب ، وأفادت من الحضارات الإنسانية المختلفة . أخذت عن القرطاجنيين الملاحة ، والتجارة ، وغرس شجرة الزيتون المباركة ، وعن الرومانيين سن القوانين ، وتنظيم المدن ، وتعبيد الطرقات ، وعن البيزنطيين الترف ، والتأنق فى المأكل والملبس ، وعن العرب الدين ، واللغة ، ومكارم الأخلاق . أخذت ذلك كله واستوعبته ، وهضمته وجعلته تونسيا خالصا . وقد وقف حياته على درسها ، والكشف عن ماضيها ، فأرخ لها ، وحقق بعض الكتب المتصلة بها ، مثل : « وصف إفريقية والأندلس » لابن فضل الله العمرى ، « ورحلة التيجانى » فى البلاد التونسية وطرابلس . وكتب ما كتب عن الحضارة العربية بتونس الإفريقية ، وكان « كتاب العمر » الذى لم نقف عليه بعد ، وقف عليها .

والتأريخ للحضارات أمر جد عسير ، يستلزم درسا واسعا ، وقراءة مستفيضة ، وإلماما تاما . وقد توافر ذلك كله لحسنى عبد الوهاب ، وكان حجة فى الحضارة الإسلامية عامة ، والحضارة التونسية خاصة تتبع دقائقها وأحاط بتفاصيلها . وكم يذكرنى بمواطنه التونسى الكبير عبد الرحمن بن خلدون كانا معا إمامين فى العمران وطبائع البشر . وعندى أن حسنى عبد الوهاب تأثر كثيرا بسلفه ، وحاكاه فى صنيعه ، وإذا كان صاحب « المقدمة » هو مؤرخ الحضارة العربية الأول فى القرن الرابع عشر ، فإن فقيدنا يعد من أئمة مؤرخيها فى القرن العشرين .

سيداتى ، سادتى :

هذا هو حسنى عبدالوهاب فقيد تونس ومصر ، بل فقيد الأمة العربية جمعاء ، كان رائدا ومجددا فى حياته ، ومثلا يحتذى بعد مماته . اختط لنفسه خطة ، والتزمها طوال ستين سنة أو يزيد ، وما أحوجنا إلى رسم الخطة واطراد السير . تغمده الله برحمته ، وجزاه عما قدم لدينه وعروبته خير الجزاء .

مصطفى جواد اللغوى

هناك أناس يقفون أنفسهم على الدرس والبحث ، يولعون بهما ، ويجدون فيهما لذة ومتاعا لا يعدلهما متاع آخر . يبحثون وينقبون ، يقرءون ويطلعون يحققون ويراجعون ،، يشرحون ويعلقون ، يكتبون ويؤلفون . ذلك همهم وتلك غايتهم ، لا يرجون وراءها جزاء ولا شكورا ، وكأنما خلقوا ليعطوا وسواء لديهم بعد هذا ما يأخذون . ومصطفى جواد واحد من هذا النفر القليل ، قضى حياته كلها فى الدرس والبحث ، وحببت إليه العربية وعلومها منذ شرخ الشباب ، فعكف على درسها ، وأعد لذلك العدة اللازمة . حصل ما حصل فى مدارس العراق ومعاهده ، ثم سعى إلى مصر فى منتصف العقد الثالث من هذا القرن ليتزود من الفرنسية بزاد ، وقدر له أن يسافر إلى باريس وأن يحصل على الدكتوراه فى أخريات العقد الرابع . فاكتملت ثقافته وتوافرت وسائل بحثه ، وضم إلى العربية لغتين أجنبيتين هما الفارسية والفرنسية ، وتنوعت قراءاته واتسع اطلاعه .

ثم أخذ ينتج ، وإنتاجه غزير ومتنوع ، فيه أدب ولغة ، تاريخ وجغرافيا جله تحقيق وتعليق ، وينصب قدر منه غير قليل على التأليف . أربعون سنة أو يزيد قضاها فى تتبع الحركة الأدبية واللغوية فى العالم العربى جميعه : فلا يكاد يظهر كتاب أدبى أو لغوى إلا وله فيه رأى وله عليه تعليق ، وحظيت مجلات المجامع العلمية واللغوية بكثير من آرائه وتعليقاته ، ولمجلة المجمع العلمى العراقى منها الحظ الأوفر .

* * *

ومجال القول فى الفقيد الكريم ذو سعة ، وبودى أن أقف قليلا عند

(*) ألقيت هذه الكلمة فى حفل تأبينه ببغداد الذى أقامه المجمع العلمى العربى العراقى فى ٢٦ / ٢ / ١٩٧٠

مصطفى جواد اللغوى . وقد اتسم رحمه الله بسمات عالم اللغة الضليع : قراءة مستفيضة ، واطلاع واسع ، وذاكرة قوية ، وفهم دقيق ، وتفكير عميق ومقارنة للنصوص والروايات ، واستخلاص لبعض النتائج والأحكام . وانتهى إلى طائفة من الآراء والمبادىء التى كان لها شأنها فى نهضتنا اللغوية الحاضرة .

فكان يؤمن بأن اللغة متطورة بتطور الزمان والمكان ، ومن الظلم أن نقول بجمودها ، أو نقف بألفاظها وتراكيبها عند أوضاع ثابتة . وعنده أن فكرة التطور هذه ليست بجديدة ، فقد تنبه إليها القدماء ، وعلى رأسهم الزمخشرى الذى كثيرا ما فرق فى « الأساس » بين لغة نجد ولغة الحجاز . ولم يفت أصحاب المعاجم المتأخرين أن يشيروا إلى ما جد من ألفاظ وأساليب . وما اللهجات إلا صورة من صور التطور المكانى ، وما المولد والمعرب إلا صورة من صور التطور الزمنى . وزاد مصطفى جواد فى التدليل على ذلك كله وفير ، وفى « مجلة المجمع العلمى العراقى » أمثلة منه متعددة وبخاصة فى مقال : « مبحث فى سلامة اللغة » .

وإذا كانت اللغة متطورة فمن الغلو أن نقول بلغة مثالية لا نقبل سواها وأن نقصر الفصحى على عصر بعينه ونرفض ما عداه . وعلى عكس هذا اللغة فى تطورها كل متصل الأجزاء ، يكمل لاحقه سابقه ، ويرتبط حاضره بماضيه والوقوف باللغة عند عصر معين جمود . وتضييق لمدى نشاطها ، وتحديد لمجال حياتها وحيويتها . وكثيراً ما يستشهد مصطفى جواد بشعر القرون المتأخرة ونثرها وبرغم دعوته إلى التجديد يؤثر شأن بعض اللغويين ، استعمال أمثال المقريزى والسيوطى على استعمال المعاصرين .

وما دام باب الاجتهاد فى اللغة قد فتح ، أو أنه لم يغلق قط ، فمن حقنا أن نجدد فى متنها وتراكيبها ، وأن نعدل بعض قواعد نحوها وصرفها ، ويلاحظ مصطفى جواد بحق أن العلم والحضارة جاءا بمعان ومدلولات كثيرة لابد لها من ألفاظ تؤديها ، وواجبنا أن نفتش أولا عن مصطلحاتنا القديمة فى العلوم والفنون والآداب ، ولعل فيها ما يسد الحاجة ، وهذا أمر كثيرا ما نغفله ، مع أن لنا فيه تقاليد متصلة ، فوضع العرب معاجم فى المصطلحات بدأت فى عهد

مبكر « كمفاتيح العلوم » للخوارزمى الذى وضع فى القرن الرابع الهجرى ، ثم تلاحقت فى القرون التالية ، ومن أهم ما ظهر منها « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » للتهانوى ، وهو من رجال القرن الثانى عشر الهجرى . وأحيا بعض الباحثين المعاصرين هذه السنة كالأب انستاس الكرملى فى بغداد والأمير الشهابى بدمشق ، والدكتور أمين المعلوف ببيروت ، والدكتور شرف ، والدكتور أحمد عيسى بالقاهرة . فإن عز علينا أن نجد فى الاستعمال القديم ما يسد الحاجة ، فلا ضير فى أن نضع ألفاظاً جديدة ، وسبيلنا إلى الاشتقاق والتعريب ، ولاشك فى أن اللفظ المأنوس والشائع المشهور ، وإن كان دخيلا أو مولدا ، خير من الغريب والمهجور والمصطلحات الجديدة ذات حظوظ مختلفة ، فمنها ما يقدر له البقاء والانتشار ، ومنها ما يحل محله غيره ولا يحظى بحياة طويلة .

والنحو والصرف متطوران تطور اللغة نفسها ، وفى وسعنا أن نجدد فيهما ونعدل . ونحو اللغات الحية ، وفى مقدمتها الفرنسية ، متغير ومتطور ، ونعنى بتطوره أنه لم يلتزم فيه دائما آراء النحويين السابقين . وقدبذلت فى وضع النحو العربى جهود كبيرة . وقام على أمره أئمة أعلام ، إلا أن بعض أحكامه غير مستوعب ، ومنها ما ضيق الواسع ، ولا أدل على هذا من اختلاف مدارسه ومذاهبه . وفى وسعنا أن نتدارك بعض ما فات ، وأن نبدع فى النحو كما أبدع قدامى النحاة . ويحاول مصطفى جواد فى كتابه « المباحث اللغوية فى العراق » أن يقدم نماذج لما يمكن أن يستدرك على النحو القديم ويلاحظ أنا فى مؤلفاتنا المدرسية نميل إلى نحو البصريين ، ويأسف لهذا ، ويراه من أسباب جمود النحو وعده غاية لا وسيلة ، وعنده أن فى نحو الكوفيين ما يفضل آراء البصريين .

وليست مشكلة الصرف بأهون من مشكلة النحو ، فالتعبد به سر جموده وتعقيده أحيانا صرف الشباب عنه . فيه قضايا شائعة لا يمكن أن تقبل على علاتها كالقول مع البصريين بأن المصدر أصل المشتقات ، وقصر الاشتقاق عليه ، وكأفعال المطاوعة التى يعدها مصطفى جواد خرافة عجيبة ، لأن المطاوعة تنصب على المفعول لا على الفعل . ورفض الصرفيون النسبة إلى الجمع ، مع أنه مقصود أحيانا لذاته ، وورد السماع به كالشعوبى والأنصارى والجواليقى .

وأغفلوا بعض أوزان تدعو الحاجة إليها كأسماء الآلة والأداة ، ومنعوا بعض الصيغ مع أنه لا غبار عليها . والعربية وهى لغة اشتقاقية ، جديرة بأن تيسر هذا كى يؤدى ما أمكن كل معنى بلفظ خاص به . وقدم مصطفى جواد لمؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثالثة والثلاثين سبعة مقترحات شاركه فى بعضها مجمعيون آخرون ، وترمى إلى تيسير الاستعمال العصرى . وقد أقر المجمع منها ثلاثة ، وهى أولا : جواز لحوق التاء بصيغة فعول بمعنى فاعل ، وجمعها جمع تصحيح للمذكر والمؤنث ، فيقال فخور وفخورون ، وفخورة وفخورات . وثانيا : قياس صيغة فعيل للدلالة على المشاركة ، مثل جليس وخليل وأكيل ووكيل . وأخيرا : إباحة جمع فعل على أفعال ، فيقال مجد وأمجاد وبحث وأبحاث وكثيرا ما أنكر هذا على الكتاب والمؤلفين .

وقد عاش مصطفى جواد مع المعجمات العربية زمنا غير قصير ، درس قديمها ، وعلق على حديثها ، وعرفها معرفة حقة . ولاحظ على المعجمات القديمة قلة تبويبها ، ونقص تنسيقها ، وقصورها فى تناول الألفاظ المولدة والمعربة ومنها ما لا يخلو من تحريف وتصحيف . وكثيرا ما قنع أصحابها بمجرد الأخذ عن سابقيهم دون تجديد أو تمحيص ، وهم يعنون فى الغالب بالمفردات أكثر مما يعنون بالجمل والتراكيب ، مع أن للجملة قيمة استعمالية هى القيمة الحية للغة . وتأخذ اللغات بعضها عن بعض جملا وأساليب ، كما تأخذ ألفاظا ومفردات . وقد سرى إلى العربية المعاصرة سيل من الأساليب الأجنبية ، ويحرص مصطفى جواد على أن يثبتها ، وبخاصة ما كان منها موضع نقد أو ملاحظة . وهو لا ينكر هذا الأخذ من حيث المبدأ ، ولكنه لا يقبله على إطلاقه ، ويدعو واضعى المعجمات الحديثة إلى أن يتعقبوا هذه الأساليب ، والتعبيرات ، ويدلوا برأيهم فيها . وقد لا نتفق معه فى بعض ما أقره ، أو فى بعض ما رفضه ، ونعتقد أن الأسلوب الجديد ثروة لغوية مكتسبة ، ما دام لا يتعارض مع أصول العربية وقوانينها .

ويقف مصطفى جواد طويلا عند نقطة سبق إليها ، وهى أن المعجمات اللغوية القديمة لم تستوعب مفردات اللغة وتراكيبها جميعها ، بل فاتها منها

قدر ملحوظ ، وعلينا أن نتلمسه فى كتب الأدب والتاريخ والعلم والفلسفة .
وهذا ما دفع مستشرقين كبيرين إلى محاولة تكملة المعجمات العربية واستدراك ما فاتها ، وهما لين (١٨٧٦ م) الإنجليزى ، ودوزى (١٨٨٦ م) الهولندى وقد شغل مصطفى جواد بذلك منذ سن مبكرة ، وتابعه طوال حياته ، وأخذ يسجل ما لفت نظره ، وجمع جملة صالحة من المستدركات تبلغ أن تكون مجلدة كبيرة ، فيها شواهد لغوية ، ونكت نحوية ، ودقائق صرفية . وقد عرض نماذج منها فى مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين لمجمع اللغة العربية الذى عقد ببغداد عام ١٩٦٥ . وبقدر ما نعلم لم ينشر هذا المعجم المستدرك بعد ، وليس شيء أبلغ فى الوفاء لمؤلفه ، ولا أنفع فى تخليد ذكراه من نشر معجمه هذا .

لا أظننى فى حاجة أن أشير فى ضوء ما تقدم إلى أن مصطفى جواد لغوى خق ومعجمى صادق ، أسهم مع كبار المعجميين فى حمل راية النهوض بالعربية ، وجعلها وافية بحاجات العصر ومقتضياته آمن بخصبها ومرونتها ، ولمس قدرتها على الوفاء بمطالب العلم والتكنولوجيا . أحاط بها ، واستوعب نصوصها وشواهدها ، فإذا ما عرض جديد ناقشه فى ضوء الماضى ، حتى ليخيل إلينا أنه يقول مع القائلين : « ما ترك الأول للآخر شيئا » . ولكنه فى سعة أفقه ينفذ من ناحية أخرى إلى ما ينبغى ابتداعه وابتكاره وما يجب إضافته وتجديده . فهو مثال حسن للغويين الذين يجمعون بين المحافظة والتجديد .

وقد عده مجمع اللغة العربية بالقاهرة من قديم شريكا له فى مهمته وسعد أخيرا بزمالته وعضويته ، والتقى معه فى كثير من آرائه وأخذ بقدر من مقترحاته ، واعتز بما أدى من أمانة ، وما حمل من رسالة . وهو يشاركم تمام المشاركة فى رزئه ، ويبعث إليكم مرة أخرى بخالص عزائه .
عوضنا الله جميعا فيه خيرا ، وجزاه أحسن الجزاء بما قدم لأمته ولغته .

محمد الفاضل ابن عاشور

سيدى الرئيس ، سادتى

نودع اليوم شيخاً جليلا ، وزميلا كريما اختطف منا على عجل ، وحرمنا من علمه وفضله ، ونحن أحوج ما نكون إليه .

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

نودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان فاضلا حقاً ، سماه كذلك جده لأبيه ، وكأنما كان يكتنه الحجب . فجاء ابن ابنه فاضلا فى زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ، والقلب تقديرا واحتراماً ، وفاضلا فى قوله وعمله ، حديثه جد لاهزل فيه ، ومسلكه قدوة حسنة ، أدب جم ، وتواضع بالغ ، وعطف ورأفة ، وبذل النفس والمال فى سبيل الخير والناس .

ونودع عالماً كبيرا ، وإماماً من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا من رواد الإصلاح والتجديد وكم نعمنا نحن هنا بأدبه الرقيق ، وبحثه العميق ، ودرسه الواسع . لا يعنى إلا بدقائق الأمور ، ولا يعرض إلا للمعضلات كا حجة فى تراثنا الإسلامى جميعه ، وبخاصة ما خفى منه من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ، ومحيطاً بثمار الثقافة الغربية وما انتهت إليه من علم وفلسفة ، فاستكمل وسائل الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها فى إيمان ويقين وجد وإخلاص ، حريصاً على أن يربط الحاضر بالماضى وأن يلائم بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفى سيرته عبرة ، وفى علمه نفع كبير . وحسبنا الآن أن نؤرخ له فى اختصار ، وأن نعرض لشئ من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

* * *

ولد الفقيد الكريم فى الثانى من شوال عام ١٣٢٧ هـ ، الموافق ١٠ من أكتوبر عام ١٩٠٩ م ونشأ فى بيت علم وفضل ، وتتلمذ لوالده ، وهو إمام فى علوم الدين واللغة ، قبل أن يتتلمذ لمعلم آخر . تتلمذ له فى صباه ، فبدأ تحت إشرافه فى حفظ القرآن ولما يجاوز الثالثة وفى تعلم القراءة فى بعض كتب المطالعة المصرية ، وحفظ بعض المتون كالأجرومية والألفية وهو فى السادسة . ووجه فى العاشرة إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدى معلمين خصوصيين فى منزله . وكأنما أريد به أن تقصر طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل المكتب الابتدائى ، ولم يعرف من الأطفال إلا أبناء الأقارب . وفى الثالثة عشرة من عمره بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد . وفى العام التالى التحق بجامع الزيتونة ، وبقى به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع صلته به ، تولى التدريس به فى سن مبكرة ، وبقى يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح أستاذاً وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم عميدا الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذه الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع إلى دروسه فى الأدب والتفسير والحديث بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة من ليالى رمضان بعد صلاة التراويح قدرا من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخارى ومسلم ، والإصابة ، والنهاية ، ولسان العرب . وقد نعمت بلقاء الأب والإبن ، وأشهد أنى لم أر مثله إبنا هو سر أبيه وصورة كاملة له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت أمامه آفاق شتى ، واتصل بالحركات الثقافية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى شمال إفريقية خاصة ، ولم يفته أن ينهل من حياض الثقافة الغربية . رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو فى سن السابعة عشرة وكان لهذه الرحلة أثر كبير فى نفسه ، ثم توالت رحلاته إلى أوربا وبعض بلاد الشرق الأدنى . واشترك فى عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ، ودعى للتدريس فى كثير من المعاهد والجامعات وأسهم فى عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية بمكة ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية الجامعات الإسلامية بفاس . واختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية فى العام التالى .

وللقاهرة فى نفسه منزلة خاصة . يحن إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن قرب . يتتبع نشاطها الثقافى ، ويجد فى لقاءاتها الفكرية متاعاً لا يعادله متاع ولا أزال أذكره ، وهو واقف بيننا فى العام الماضى يقول : «حياك الله يا أرض الكنانة ، وبارك لك فى هذا الجارى من صعيدك إلى شطك ، يتدفق خيراً ، ويترقرق ريا ، ويتألق نورا ، ويترفع طهرا وصفاء وهل يجد أليف عهدك — يا مصر — خيرا من نيلك السعيد ، يحييك به ، وهو الذى تحيين به أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة ، فيما شهد حسان ، يسقو قاصدبهم : بردى يصفق بالرحيق السلسل . فهذه تحيتك — يا مصر — تعود إليك ، لا تجد أحسن منها حتى نحييك بها » .

اضطلع الفاضل بالإفتاء والقضاء ، إلى جانب عمله فى الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى نفسه . حاضر فى القرية كما حاضر فى المدينة وخطب فى العامة كما خطب فى الخاصة ، وكان محببا إلى طلبته ومستمعيه ، يحرصون على حضور درسه ، ويسارعون إلى استماع خطبه ومحاضراته . وجل ما نشر من مؤلفاته ، إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها ، أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر فدعى عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وألقى سلسلة من المحاضرات أخرجت فى كتاب كبير تحت عنوان : «الحركة الأدبية والفكرية بتونس» ، ونشر له مجمع البحوث الإسلامية أخيرا بحثا قيما : «فى التفسير ورجاله» وله فى مجلة مجمعكم ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها ولو تخفف من بعض أعبائه ومد فى أجله لغذى المكتبة العربية بغذاء أوفر . وله دراسات بالفرنسية قدمها فى بعض المؤتمرات الدولية ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد ، ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا فى إخراجها إلى النور ، كى يفيد منها القراء والباحثون .

* * *

هذه فى إيجاز هى حياة الفقيد التى كانت ملأى بالنشاط والعمل ، غنية على قصرها بالدرس والبحث ونود أن نقف عند ثلاثة فقط من جوانبها :

(١) الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر الإسلامى :

فى وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه، ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة، فلم يكشف عن أصولها، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها ولم تعرف آثارها فى الحركات الفكرية الأخرى، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها ولا تزال فى ذلك كله عالة بوجه خاص على ابن خلدون فى «مقدمته»، وقنعنا فى الغالب بالصورة الأخيرة التى وصلت إلينا. وقد أحس بهذا النقص فقيدنا، كما أحس به معاصرون آخرون، ومكنته ثقافته الواسعة من تدارك شئ منه. ومن أوضح ما حاوله فى هذا الباب مؤلفه الذى أشرنا إليه من قبل «فى التفسير ورجاله» والذى ظهر بعد موته بقليل، ويقع فى نحو ١٨٠ صفحة من القطع الصغير.

ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير منذ نشأته إلى اليوم، من ابن عباس إلى محمد عبده و«تفسير المنار» ويوضح مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور أو بالنظر والمعقول، أو من جمع بينهما، ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذى كان له شأن فى نمو هذا العلم وتنوع أبحاثه وطرائقه، وفسر هذا الإعجاز على صور شتى، فقيل بالإعجاز الغيبى، والإعجاز العلمى. والإعجاز البلاغى، ويعرف المؤلف بكبار المفسرين وأهم كتبهم فى المراحل المتلاحقة ويقف طويلا عند بعض الأعلام؛ كالطبرى والزمخشرى والرازى والبيضاوى بين القدامى، وكالألوسى ومحمد عبده بين المحدثين. وله فى كل هذا ملاحظات دقيقة ومقارنات شائقة.

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران لا يخلوان - على قصرهما - من جدة وطرافة، وهما: أولا: «الاجتهاد، ماضيه وحاضره» وقد ألقى فى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، ويستعرض فيه باختصار الأدوار التى مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامى منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا. فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين، باختلاف طبائعهم وميولهم، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة، وتباين العادات والتقاليد من بلد

إلى آخر وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر . ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية فى قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ، قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط فى التشريع ، وذهب إمام الحرمين فى القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون . وتنوسى الاجتهاد أو كاد ينسى واستمسك العامة والخاصة بالتقليد — الأمر الذى لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية فى القرن الثامن ، ورفضا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف . وظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شئ من التحرر على أيدى الدهلوى فى الهند والشوكانى فى اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام فى القرن الرابع عشر ، وترتبت عليها اتجاهات عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة . ولا شك فى أن العالم الإسلامى كان عرضة منذ القرن الماضى لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولابد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحو ما صنع الأوائل ولم يكن الاجتهاد فى التشريع منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، وحبذا لو تكون — كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيد — مجلس إسلامى يضم كبار فقهاء المسلمين فى العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية فى مصر .

وأما البحث الثانى فيدور حول « السند التونسى فى متن اللغة » — وقد نشر فى الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع — وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوخها فى الأندلس وشمال إفريقية من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجرى ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطى والمرتضى الزبيدى . ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيد من تاريخ

الثقافة العربية فى نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن فى الفقه ، أو فى الأدب أو فى اللغة .

٢ – الفاضل ابن عاشور المجمعى :

لا ترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب – يوم أن اختير لعضويته العاملة ، بل تصعد إلى أبعد من ذلك – فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتز باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه وهما الخضر حسين ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واشتراك والده أطال الله بقاءه ، فى بحوثه وأعماله بالمراسلة . وكان يعتز أيضا بشيوخ المجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمى إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة . كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازماً قبل أن يدخل المجمع ، ويوم أن دخله لم يتردد فى أن يسهم فيها بكل ما وسعه من علم وخبرة . ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصب وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة . وأخذ الكلمة فى افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين ، والدورة السادسة والثلاثين ، وأبن فقيد تونس الكبير الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الدورة الخامسة والثلاثين . وغذى المجلة ببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين فى الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوى فاسد » ، والثانى : « المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى » ولن نقف عند ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة على بحوث وموضوعات عرضت فى المؤتمرات الماضية ، ويكفينا أن ننوه بهاتين الدراستين.

فأما الدراسة الأولى فوليدة تجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمنا غير قصير ، ولمس ما فيها من أقيسة جاوزت الحد ، واستنتاجات لم تبن على تحرٍّ تام للاستعمال القديم ، لاسيما لدى البصريين المحدثين ورأى أن فيها « مجالا للنظر ، وأن من الخير أن نقللها ، وأن نتحرر من وثاقها ما أمكن توسيعاً للغة ، وتيسيراً على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعل التفضيل وهو من التصاريف التى تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير

النسب وضبط القيم ، وتفضيل صفة أو أمر على آخر . ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله . وفى بحث جاد عميق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين ما فى هذه الشروط من تزيد وتعسف . وقد استقبل المجمعيون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالمجمع فى نظره زمناً طويلا ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها فى طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح فى النحو كما هو مفتوح فى التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدارسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة جميعاً . ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها فى يسر وقد كان الفقيد ينوى أن يتقدم إلى المجمع بوسائل لتعليم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولا شك فى أن هذا أملنا جميعاً وغايتنا المنشودة .

وأما الدراسة الثانية فبيان لنشأة المصطلح الفقهى فى الإسلام وإنه ضرب من الوضع أدى إلى تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التى تتميز من الحقائق اللغوية — وتعرض الفقيد لتاريخ المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى ، مبيناً أنه نشأ فى القرن الثانى على أيدى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ووريث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة فى عهد الصحابة والتابعين . وقد عرف بمتانة السليقة وقوة الارتجال . وفى (الموطأ) قدر لا بأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك من بعده وغذوه وصقلوه . ثم أخذ المذهب المالكى ينتشر فى أقطار مختلفة ، مما أدى إلى اتساع لغة التعبير الفقهى وتنوعها . وفى القرن الثالث وضع سحنون (المدونة) التى تشتمل على أربعين ألف مسألة ، وتعد الموسوعة الأولى فى الفقه المالكى ، فزادت المصطلح وضوحاً وضبطاً ودقة . وجاء أبو زيد القيروانى ، فوضع فى القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ولخص « المدونة » ففتح باب الملخصات التى شاعت فى القرون التالية . ومن أهمها ما صنعه فقهاء مصر المالكيون كابن الحاجب والقرافى فى القرن السابع ، وخليل فى القرن الثامن . ولم يقنع هؤلاء الفقهاء بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهدوا ما وسعهم فى ضبط هذه التعريفات وانضم إلى هذا كتب القضاء والأحكام ، والتوثيق والفتوى التى طبقت

المصطلحات النظرية تطبيقاً عملياً . وتوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون فى العصر الحاضر ، وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا، ويشيد الفاضل بالدور الذى لعبه الفقه المالكى خاصة فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقيا فى المائة سنة الأخيرة .

ولا نزاع فى أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وعنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده وقد لوحظ أن فى النحو والمنطق مثلا ألفاظاً يمكن ردها إلى المصطلح الفقهى وحبذا لو عولج على هذا النحو المصطلح الفقهى فى المذاهب الأخرى ، وجمع فى قوائم ثابتة ، وتتبع تطوره فى المراحل المتعاقبة . ففى ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكن من إحياء ما ينبغى إحياؤه منها .

٣ — الفاضل ابن عاشور أحد رواد الإصلاح والتجديد :

وختاماً لابد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح فى تونس قديمة العهد ، تصعد إلى أخريات القرن الماضى ، و تحذو حذو حركات النهوض فى العالم الإسلامى ، وفى مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغانى و محمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع فى تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسى الذى طوف بالبلاد الإسلامية ،واتصل بكبار مفكريها ، وعد عنوانا لعصره فى الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام ويوم أن عطلت جريدة العروة الوثقى سافر محمدعبده إلى تونس عام ١٨٨٤ وأقام نحو أربعين يوما لقى فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم فى شئون الإصلاح الدينى والاجتماعى ،وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكل بأنصاره ، وبخاصة السنوسى .

وقد تهدأ دعوات الإصلاح أحيانا لكى تتفادى العاطفة ، ثم لا تلبث أن تستأنف نشاطها وفى عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد

وعلوم طبيعية ورياضية . وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك . وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد ، متأسية بما كان يجرى فى مصر على أيدى محمد عبده وما كان ينشر فى « مجلة المنار » وغذاها فى أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم ، وهو عبد العزيز الثعالبي عاش فى مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ويدعو إلى فهم الدين والوجود . وفى هذا كله ما دفع محمد عبده إلى أن يزور تونس مرة أخرى فى عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتزت لزيارته أندية العلم والأدب ، والتف حوله رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب فى الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد ، أطال الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسى الزيتونة ، شبابا وذكاء ، وعلماً وأدباً ، وعده الأستاذ الإمام سفير دعوته فى الزيتونة .

فى هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى فى بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح ، وكان طبيعياً أن يسير فى ركب أبيه . وفى سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس فى العمل بالجمعية الخيرية وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار . واتصل أيضاً بجمعية قدماء الصادقية ، وهى دعامة جديدة من دعائم الإصلاح فى تونس ، ربى أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين فى الدعوة إلى الإصلاح ولقد كان الفاضل مؤمنا بالحضارة الإسلامية الإيمان كله ، يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة وكان ملماً إلماما دقيقاً بأسرارها ، ومتفتحاً لما فى الحضارة الغربية من جوانب نافعة وكان همه أن يلائم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض فى شئ مع النهوض الجاد والتقدم السليم . نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك فى وضوح رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ، فقرب المسافة بين القديم والجديد ، وربط الماضى بالحاضر وحبب إلى الشباب الذين رأوا فى درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ، وما تدعو إليه حاجة النهوض والتقدم .

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن النهوض الحق هو ما قام على دعائم ثقافية سليمة ، فعدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين وما أن تولى رياسة الجمعية الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد البحوث الإسلامية ونظم مؤتمر الثقافة الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل فى درسه وبحثه ، فى حديثه وكتابته ، لا تكاد تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا واجهها مواجهة تامة ، وقدم لها الحلول السليمة ، وجهد ما وسعه فى أن يوفق بين تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ، وهى خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم شملهم . وقد أنفق جهدا غير قليل فى الدعوة إلى الإخاء والوحدة . وحدة المغرب الكبير ، ووحدة العالم العربى ، بل وحدة المسلمين عامة .

* * *

سيداتى ، سادتى :

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذى أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذى وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ، والفقيه الضليع فى فقهه واللغوى الحجة فى لغته ، فقدناه ، ففقدنا مرشدا حكيما ، عرف كيف يحبب الناس فى دعوته . فقدناه ، ففقدنا طرازا من دعاة النهوض والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه من أبناء العروبة والإسلام . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر والسلوان .

العقاد فى مجمع اللغة العربية

دخله فى موكب حافل ، ضم فيمن ضم : لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، والمراغى ، وحسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد أمين ، وطه حسين . وجلس مع هؤلاء وغيرهم من علماء الشرق والغرب جنباً إلى جنب ، يدرس ويبحث ، ويناضل ويكافح فى سبيل النهوض باللغة والمحافظة على سلامتها وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .

نضى فى المجمع نحو ربع قرن جهير الصوت ، قوى الحجة ، عظيم الشكيمة ، صاحب رأى يعتد به كل الاعتداد .

* * *

كان يؤمن بالعربية الإيمان كله ، ويرى أنها غالبت الزمن ، وقويت على الأحداث . قضت على الفارسية فى ربوعها ، وحلت محل السوريانية والقبطية فى الشام ومصر ، وطردت البربرية من أوكارها فى شمال أفريقية ، وأنشأت فى الأندلس أدباً رفيعاً عمَّر عدة قرون . وصمدت فيما بعد لغزو التركية والصينية وقاومت حبائل لغات المستعمرين من إنجليزية وفرنسية وإيطالية . وبقيت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين الطارف والتليد ، محافظة ومجددة ، تستمسك بأصولها ، ولا تأبى أن تخضع لحاجات العصر ومقتضياته .

وكان العقاد حجة فى مفرداتها وتراكيبها ، فقه متنها فقهاً تاماً ، وحاول أن يربطه ببعض الأصول السامية . قرأ فى كتب اللغة ما وسعه ، وتوفر له منها زاد كبير . وللفظ العربى عنده جرس متميز ووزن خاص ، إن خرج عنه نفرت منه الأذن ولم تقبله الأسماع . أما الأسلوب فله فيه ذوق مرهف وحكم دقيق ، وكيف لا وهو منشئ أساليب ومبتكر استعمالات . درس الأدب العربى فى عمق ، وتتبعه فى عصوره المختلفة ، وقارنه بالآداب الأجنبية ، ووقف على تأثيره فيها وتأثره بها ، وكان إمام مذهب فى الأدب المعاصر .

ولم يكن علمه بالإنجليزية أقل من علمه بالعربية ، درسها منذ الصبا ، وعاش معها طويلا فى قراءاته وخلواته . أحاط بنثرها وشعرها ، وألم بدقائقها ومزاياها ، وعرف منها مواطن الضعف والقوة . ولم يغب عنه جانب من جوانبها فى نحوها وصرفها ، فى إملائها ورسم حروفها ، فى بلاغتها ونظم أساليبها . ترجم عنها ، وعرف ببعض كتابها وأدبائها . وعقد بينها وبين العربية مقارنات دقيقة وممتعة أفاد منها القراء ، وحظى بها المجمعيون بوجه خاص .

ولم يتيسر لكثير ما تيسر له من اطلاع وقراءة فى الأدب والاجتماع ، والعلم والفلسفة . قرأ فى العربية كما قرأ فى الإنجليزية ، ولا يكاد يظهر مؤلف ، إلا ويسارع إلى اقتنائه والوقوف على ما فيه . وبذا أضحى موسوعياً فى عصر تقسيم العمل وتحديد مجال النشاط ، وأبى إلا أن يكون – إلى جانب الأدب – فيلسوفاً يعارض الفلاسفة ، وعالماً يجادل العلماء فى الكيمياء والطبيعة ، والجيولوجيا وعلوم الأحياء . وكأنه لم يكن يقنع فى عالم الثقافة بالقيود والحدود ، ولا يسلم بالتخصص الضيق ، ويكاد يرجع كثير من جدله واختلاف الرأى معه إلى هذه الناحية . ولا شك فى أن القراءة المستنيرة تفتح آفاقاً جديدة ، وتهدى إلى أمور كثيرة .

* * *

بهذا الزاد الوفير من لغة وأدب وعلم وفلسفة ، أدى العقاد رسالته فى مجمع اللغة العربية فأحسن أداءها . اشترك فى كثير من لجانه ، وكان مناراً يهتدى به فى مجلسه ومؤتمره . اتصل بلجنة الأدب منذ البداية ، وصاحبها حتى النهاية . وقضى فى جوائز الشعر باطراد ، وقدم من أجيزوا غير مرة فى حفلات المجمع السنوية لتوزيع الجوائز ، وكم أتاحت له هذه الفرصة أن يعرض آراءه فى فنون الشعر المختلفة .

ويمكن أن ترد دراساته وبحوثه المجمعية إلى أبواب أربعة : لهجات وفقه لغة ، خط ورسم كتابة ، أدب ونقد ، تأريخ وترجمة .

وقد عنى بدراسة اللهجات ، وله فيها آراء وملاحظات ، وبخاصة ما اتصل بلهجات أعالى الصعيد وأسوان التى احتفظت بأصول عربية لم تنفذ إليها فى يسر

مظاهر الحضارة الحديثة . فى اللهجات العامية تستعمل الأضداد بقدر لا يقل عن استعمالها فى الفصحى : يقال طرب بمعنى فرح ، وطرب بمعنى حزن ، ويقال للإناء الفارغ أنه « مليان » ، كما يقال فى الفصحى المفازة للبيداء . وفى العامية إبدال يجرى مجرى ذلك الإبدال الذى قال به النحاة الأقدمون ، فيقال فى بعض لهجات الصعيد : زعق زعيقاً ودبح دبيحاً ، وكسر كسيراً ، وهو فى أوزان الفصحى الترعيق والتذبيح والتكسير ، وفى العامية أخيراً أوزان ملتزمة للأفعال والمصادر ، ففى إقليم أسوان يأتون بالمصدر من فاعل على فاعال ، مثل حارب حارابا .

وكم كان العقاد يدعو إلى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، لأنها تعين على فهم التطور التاريخى للغة ، وتربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية . وكان من أول المصريين الذين انضموا إلى لجنة اللهجات فى المجمع ، واستمر فيها حتى النهاية ، وطلب إليه أن يدرس لهجة أسوان وهو بها جد خبير .

وفى دراسة العامية ما يساعد على تقريبها من الفصحى ، ولا شك فى أن مسافة الخلف بينهما تضيق باطراد ، ويعين على ذلك اليوم شيوع الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما . وفى هذا التقريب ما ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وما يسمح بأن تدخل فى صميمها مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة ، ويمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بدون تعديل أو ببعض التعديل .

وفيه بوجه خاص ما يقضى على تلك الدعوى التى تردد من حين لآخر ، والتى ترمى إلى تغليب العامية على الفصحى ، أو الاكتفاء بها فى الكلام والكتابة وما أشبهها بالفتنة تنام حيناً ويوقظها من يوقظها . ومن الغريب أن أنصار هذه الدعوى يستشهدون عادة باللاتينية واللغات المتفرعة عنها ، وهو استشهاد يؤدى إلى عكس ما يراد منه . ذلك لأن هذه اللغات فى نشأتها ليست مجرد عامية اللاتينية ، بل هى لغات مستقلة نشأت كل واحدة منها نشأة خاصة بها ، وأصبحت فى حكم اللغات المتفرعة على الآرية الجرمانية ، أو على السامية فى عهودها الأولى .

وحقيقة الأمر أن ليس ثمة فصحى بدون عاميتها ، أو إن شئت هناك لغة ثقافة وكتابة ، وأخرى لغة تخاطب وحياة شعبية ، وكلما ارتفع مستوى الثقافة

العامة ضاقت المسافة بينهما . وثقافة العلوم والآداب لا تستغنى عن لغة خاصة ، لا يحدها زمان ولا مكان ، بل تبقى على الدهر ولا تقف عند بيئة معينة . واللهجة الشعبية بطبيعتها موقوتة ، تتحول من جيل إلى جيل ، ومن بلد إلى بلد ، بل قد تتعدد فى البلد الواحد . ولا حرج من أن تستخدم فى بعض الفنون المحلية ، والموقوتة فى المسرح والسينما ، لموضوعات لا تبقى مع الزمن ولا تعم سائر الأقطار أما الفصحى فهى لغة الثقافة الدائمة ، وسبيل الاتصال بين الشعوب العربية جميعها من الخليج إلى المحيط .

ومن هذه الدراسة اللغوية ، نود أن نشير أيضاً إلى موضوعين فيهما جدة وطرافة وأولها موضوع « السيمية » ، وهو من الدراسات الحديثة فى المنطق واللغة . ويقوم على تلمس علاقة بين حروف الكلمة ومدلولها ، بين اللفظ ومعناه . ولا شك فى أن هناك كلمات فى شتى اللغات نشأت عن الحكاية الصوتية ، وتدل لذلك بلفظها على شىء من معناها فالسيف سمى سيفاً لأنه يشق ، والقلم قلماً لأنه يعلم ، ويسمى الريشة فى الاصطلاح الحديث لأن أداة الكتابة عند الإفرنج كانت تتخذ من الريش . وعندما تكلم الإنسان الأول كانت اللغة مزيجاً من الأصوات الطبيعية كالتأوه والصياح والضحك ، ومن أصوات الحكاية فى مقطع أو فى عدة مقاطع ، ومن ملامح الوجه وإشارات الرأس واليدين، ومن طبقات الصوت ومبلغ ما فيه من الخفوت والإشباع . ثم انتقل الإنسان من تجسيم الكلمة على هذا النحو إلى تجريد المعنى ، وفى مرحلة التجريد هذه يتعذر أن تعقد صلة بين الصوت والمعنى : وإذا كانت هناك كلمات تدل على شىء من معناها فإن هناك أخرى لا تلحظ فيها هذه الصلة وليس بين حروفها ومدلولها أية علاقة ، ونخطئ إن حاولنا أن نطبق السيمية على مفردات اللغة جميعها . والمرء يتكلم ويفكر ، ولتفكيره شأن فى لغته كما أن لكلامه شأناً فى تفكيره ، والألفاظ التى توحى بها أفكار معينة لا يلحظ فيها النطق ولا الصوت مطلقاً .

والواقع أن الدراسات السيمية لا تزال بادئة ، ولم تصل بعد إلى المذهب المفصل والنظرية المقررة ، وإن فتحت باباً مفيداً من أبواب الدرس والبحث ، ووجهت النظر إلى ضرورة مراجعة وسائل التعبير وتنبيه الذهن إلى أخطائها . ويرجى أن يصقلها الزمن كما صقل غيرها من دراسات أخرى .

وعالج العقاد أيضاً موضوع « الزمن فى اللغة العربية » ، ويلاحظ بحق أن علامات الزمن فى الأفعال دليل ارتقاء اللغة . « فاللغة التى تدل على الزمن بعلامات مقررة فى الفعل أعرق وأكمل من اللغة التى خلت من تلك العلامات ، وبمقدار الدلالة تكون العراقة والارتقاء » . وقد شاع بين اللغويين الغربيين أن اللغات السامية — ومن بينها العربية — ناقصة فى دلالة الأفعال على الأزمنة ويحرص العقاد على أن ينقض هذه الدعوى من أساسها مبيناً أن فى العربية ألفاظاً تدل فى دقة على لحظات الليل والنهار ومواسم السنة المختلفة . ومن علامات تطورها أن الفعل الماضى هو الأصل ، ويأتى الفعل المضارع بالتصريف . وفى لغات أخرى من أرقى اللغات يشيع استعمال المضارع أولا ، ويؤخذ منه الماضى بإضافة حرف أو مقطع أو تغيير الصيغة . وقسمة الزمن فيها إلى ماض ومضارع أوضح وأدق من قسمته إلى ماض وحاضر ، لأن الحاضر شىء نبحث عنه فلا نجده ، أو نجده على الدوام متصلا بالاستقبال . وهذا ما فطن له نحاة العرب ، وسموه مضارعاً يدل على الحال متصلا بالاستقبال . « فاللغة العربية لغة الزمن بأكثر من معنى واحد : لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن فى عصرنا هذا وفيما يليه من عصور » .

وفى الخط العربى جمال وروعة ، ويعد بحق بين الفنون الجميلة ، ويؤدى المعانى والأصوات أداء صادقاً . ولم يحل رسم الكتابة قط دون تقدم العرب ونهوضهم فى الماضى ، ولا يمكن أن يحول اليوم . وليست صعوباته أشد من صعوبات لغات أخرى يتكلمها ملايين من الناس، ففى الإنجليزية مثلا حروف تكتب ولا تنطق ، وأخرى تنطق على وجوه متعددة ، ولا أدل على هذا من أن معجماتها تحرص على أن تضبط نطق الكلمة ، ودرجة امتداد الحركات فيها ، وموقع النبرة فى مقاطعها .

ولم يتردد العقاد فى أن يقف موقفاً حاسماً من استعمال الحروف اللاتينية يوم أن أثير موضوعها فى مجمع اللغة العربية ، فرفضها رفضاً باتاً ، وعارض فى ذلك عبد العزيز فهمى وهو خصم عنيف ، ورد على حججه المفحمة بحجج أخرى لا تقل عنها بياناً وقوة . وأعلن أن الحروف اللاتينية تقطع صلتنا بالماضى ،

بل وبالبلاد العربية فى الحاضر ، وهى صلة وثيقة وعزيزة ، تقوم على وشائج شتى وتراث خالد .

وإذا كان فى الحروف اللاتينية ما ييسر القراءة ، فإنها لا تعين فى شىء على تيسير الكتابة ، وهى الهدف الأصلى . ذلك لأنها لا تستطيع أن تؤدى الأصوات العربية كلها ، ولابد أن تضاف إليها حروف أخرى تزيد الأمر تعقيداً ، وتشغل حيزاً أكبر فى المطبوع والمكتوب . حقاً إنها تعين على رسم الحركات من فتح وضم وكسر ، وفى الإمكان تحقيق ذلك بواسطة علامات الشكل العربية المألوفة والمهم هو ضبط الكلمات قبل كتابتها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفهم اللغة نفسها ومعرفة قواعد نحوها وصرفها .

والواقع أن مافى الكتابة العربية من صعاب لا يرجع لا إلى الحروف ولا إلى الحركات ، وإنما مرده إلى طبيعة اللغة نفسها ، لأنها لغة إعراب واشتقاق ، تختلف فيها الكلمة من الماضى إلى المضارع ، ومن الفاعل إلى المفعول . وأولى بنا أن تختصر قواعد النحو والصرف ، لكى يحيط بها أوساط الناس ، ويقاربوا الصواب جهد المستطاع . وتكفينا مقاربة الصواب لأن العصمة من الخطأ لن تتيسر فى لغة ما ، ولن تتيسر أبداً فى عمل يتناولة جميع الناس من خاصة وعامة .

وللعقاد دراسات فى الأدب نعم بها المجمعيون ، واستمعوا إليها فى شوق ورغبة ، ونكتفى بأن نذكر اثنتين منها ، فعرض « لموقف الأدب العربى من الآداب الأجنبية فى القديم والحديث » . وعنده أنه « يمكن أن يقال على وجه الإجمال إن تأثره بها فى الزمن القديم كان على أكثر من ناحية الحضارة ، وإن تأثره بها حديثاً كان على أكثره من ناحية الثقافة » .

ويراد بناحية الحضارة كل تأثر يأتى من ملابسة الأمم فى أصول المعيشة وعادات المجتمع ، ولا يستلزم الأطلاع على آداب لغاتها . وقد اعتز العرب بلغتهم كل الاعتزاز فى الجاهلية ، ولم يتجهوا نحو تعلم لغة أخرى . ثم جاء الإسلام ، ونزل القرآن بلغتهم ، فأضاف الاعتزار بالعقيدة إلى الاعتزاز باللسان ولكن العرب خالطوا حضارات مختلفة ، وإن لم يتكلموا بألسنتها ، وأخذوا

عنها ما أخذوا . وكان لهذه المخالطة أثر فى الأدب ، وأغلب الظن أن أوزان القصيد ومعانيه قد أفادت قديماً من حضارة الفرس والروم . ولأمر ما شاع بحر الرمل والبحر الخفيف والبحر المتقارب لأول مرة فى الحيرة ، حيث امتدت آثار الحضارة الفارسية ، وهى أبحر تستخدم فى الرقص والإيقاع . ولا شك فى أن أثر الحضارات الأجنبية بعد الإسلام كان أشد وأعمق ، لتشابك العلاقات واتساع الرقعة وتنوع المراسم والعادات . فدخل فى أغراض الشعر كثير من مظاهر الحضارات التى تجمعت فى بلاد الدولة الإسلامية ، ومنها وصف المهرجانات والمواسم ورحلات الصيد .

ويراد بناحية الثقافة كل تأثر يأتى من الاطلاع على آداب الأمم فى لغاتها والتوفر على دراستها ، وأوضح ما يكون ذلك فى عهد النهضة العلمية والبحث والتمحيص . وقد نشط البحث العلمى فى صدر الدولة العباسية ، ولكن الاتصال الثقافى بين الأدب العربى والآداب الأجنبية فى العصر الحديث أقوى وأوضح وكانت اللغتان الفرنسية والإنجليزية أقرب مسالك الثقافة الأوربية إلى البلاد العربية فقرأ أدباء العرب كتب القوم ، وهى تضيف مزايا التعبير العلمى إلى التعبير الأدبى . وكان من أثر ذلك دقة فى الأداء ، وتخصيص اللفظ بمعناه واتساع أفق الشعر والنثر .

وكيفما كانت أسباب هذا الاتصال ، فإن العربية بقيت لغة حية قوية ، لها قوام ثابت وغذاء متجدد ، تأخذ عن غيرها دون أن تفنى فيه .

واستوقفت العقاد أزمة الشعر التى لفتت أنظار نقاد الأدب الغربى ، ورأوا أنها تصعد إلى « الثمانينات» من القرن الماضى ، وحاولوا ردها إلى أسباب مختلفة فذهب بعضهم إلى أنها وليدة تدهور حضارى ، وانحطاط اجتماعى ، وبلبلة فى الأفكار ، واضطراب فى المثل والمبادئ . وردها بعض آخر إلى قيام المجتمع الصناعى الذى يتوارى فيه الذوق المطبوع والشعور المستقل والخيال الطموح .

ويلاحظ العقاد بحق أن أزمات الشعر كثيرة فى جميع الأمم ، إلا أنها ليست كأزمات العلم فى دلالتها الاجتماعية . فقد يبلغ شاعر القمة فى عصر ما ولا يستلزم ذلك أن يظهر بعده فى العصر التالى شاعر أعظم منه ، وليس فى عدم ظهوره ما يدل على أزمة أو على نكسة عامة . ولعل الأمر يرتبط هنا بالأفراد

أكثر مما يرتبط بالهيئات والجماعات وما الشعر إلا باب من أبواب الفن يتطلب عبقريات واستعداداً خاصا .

وهو أيضا تعبير عن العواطف الإنسانية ، وتلطيف للواقع بالأخيلة الصادقة والأحلام الرفيعة ، وقد شاركه اليوم فى ذلك أمور شتى ، ووجد الناس منفذا لعواطفهم ومسرحا لأخيلتهم فى كثير مما يرون ويسمعون من مخترعات العصر الحديث ، فى المسرح والسينما والمذياع والتلفزيون ، والصحف المملوءة بالأخبار الطريفة والحوادث المثيرة والمغامرات المشوقة . وفى كل هذا ما يصرف عن الشعر ، أو يغنى عنه .

* * *

أما التاريخ والترجمة فقد ساهم فيهما العقاد بنصيب وافر ، وكم استقبل فى مجمع الخالدين من وملاء ، وكم ودع آخرين ! ! وكانت أحاديثه فى الاستقبال والتأبين دراسات ممتعة وتاريخاً جامعا .

وشاء به القدر أن يستقبل إبراهيم المازنى ، أخا الصبا وزميل الشباب والكهولة ، وأن يودعه ولم يمض على استقباله عام أو بعض عام . وفى استقباله يقول : « ليس من حقى أن أسميها كلمة تقديم ، فإن المازنى مقدم ومتقدم ، له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد ، وليس من حقى أن أسميها كلمة تعريف ، فإنى لو ذهبت أعرف الناس بالمازنى ، لم آمن أن أسمع من العالم العربى كله ، كلمة يستعيرها من الفرزدق ، ليقول لى : العرب تعرف من عرفت . . . لكنى أستطيع أن أقول عن المازنى شيئا جديداً فيما يتصل بى ، وشيئا طريفا فيما يتصل بالمجمع » . وقد قال عنه فعلا ، وأفاض فى القول .

ويوم أن أبنه تفتحت أمامه أبواب الكلام مرة أخرى ، وبدأ يقول : « رحم الله أخانا المازنى ، وعوض الله الأدب والبلاغة خيراً فيه . لقد كان منذوراً للأدب بكل ما نفهمه اليوم من معنى هذه الكلمة ، وقد كان الأقدمون إذا قيل لهم عن أحد من الناس إنه منذور لهذا المعبد أو هذا الحرم ، فهموا من ذلك أنه قائم فى خدمة معبده طول حياته ، وأنه لا يملك أن ينحرف عن خدمته باختياره ، لأن أرواح المعبد وجنوده ترده إليه إذا انصرفت وجهته عنه ،

فلا تبقى من نفسه بقية لغير الوفاء بنذره ، وهكذا كانت صلة المازنى بالأدب صلة نذر وقسمة . علم منذ صباه الباكر أنه يهوى الكتابة وصناعة القلم ،ولكنه علم كذلك أنها صناعة لاتجدى على صاحبها شيئاً فى معيشتة . فخيل إليه أن يعطى مطالب العيش حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له أنه للأدب وحده، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب ، فلا يتركه حتى يعيده إلى جواره » .

ثم يفصل القول فى المازنى الأديب : الشاعر والناثر ، الصحفى والمعلم الروائى والقصصى ، المؤلف والمترجم ، يحلله فى كل ذلك ، ويبين خصائصه ومميزاته . وليس فى مقدور كثيرين أن يؤرخوا للمازنى مثلما أرّخ ، ولا أن يصفوا إنتاجه على نحو ما فعل . وسيبقى تأريخه له مصدرا هاما من مصادر الأدب المعاصر .

* * *

وإلى جانب هذا كله ، فى مناقشات العقاد وتعليقاته آراء وملاحظات قيمة ، وتحتفظ بها لحسن الحظ محاضر المجمع وملفاته . وقد تزاملنا نحو ثمانى عشرة سنة ، وأشهد أنه لم تثر أمامه مشكلة من المشاكل الكبرى فى الأدب واللغة إلا واتخذ فيها موقفاً وأدلى برأى واضح . ويتميز باتجاه عام ومنحى ثابت ، يقدس العقل ويحكمه ويسير وراءه ، منطقه صارم وحجته بالغة . وفى سعة اطلاعه ووفرة معلوماته ماغذى حواره وجدله بغذاء لا ينفد . وكان دون نزاع أميل إلى المحافظة ، فلا يسلم بالشعر الجديد أو المنثور ، ولا يشعر بحاجة إلى تيسير نحو أو كتابة . وهو على كل حال ممن يرون أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، وإن كان لابد من تجديد فليؤخذ بحكمة ، وليوكل إلى ذوى الرأى والخبرة . وهو لهذا يرضى لنفسه أن يجدد ويبتكر ، فى حين يتردد كثيراً فى قبول تجديد الآخرين . غذى اللغة والأدب بنشاطه الجم وإنتاجه المتصل خارج المجمع وداخله .

وفى الهيئات العلمية والأدبية ـ عادة ـ اتجاهات واضحة المعالم وجبهات بينة الملامح ، ولقد كان العقاد جبهة قوية فى مجمع اللغة العربية . لا يكاد يثار أمر إلا وتشرئب الأنظار إليه ترتقب ما يبديه وما يلاحظه . واليوم ، ونحن نفتقده ، نذكره دائما بما خلف من درس نافع ورأى قيم .

العقاد المؤمن
(فى ذكراه السنوية الأولى)

سيداتى ، سادتى :

باسم الله افتتح هذا الحفل ، وباسم الإسلام والعروبة نحيى جميعا ذكرى عباس العقاد وللفقيد الكريم جوانب شتى وميادين متعددة ، سيتحدث عنها أصدقاؤه وزملاؤه ماوسعهم الحديث ، وسيرددها تلاميذه ومريدوه جيلا بعد جيل.

وبودى هنا فى هذه القاعة وفى جمعية الشبان المسلمين أن أشير فقط إلى العقاد المؤمن ، ولن يتسع المجال لذكر كل ما خلف من آيات إيمانه . ولقد كان رحمه الله مؤمنا عميق الإيمان ، فهم الدين فهما حقيقيا ، ودافع عنه دفاعا مجيدا صدق به قلبه ، واقتنع به عقله ، فى وقت شككت فيه المادية فى كثير من أصول الأديان الثابتة .

* * *

كان العقاد يرى أن الدين ضرورة اجتماعية ، تسمو على المصلحة الوطنية والحاجات الحيوية وجد قبل وجود الأوطان ، ولايغنى عنه سد الحاجات المادية على اختلافها ، وهو أبقى وأفسح من الزمان والمكان ، تستمسك به الأجيال ويتوارثه الخلف عن السلف ، وتؤمن به جماعات بشرية من بيئات وأجناس متعددة .

والإيمان عنده ظاهرة طبيعية فى حياة الأفراد والجماعات ، هو الأصل وما عداه الاستثناء . فغير المؤمن إنسان غير طبيعى ، هو شاذ فى حيرته واضطرابه شاذ فى يأسه وانعزاله . هو الشذوذ بعينه ، ينكره مجتمعه ، ولايقوى على أن يواجهه بكل ما يجول بخاطره . فى حين أن الإيمان ركن ركين للمؤمنين ورابطة وثيقة بين الأخوة فى الدين .

والفلسفة المادية مهما تنكرت للأديان وأنكرتها ، تنتهى إلى آراء تريد بها أن تكون دينا وعقيدة . ولكنها فى الواقع عقيدة واهية لا تقوى على الزمن ، ولاتصمد لأحداث الدهر . وما إن تحل بالمادى محنة أو تنزل به كارثة حتى يفيق من غفلته ، ويخرج من ماديته ليلوذ بعالم الروح ، عالم الأمل والطمأنينة عالم النور والهداية . ومن نعم الله على خلقه أن يجدوه فى ساعات الشدة . وأن يلجأوا إليه فى الضراء .

والعقيدة الإسلامية ملاذ المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، تمنحهم ماتمنحهم من أمل ورجاء وثقة وطمأنينة ، وتربطهم برباط أخوة الإسلام الوثيق . هى عقيدة العدل والمساواة ، عقيدة الأخوة والمحبة ، عقيدة التعاون والتعاضد ، عقيدة القلب والعقل ، عقيدة الدين والدنيا . تفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، و تحث على البحث والنظر . تسمح لهم بقبول ما يستحدثه العلم والفن على مر الزمن ، ولاتحرمهم شيئا من خير العلم والحضارة .

وكم عرض العقاد للدين والعقيدة فى كتبه ومؤلفاته ، فى أحاديثه وإذاعاته فى مقالاته ومساجلاته ، فى عبقرياته وفلسفاته . ونكتفى بأن نشير منها إلى كتابين اثنين ، هما : « الله » ، و « الفلسفة القرآنية » .

ففى الأول أثبت بوضوح أن التوحيد أشرف العقائد الإلهية ، واجدرها بالفكر الإنسانى فى أسمى مراتبه ، وأن الإله الواحد ذات تخالف جميع الذوات . هو خير مطلق وكمال مطلق ، وليس لعقولنا المحدودة أن تحيط بهذا الكمال . ولايتنافى كماله مع وجود الشر فى العالم ، لأن فى وجوده حكمة بل ومصلحة . ففى الآفات عظة وعبرة ، وهى بلا نزاع سبيل من سبل الارتقاء وتنازع الأحياء . وللآلام غاية ، ولا شك فى أنها وسيلة من وسائل التهذيب والتطهير .

وفى « الفلسفة القرآنية » ، يشرح العقاد مبادىء الإسلام السامية ، ويبين أن دعوته قامت على الحق والحرية والعدل والمساواة ، وحددت علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ورسمت للحكم نظاما هى خير ما تساس به الجماعات .

ويحاول العقاد أيضا أن يرد على الشبه التى أثيرت حول بعض التعاليم الإسلامية ، إن فى الزواج والطلاق ، أو فى الرق والقصاص . ويظهر مدى تلاقى هذه التعاليم مع أرقى المبادىء الفلسفية والاجتماعية ، ويبرهن على أنها سبقت اتجاهات العلم الحديث . ويقرر فى اختصار أن الفلسفة القرآنية خير ما تتكفل به الأديان من عقيدة تعمر الضمير ، وتطلق للعقل العنان فى سبيل الخير والمعرفة ، وتحقيق سعادة الأرواح والأبدان .

* * *

هذا هو عباس العقاد المؤمن ، وليس ثمة شىء أخلد لذكراه من أن نردد بعض آرائه ، ونوجه النظر إلى دراساته .

أما العقاد العربى فمجال القول فيه ذو سعة ، فقد كان عربيا بروحه ودمه بقلبه ولسانه بصوته وقلمه . ولا أدل على عروبته من هذا الحفل الحافل الذى جمع ممثلين لتسعة أقطار عربية ، وإنا على يقين من أن الأقطار الأخرى تشاركنا فى هذه الذكرى بكل ما فيها من وفاء وإخلاص .

رحم الله العقاد العربى المؤمن رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء .

طه حسين مكافحًا

سيداتي وسادتي :

كان صديقنا السيد الدكتور الزيات ، مستشار السيد رئيس الجمهورية ، حريصاً على أن يشترك معنا في هذا التأبين ، وكانت له كلمة ، ولكن مهمة مفاجئة اضطرته للسفر إلى الخارج . وهو يبعث بصادق أسفه لحرمانه من الاشتراك معنا ، وينقل إلينا تحية زوجة الفقيد وابنته وولده وشكرهم الخالص ودعواتهم للمجمع والمجمعيين بالتوفيق والسداد في كل ما اضطلع الفقيد الكريم به من حرص على اللغة وتعهد لها .

* * *

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه ويستطيبون كل شيء في سبيله . يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجعا للنهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا للجرأة والشجاعة . « وطه حسين ، مكافح مناضل » ، تلك ظاهرة ملحوظة في حياته كلها ، كافح في صباه وشبابه ، كما كافح في كهولته وشيخوخته وبرغم مرضه في سنيه الأخيرة بقي قوله وفكره يحملان شارة الكفاح والنضال كافح وناضل في ميدان العلم والتعليم ، في ميدان الأدب واللغة ، في ميدان الوطنية والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنت ومشقة ، وجلب عليه ما جلب من خصومة وعداء ولا يخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط . وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما الرجل كل الرجل هو الذي تستقيم له حياته كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره القوي النقي أن تكون ، وكما يريد عقله الذكي أن تكون .

(*) ألقيت في حفل التأبين الذي أقامه المجمع للمغفور له الدكتور طه حسين – رئيس المجمع ، في مساء يوم الأربعاء ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع – بالقاهرة .

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة . ويكفى أن نعرض نماذج منها . كافح فى صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض ما حرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود علميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهو فى حدود الثالثة عشرة من عمره وتتلمذ على كبار الشيوخ حين ذلك ، أمثال الشيخ بخيت ، ومحمد العدوى ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصفى ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام فى الرواق العباسى . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ، وقوة الحجة والحذق فى الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذى رحب به فى « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه . .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكى (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى من المصريين ، والجويدى وليتمان ، وسانتلانا من الأوربيين . ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية وكان يصطحب أحيانا أستاذه وصديقه « سانتلانا » إلى درس الشيخ سليم البشرى فى التفسير ، ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبى الشيخ البشرى فى مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته فى الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدى الذى رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله . ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيها عنتا كبيرا ، ولكنه لم يجودها إلا أثناء مقامه فى فرنسا ، وختم مطافه فى هذه الجامعة بتقديم رسالة « فى تجديد ذكرى أبى العلاء » للحصول على الدكتوراه ، ونالها بتقدير « جيد جدا » ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدى الذى لم ينس حملات تلميذه السابقة . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد ، والزندقة ، ووجه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرمانه من حقوقه

الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول ، وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذلك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجرئ .

ولم يقف طه حسين عند هذه الغاية ، بل تابع الكفاح ، وواصل ، الدرس والبحث . فأوفدته جامعته إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى وقضى فى مونبليه نحو عام ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة فى باريس نفسها ، واتصل بكبار أساتذة « السربون » فى الاجتماع والتاريخ ، أمثال « دور كايم » ، « وليفى بريل » « وسينيوبوس » . وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك فى يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها . وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسى . وفى عامين اثنين حصل على الليسانس فى الآداب ، وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة فى « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس . فتوافر له بذلك درجتان فى الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة ،والأخرى من باريس،ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته .

وقد عاد إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة، بعد أن اكتمل نضجه العلمى والفكرى وبدأ نضالا طويلا واسع المدى ، متعدد الألوان ، عمر نحو أربعين سنة ، وعول فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل وبداهة المنطق . كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له ما وسعه ، ويعده أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد . ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وحاسبهم على أعمالهم فى غير هوادة وتخرج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل ، عليها فى حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه ، وفتنوا بنعمة صوته وحاكوه فى كثير من تعبيراته ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة .

وفى عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلى » الذى لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب . وما أن ظهر هذا الكتاب ، حتى أثار حملة شعواء اختلط فيها الأدب بالسياسة ، فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ، ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته . وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة ، ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء ، وهو من نعرف فى شخصه ومنزلته ، لكان لهذا الاستجواب شأن آخر . ولم تكد تسكن العاصفة فى البرلمان حتى هبت فى النيابة العامة ، فحقق مع المؤلف وبحثت أقواله وآراؤه . ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه . واكتفى بمنع تداول كتابه فى الأسواق . وبرهن طه حسين فى ذلك كله على صلابة ورباطة جأش بالغتين ، وخاض معارك فى جبهات ولم يمسه منها سوء يذكر ، بيد أنه لم تكد تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى فى الجامعة كانت أشد عنفا .

فعورض فى تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه ، ولكن دكتاتورية « إسماعيل صدقى » لم تتردد فى أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعدته عن عمله ، وأحالته على المعاش .

وكافح طه حسين أيضا فى ميدان الصحافة ، وصلته بها قديمة العهد ، ترجع إلى أوائل هذا القرن نشىء فيها على أيدى رائدين عظيمين هما : عبدالعزيز جاويش ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان إلى التطرف أميل . وقد كتب أول ما كتب فى « مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز جاويش » الذى وكل إليه أمرها . وشجعه على ما تتوق إليه نفسه من نقد جرىء وجدل عنيف . واضطر رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير انتظار ، فلجأ إلى رائده الثانى وأفاد منه كثيرا والحق أن « الجريدة » على قصر عمرها كانت مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم فى حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية . ونعتقد أنه لم يكشف بعد تماما عن أثرها فى اللغة وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت ما بدأه « رفاعة

الطهطاوى » و « محمد عبـده » من التخلص من السجع والجناس والمحسنات اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمى ، ومنصور فهمى ، والزيات الذين كانوا قدوة فى الأداء الفنى السائغ السهل ، وقد أخذ على طه حسين شىء من التكرار وبالغ فى ذلك خصومه ومنافسوه ، ولو كان فى وسعه أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ، ولعله تأثر فى هـذه السلاسة بشىء من الأدب الفرنسى ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب العربية المعاصرة ، ولا يحمل أى طابع أجنبى ، وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب الصـدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و« ابن المقفع » ، و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيدنا من أوربا إلى شرقه القديم ، واتصل بصحيفة «السياسة» وهى إلى حد ما امتداد « للجريدة » وأسرتهما واحـدة تقريبا ، وفيها التقى « طه » بزميله القديم « هيكل »، واشترك معه فى إدارة الصحيفة ، وناب عنه أحيانا فى رياسة تحريرها . وكان له فى « السياسـة الأسبوعية » مجال فسيح وكم كان قراوه ينتظرون فى شغف « حديث الأربعاء » الذى فتح أبوابا ثقافية متعددة ،وقاد حركة نقد حية نشيطة ، كم نود أن نحييها . وإذا كان طه حسين قد كتب فى « الجريدة » و« السياسة » هاويا ، فإنه بعد إحالته على المعاش أصبح محترفا ، وطلب إليـه الوفـد عام ١٩٣٣ أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ، وأصبح يوئيد حزبا سياسيا طالما حاربه فى عنف . غير أن تعاونه مع « حافظ عوض »؛ صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا واضطر أن ينفصل عنـه ، وأن يشترى « صحيفة الوادى » وأن يديرها لحسابه الخاص نحو عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هـذا بمواصلة الكتابة للصحف هاويا مرة أخرى فى بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له علاقات منتظمة ببعضها « كالجمهورية » و« الأهرام » فى العشرينات الأخيرة .

وكافح طـه حسين أخيرا فى ميدان السياسـة ، وما أقساه من ميدان ؛ ورحم الله الأستاذ الإمام الذى قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبيا متحزبا تحزب التبعية والانقياد فيما أخـذ به من اتجاهات سياسـية ،

وإنما هى تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جاراها يمينا تارة ، ويسارا تارة أخرى ، وما كان أشد تأثره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات ما نال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى فى لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه فى البداية شأن كل مواطن مستنير عاش فى جو الثورة العرابية، وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطانى ، ويطالب بالاستقلال .

وفى اتصال فقيدنا « بعبد العزيز جاويش » و« لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أنا لا نلحظ له فى الحقيقة نشاطا سياسيا واضحا طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا فى مصر ولا فى فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » . واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفى إلى الدخول فى مهاترات حزبية ما كان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ، ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عليه . ونتساءل هل اشترك فعلا فى التنظيم الداخلى لحزب الأحرار ؟ وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيرا يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين . وحمل رايتهم ، ودافع عن مواقفهم ، وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما . وقد وصل فيها إلى القمة ، وأحرز مجدا يزيد على مجد كثير من السياسيين . وودوا بخاصة أن لو لم يغل فى المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحيانا إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم « لطفى السيد » و « عبد العزيز فهمى » « والشيخ المراغى » ، « وهيكل » ، « ومصطفى عبد الرازق » . دخله وقد جاوز الخمسين ، وحق له أن يركن إلى شىء من الهدوء والراحة . ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال . وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم فى

كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله ، ويوفر له وسائل العمل والإنتاج .

وكم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة . واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها الأدبى ولا يزال المجمع يعانى من شئون الطبع ما يعانى إلى اليوم . وأراد « لمعجم ألفاظ القرآن » أن يقوم على أساس من المنهج التاريخى ، وأن يسلك به ما سلك فى كتب العهد القديم ، وكان له فى ذلك حوار متصل مع الشيخ المراغى ولانزال نذكر ما كان بينه وبين زميله « عباس العقاد » من محاورات كانت تبعث فى جلساتنا نشاطا وحيوية . وإذا حمى وطيسها تدخل فيها « لطفى السيد » فهدأت وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا شديدا . ورحب بالمشروع الذى بعثت به وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب فى أن يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم « فيشر » التاريخى ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير . وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبء التنفيذ ، وهذه مهمة عشت معه فيها . وزاملته فى تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا فى رسم منهج هذا المعجم . وقضى عدة سنوات يتابع إعداد قدر من مواده . ويراجعها فى أناة وروية ، واستطاع أن يخرج منها نموذجا فى نحو ٥٠٠ صفحة ،وقد دفع به المجمع إلى الباحثين والمتخصصين راجيا أن يوافوه بما يعن لهم من ملاحظات وتعليقات وكان هذا النموذج أساسا سار عليه المجمع فى إخراج معجمه الكبير . تلك أمثلة من جهوده المتصلة فى مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ، وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته ولقد كانت رحلته فيه خصبة طويلة ، بلغت ٣٣ عاما ، وهى أطول رحلة لمصرى من الخالدين .

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظننى أغلو فى شئ إن قلت إن حياته كانت كفاحاً كلها ، كفاح فى الإعداد والتكوين ، وكفاح فى البذل والعطاء ؛ كفاح فى الأزهر ، والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه كفاح آخر دام نحو خمسين سنة . تعددت ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ، والجامعات الجديدة ، ووزارة المعارف .

لجأ فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيهز المشاعر ويستلفت الأنظار ، ولا شك فى أن كتاب « الشعر الجاهلى » من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى فى خاتمة المطاف . وقد يكون من كفاحه ما ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية التى جهرت ، منذ أول العشرينات الثانية من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأى وتحكيم العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحرى ، بل إلى الشك والمعارضة وأدخل المنهج النقدى فى ميادين لم يكن مسلما من قبل أن يطبق فيها . استن فى الكتابة والتعبير لونا عذبا من الأداء الفنى حاكاه فيه كثير من الكتاب ، وأضحى عميد الأدب غير منازع فى العالم العربى جميعه .

وشاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ، فبلى بعلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد المجاهدين .

سيداتى ، سادتى :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مولود وكل ذى أب يتيم

تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء .

* * *

طه حسين الرائد

عشت زمنا مع طه حسين فى معركة الشعر الجاهلى ، وكنت لا أزال طالباً وتعد بحق أكبر معركة فكرية وثقافية فى العقد الثالث من القرن العشرين . وقدر لى أن أسافر فى بعثة إلى فرنسا فى أخريات هذا العقد ، وبعدت نوعاً عن ذيول هذه المعركة . وفى عام ١٩٣٢ جمع مؤتمر المستشرقين بينى وبين طه حسين بهولندة ، لأول مرة .

وشاءت مصر أن تعرض فى هذا المؤتمر حروف التاج ، التى لم تقدر لها حياة طويلة . وما أن عدت من بعثتى عام ١٩٣٥ حتى دعيت للتدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، واتصلت بطه حسين عن قرب ، وتوثقت صلاتنا عاما بعد عام . عرفته أستاذا وعميدا ، واتخذت منه زميلا وصديقاً . وشاء الله أن تمتد هذه الزمالة إلى النهاية . فقد سبقنى إلى مجمع الخالدين ، وانضم إلى عضويته عام ١٩٤٠ وفى عام ١٩٤٦ جاء دورى ، ولحقت به هناك ، وعشنا سبعة وعشرين عاماً أو أكثر فى تفاهم وتعاون تام .

ومجال القول فى طه حسين ذو سعة ، وقد سبق لى أن عرضت لطه حسين المكافح ، ولطه حسين الثائر ، ولطه حسين المجمعى وأود أن أقف اليوم وقفة قصيرة أمام طه حسين الرائد ، وله ريادات كثيرة أكتفى بأن أشير إلى ثلاث منها فى ميدان الصحافة ، والأدب ، والحياة الجامعية وقد أولع طه حسين بالصحافة فى صباه ، وشغل بها ولما يبلغ العشرين ، وتتلمذ فيها على رائدين كبيرين هما عبد العزيز جاويش ، ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال .

وشاء عبد العزيز جاويش أن يفسح له المجال فى « مجلة الهداية » التى رأ أخيرا أن يكل إليه أمر إدارتها ، وهذه ثقة يعتد بها . ولكن هذا الرائد اضطر إلى الهجرة من مصر على غير انتظار .

فلم يكن لطه حسين بد من أن يلجأ إلى رائده الثانى ، وهو لطفى السيد الذى كان معجباً بقوة حجته ووضوح جدله ، وسبق أن شفع له عند شيخ الأزهر الذى كان يريد أن يحرمه من متابعة دراسته . وفى مدرسة « الجريدة » استكمل طه حسين إعداده الصحفى ، وعمل فيها مع زملاء آخرين كانوا من كبار الصحفيين المعاصرين ، أمثال : محمد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، وأحمد حسن الزيات ولهذه المدرسة شأن ملحوظ فى تطوير الأداء الصحفى ، فاستكملت ما بدأ به رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده من محاربة المحسنات اللفظية من سجع ، ومحاولة التخلص من البيان والبديع . وآثرت الأسلوب السهل السائغ الذى يتابعه القارئ فى يسر ودون توقف . ولطه حسين فى هذا قدم صدق ومنزلة رفيعة ، فقد استولى على قرائه ومستمعيه بأسلوبه السهل وعباراته العذبة ، وما كان أشبهه بعبد الحميد الكاتب ، أو ابن المقفع ، أو الجاحظ من كتاب الصدر الأول .

بيد أن ريادة طه حسين الصحفية الحقة إنما بدأت بعد عودته من بعثته ، فأسهم فى ميدان الصحافة إسهاماً ملحوظاً فى عقود ثلاثة متلاحقة من هذا القرن من العقد الثالث إلى العقد الخامس ، ولم يغفلها فى العقدين التاليين ، وقد ملأ الأعين والآذان بمقالاته ومحاضراته حين استوقفته قضية الشعر الجاهلى طوال عشر سنين أو يزيد . شارك زميله القديم هيكل فى إدارة شئون « جريدة السياسة » وناب عنه أحيانا فى رياسة تحريرها .

وسلك « بالسياسة الأسبوعية » مسلكاً ثقافياً فسيحاً ، فتح أبوابا شتى للبحث والدرس ، والحوار والمناقشة وكم كان قراؤه يرقبون فى شوق كل أسبوع « حديث الأربعاء » .

* * *

وطه حسين أديب رائد فى منهجه وبحثه ، فى درسه ومحاضراته ، فلم يقنع فى بحوثه الأدبية بما درج عليه أصحاب التراجم فى التعريف بالكتاب والشعراء من الوقوف عند حياتهم الشخصية وذكر بعض مؤلفاتهم وحرص الأستاذ الأديب الكبير على أن يربط هؤلاء الكتاب والشعراء ببيئتهم والظروف المحيطة بهم ، وهذا ربط طبيعى ومنطقى ، لأن الحياة الأدبية فى مجتمع ما وثيقة الصلة بالبيئة الطبيعية ، والحياة السياسية والفكرية فى هذا المجتمع بوجه عام . وقد

توسع فى هذا الربط والتحليل توسعاً كبيرا ولاحظ بحق أن بعض أصحاب التراجم قد لا يتحرون الدقة فيما ينقلون ، وكثيرا ما يأخذ لاحقهم عن سابقهم فى غير ما تحقيق ولا تدقيق وأخذ نفسه بمبدأ الشك الديكارتى الذى كان معجباً به ، وحاول ما وسعه أن يطبقه وكان يرى أن الآراء والأحكام قابلة للأخذ والرد . والتحليل والمناقشةإلى أن يقوم الدليل على صحتها . وكم فتح شكه هذا أعينا كانت مغمضة ، وأذهانا كانت مغلقة .

ومن الكسل الذهنى والفكرى أن يقال : ما ترك الأول للآخر شيئا ، بل لقد ترك له الشئ الكثير ، وفى وسعنا أن نبحث كما بحث الأقدمون ، وأن نضيف ما لم يضيفوه ، وهذا فتح جديد قال به طه حسين الرائد . وكان من آثاره قضية الشعر الجاهلى التى شغلت الأذهان عدة سنين ، وقيل فيها ما قيل وكتب ما كتب ولسنا بصدد هذه القضية اليوم ، وكل ما يعنينا أن ننوه بالمنهج العلمى الذى دعا إليه طه حسين وكان له أثره فى الدراسات الأدبية التالية ، بل فى البحث العلمى بوجه خاص .

وطه حسين رائد فى درسه ومحاضراته . فقد حرص على أن يسهم معه تلاميذه فى درسه وبحثه ، ووجههم نحو قضايا ومشاكل دعاهم إلى أن يعالجوها وحاسبهم على جهودهم فى حزم وجد . واتخذ من رسائل الماجستير والدكتوراه وسيلة لتطبيق المنهج العلمى الدقيق إن فى التعريف بالأشخاص والمدارس ، أوفى شرح الآراء والمذاهب ، أو فى تحقيق النصوص وكون بذلك جيلا من أساتذة المستقبل ، أكتفى بأن أشير إلى أربعة منهم وهم : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » . والدكتور شوقى ضيف ، والدكتور طه الحاجرى .

أما محاضراته ففيها هى الأخرى ريادة جديدة ، فلم يقف بها عند الحرم الجامعى ، بل خرج بها إلى قاعة المحاضرات العامة ، فى الجامعة الأمريكية ، أو فى الجمعية الجغرافية .

وأقبل عليها جمهور المثقفين من الجامعيين وغيرهم ، وفتح بابا فسيحاً للتعليق والملاحظة ، أو للنقد والمناقشة وأحدث نشاطا فكريا وثقافياً ما أحوجنا أن نستعيده .

* * *

وطه حسين أخيرا رائد جامعي ، فضرب مثلا فريدا لطالب أزهرى فاقد البصر لم يقنع بصحن الأزهر ، ولا بشيوخه وأعمدته ، بل جاوز هذا كله إلى أول نواة لحياة جامعية حديثة . فالتحق بالجامعة المصرية القديمة ، وأقبل على دروسها ومحاضراتها إقبالا شديدا ،وتتلمذ لأساتذة آخرين غير شيوخه الأزهريين نذكر من بينهم أحمد زكى (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى من المصريين ، وجويدى ، وليتمان وسانتلانا من الأوربيين ، وكانت تربطه بالأخير خاصة علاقة وثيقة ، وكثيرا ما صحبه فى متابعة درس الشيخ البشرى فى التفسير وأقبل طه حسين على الدرس الجامعى إقبالا شديدا فى شوق ورغبة . وكان محل تقدير من أساتذته ، لتفتح ذهنه وقوة عارضته ، وإن ضاق بذلك أستاذه محمد المهدى . ودفعه البحث الجامعى إلى تعلم اللغة الفرنسية ، وإن لم يجودها إلا بعد سفره إلى أوربا . وانتهى به المطاف فى الجامعة المصرية القديمة إلى تقديم رسالة للدكتوراه حول « أبى العلاء المعرى » وحصل عليها بتقدير رفيع . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى اتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، وطلب إلى الجمعية التشريعية أن تحرمه من حقوقه الجامعية ، ولم ينقذه إلا سعد زغلول ، الذى كان رئيساً لهذه الجمعية حين ذلك .

وقدر له أن ينعم بحياة جامعية أخرى خارج مصر ، فأوفد فى بعثة إلى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى وقضى هناك نحو خمس سنوات ، أمضى منها عاما واحدا فى مونبلييه والباقى فى باريس ، وتتلمذ لكبار أساتذة الاجتماع والتاريخ فى السوربون ، أمثال : دور كايم وليفى بريل ، وسينيوس وأولع بالحضارة اليونانية الرومانية . مما دفعه إلى تعلم اليونانية واللاتينية وتمكن من الأخيرة تمكنا لا بأس به ، وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسى وحصل على الليسانس فى الآداب ، ثم توجت جهوده فى السوربون ببحث عن « ابن خلدون » حصل

به على الدكتوراه من جامعة باريس إلى جانب الدكتوراه السابقة التى حصل عليها من الجامعة المصرية القديمة .

وفى عام ١٩١٩ عاد إلى وطنه ، وشغل بالصحافة زمنا ثم أنشئت جامعة « فؤاد الأول » وضمت إليها الجامعة المصرية القديمة ، وكان لابد أن يفسح المجال لطه حسين فى الجامعة الجديدة ، لأنه وثيق الصلة بسابقتها ، وفى الجامعة الناشئة بدأت ريادته الجامعية الحقة التى حاول أن يضع فيها تقاليد سليمة ، وأخصها أولا إيمانه بأن العلم لا وطن له ، وعلى الجامعة أن تستعين بمن تدعوه من أساتذة الغرب وعلمائه ، وتوسعت كلية الآداب فى ذلك توسعاً كبيرا وأصبحت شبه كلية عالمية يلتقى فيها الأساتذة الفرنسيون والبلجيكيون والأساتذة الإنجليز والألمان إلى جانب المصريين وسعى طه حسين جاهدا أيضاً إلى أن يوفد أكبر عدد ممكن من خريجى كليته إلى المعاهد الأوربية الكبرى ؛ وأعد بذلك أساتذة المستقبل من المصريين .

وعنى ثانياً بالدراسات الكلاسيكية ، فأنشأ قسماً مستقلا للغات القديمة ، وأصبح لليونانية واللاتينية مكان فى كلية آداب عربية . ولم يغفل اللغات الشرقية القديمة ، وإن عدها فرعاً من قسم اللغة العربية .

وآمن أخيرا إيمانا جازماً باستقلال الجامعة ، وضحى فى سبيله ما ضحى وكان يرى أن البحث الجامعى لا يمكن أن ينمو ويزدهر إلا فى جو الحرية والاستقلال وليس لوزير أن يفرض عليه رأيا ، أو أن يرسم له اتجاها ؛ ومن مستلزمات هذا الاستقلال أن توفر للجامعة الاعتمادات المالية اللازمة ، التى تمكنها من أداء رسالتها وأن تحمى هيئة التدريس من أى تدخل أو عدوان .

هذا هو طه حسين الرائد ، وقد تحقق كثير من أهدافه ، وقدر لهذه الأهداف أن تحيا وتستقر ، ولكن الزمن أبى إلا أن يعدو عليها ، وفعلت السياسة فعلتها فى قدر كبير منها .

ولعل فى إثارتها ما يوجه النظر إليها ويدعونا إلى أن نستمسك بها مرة أخرى وهذا خير إحياء لذكرى طه حسين .

فى ذكرى طه حسين

لا شك فى أنكم تقدرون معى صنيع جامعة القاهرة وكلية الآداب فى إقامة هذا الحفل العظيم لإحياء ذكرى طه حسين ، وتلك سنة لها وزنها ، وكم أود أن تصبح تقليدا جامعيا تأخذ به كلياتنا وتسير عليه وفى من رحلوا عنا من كبار الجامعيين ميدان فسيح للدرس والبحث ، والتحليل والتمحيص درس نتابع به المسيرة ، ونربط الحاضر بالماضى ، ونعد للمستقبل ولقد حمل هؤلاء الراحلون الكرام الرسالة ، وأدوا الأمانة ؛ وعلينا أن نحذوا حذوهم ، ونهتدى بهديهم ونستمسك بمبادئهم ، ونتم ما بدأوا .

ومن حسن الطالع أن تبدأ كلية الآداب هذا التقليد بطه حسين ، ومجال القول فيه ذو سعة ، فهو أولا مكافح كبير ، قضى حياته فى كفاح متصل ، بدأه فى طفولته وشبابه لكى يعد نفسه لما سيضطلع به من رسالة كبرى فى كهولته وشيخوخته . كافح فى كتاب القرية ، وفى الأزهر والجامعة المصرية القديمة وتابع الكفاح فى فرنسا وما إن عاد إلى وطنه عام ١٩١٩ حتى اضطلع بكفاح طويل مرير ، تعددت ألوانه وتنوعت سبله فشمل الصحافة والسياسة والأدب واللغة والعلم والتعليم استعان عليه بسحر الكلمة وسلطان العقل ، وبداهة المنطق . وربما لجأ إلى قارعة أو قنبلة يلقيها ، فتهز المشاعر ، وتستلفت الأنظار ؛ ولا شك فى أن « كتاب الشعر الجاهلى » من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى فى خاتمة المطاف وفى كفاحه هذا دروس ما أحوجنا إليها ، وما أجدرنا أن نستذكر فهو دون نزاع من أقوى الأصوات التى جهرت منذ أوائل العشرينيات فى هذا القرن بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية .

(*) ألقيت فى الندوة التى عقدتها كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٧٩/١٠/١٥ احتفاء بالذكرى السادسة لوفاة الدكتور طه حسين رئيس المجمع الراحل .

اعتد بحرية الرأى وبحكيم العقل استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحرى بل إلى الشك والمعارضة وأدخل المنهج النقدى فى ميادين لم يكن مسلماً من قبل أن يطبق فيها . واتهم فيما اتهم به ، بالإلحاد والخروج على الدين ، وتلك تهمة قديمة كثيرا ما وجهت إلى كبار المفكرين والباحثين ، ويسوءنى أن تردد اليوم فى غير ما نزاهة ولا إنصاف .

وطه حسين جامعى أصيل ، بدأ حياته الجامعية فى الأزهر ، وهو من أقدم الجامعات الإسلامية التى كان لها شأن فى الشرق والغرب وعنه أخذت بعض الجامعات الأوربية العتيدة . ثم تابع السير فى الجامعة المصرية ، وفى جامعات فرنسا وبخاصة فى السربون حيث تتلمذ لكبار أساتذتها المعاصرين ، أمثال دوركايم وليفى بريل ، وأفاد من درسهم وبحثهم ، وعول على طرقهم ومناهجهم وكان يؤمن إيمانا جازماً بالتقاليد الجامعية ، وحاول ما وسعه أن يثبت أقدامها فى جامعة فؤاد الأول الناشئة واستقلال الجامعة فى رأيه مبدأ أساسى — ولا حياة لجامعة ولا لتعليم جامعى بدونه . وقد بذل فى سبيل تثبيته ما بذل ، وأعانه على ذلك لطفى السيد مدير الجامعة حين ذاك ، وقد كان أستاذه وراعيه منذ البداية .

وفى وسعنا أن نقرر أن العقد الرابع من هذا القرن كان من أزهى عصور جامعة القاهرة تأكد فيه استقلالها ، واستقرت شيئاً فشيئاً تقاليدها ، وكانت كلية الآداب بوجه خاص رائدة فى وضع هذه التقاليد ، ورمزا حياً لهذا الاستقلال . ورغب طه حسين رغبة أكيدة فى أن تكون آداب القاهرة على غرار كليات الآداب فى الدول العظمى يزود طلابها بزاد وفير ، ويعدون إعداداً كاملا للدرس والبحث ، ويلمون باللغات القديمة شرقية كانت أو غربية إلى جانب تمكنهم من لغتهم العربية وإجادتهم للغة حديثة على الأقل . وكان يرى أن العلم لا وطن له وأن الثقافة الإسلامية إبان نهضتها قامت على الأخذ والعطاء ولذلك سعى سعياً حثيثاً فى أن يوفد إلى الخارج من أبناء كلية الآداب أكبر عدد ممكن لكى ينهلوا من حياض العلم والمعرفة ، وقد تابع الرعيل الأول من هؤلاء الموفدين السير وحمل الأمانة فى الجامعة وخارجها ، وما نشكو منه اليوم من فقر أو نقص فى التخصصات المختلفة إنما يرجع إلى أنا لم نلتزم هذه السياسة ، ولم يقنع طه حسين بمن أوفد من بعوث ، بل حرص على أن تحظى

كليته بكبار المتخصصين الأجانب فى الدراسات الإنسانية على اختلافها دعاهم لإقامة طويلة أو لزيارة موقتة . وما كان أشبه كلية الآداب حين ذاك بمؤتمر دولى يجمع بين المصرى والأجنبى الفرنسى والإيطالى ، بين الإنجليزى والألمانى ويبدو أننا أصبحنا لا نرحب بهذا التبادل ولا نشجع عليه ، وما أحوجنا إليه بالقدر الذى تستمسك به الجامعات الكبرى فى أوربا وأمريكا .

وطه حسين أخيرا اشتراكى رائد ، قال بالاشتراكية فى وقت لم يكن الكلام عنها مباحاً ولا مسموحاً به ، وكان لكتابه « المعذبون فى الأرض » صدى امتد إلى الحياة البرلمانية وأثير حوله ما أثير من سؤال واستجواب ، ونقد وتجريح ولو اتسعت آفاقنا لصفقنا له فى حينه ، وأعددنا العدة لإشتراكية عملية حقة ترعى حقوق الإنسان وتقدسها ، وتحقق متطلباتها ، ولا تزال جملته المشهورة حول مجانية التعليم تردد على الألسن ، ومؤداها أن التعليم كالماء والهواء وينبغى أن يوفر للجميع . وأخشى ما أخشاه أن تكون هذه الجملة قد فهمت على غير وجهها ، وطبقت تطبيقاً غير سليم ، لقد كان طه حسين يريد بالتعليم أن يكون نقياً نقاء الماء العذب المعد للشرب وصافياً صفاء الهواء الطلق الصالح للتنفس أما أن تكدس الأعداد تكديساً وتملأ الفصول ملئاً لا يسمح بإعداد موهبة ولا يعين على خلق طاقة ، فهذا لم يقصد إليه طه حسين بحال .

إن لطه حسين جوانب شتى ، فهو أديب وقصاص ، باحث وناقد ، رائد من رواد الفكر والثقافة ، لغوى ومجمعى ، عميد ووزير ، صحفى وسياسى ، وله فى كل جانب من هذه الجوانب خلق وابتكار ، وآراء ونظريات ، وأنا على يقين من أنكم ستوفون فى ندوتكم هذه كثيرا من هذه الجوانب ، وتقولون فيها كلمتكم الحقة والمنصفة ، وكلى رجاء أن تجمع بحوثكم ودراساتكم فى كتاب يقدم للناس ، ويفيد منه من لم يشتركوا معنا ومن لم يشهدوا حفلنا .

ولا يفوتنى قبل أن أختم كلمتى هذه أن أتوجه باسم زملاء طه حسين وإخوانه بالشكر الخالص للسادة العرب والمستعربين الذى تفضلوا بالاشتراك فى هذه الندوة وصبغها بصبغة دولية ، وهم من عشاق طه حسين ومحبيه الذين حرصوا على أن يعربوا عن آية من آيات الوفاء والتقدير .

والسلام عليكم ورحمة الله .

طه حسين المجمعى

قضى طه حسين فى مجمع الخالدين ثلث قرن تقريبا كان لى حظ مصاحبته فى معظمه ، دخله فى نوفمبر من عام ١٩٤٠ ، وبقى به إلى أن لقى ربه فى نوفمبر من عام ١٩٧٣ . دخله فى زمرة من كبار الخالدين ، هم : لطفى السيد ، وعبدالعزيز فهمى ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، وهيكل ، وعلى إبراهيم ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وعبد القادر حمزة ، عشرة كاملة يعدون حقاً فى مقدمة البناة والمشيدين ، دخله ولما يمض على إنشائه بضع سنوات ، فلم يكن قد استقر له عرف ولا اتضح له تقليد وشاء مع هذا المجمع الكريم أن يدعم أسسه ، وأن يعيد النظر فى خطة عمله . فوضعت له لائحة داخلية جديدة تعتبر نبراساً لما نسير عليه حتى اليوم ، وكونت لجانه المتخصصة . وأثيرت طائفة من المشاكل الكبرى التى تتصل بمتن اللغة ، ونحوها ، وتيسير كتابتها ، ورسم حروفها وبعثت فى المجمع حركة تحاول أن تنهض فى غير طفرة ، وأن تجدد دون عدوان على أصول اللغة . ولا شك فى أن هذه المرحلة فى تاريخ مجمعنا تعد بداية نهوض ملحوظ ، وفاتحة عصر ذهبى أسهم فيه طه حسين بعقله وقلبه ، بلسانه وقلمه ، بإيمانه وحماسه ، بحميته ونشاطه .

ولقد كان على بينة من نظم الهيئات والمجامع العلمية واللغوية الكبرى ؛ يسترشد بها ، ويأخذ عنها ، وكثيرا ما نوّه مع أستاذه لطفى السيد بالأكاديمية الفرنسية وما استقر لها من نظم وتقاليد . وكان جامعياً حقاً يؤمن بالبحث والدرس ويعول على التخصص ، ويعتد بالمتخصصين . فربط المجمع بالجامعيين وعزز الاستعانة بالأساتذة والخبراء . وأيد ما وسعه استقلال المجمع ماليا وإداريا ، وقد كان يوم أن دخله مجرد فرع من فروع وزارة المعارف يتبعها فى ميزانيته وموظفيه ، ولم يلبث أن أصبح هيئة مستقلة فى شئونها المالية والإدارية ، ولرئيسه فى ذلك سلطة الوزير . وفى مناسبتين متلاحقتين شاء أن يكون للمجمع مطبعة خاصة يشرف عليها وتضطلع بمطبوعاته ، وعرض عليه فعلا مطبعة دار الكتب مرة ، ومطبعة الكاتب المصرى مرة أخرى ، ولو أخذ مجمعنا بهذا العرض

الكريم لتفادى كثيرا من صعوبات الطبع والنشر التى تصادفنا كل عام . وأملنا كبير فى أن تتوفر للمجمع مطبعة حديثة ملائمة فى مبناه الجديد ، وكم كان فقيدنا الكريم شغوفا بأن يرى هذا المبنى الذى دعا إليه غير مرة ، ورأى فيه ما يحقق لمجمع الخالدين مظهرا من مظاهر مكوناته .

وطبق طه حسين لأول مرة سنة استقبال المجمعيين الجدد خير تطبيق . وتقضى هذه السنة بأن تعقد جلسة علنية يضطلع بها اثنان على الأقل : عضو قديم يستقبل باسم المجمع زميله الجديد ، ويتولى هذا الزميل الحديث عن العضو الراحل الذى حل محله ، وفى ثنايا الحديثين أدب وحكمة ، وعلم وفلسفة . ولطه حسين كلمات استقبال خالدة ، أولاها تلك التى استقبل بها صديقه عبد الحميد بدوى وقد انبعثت من القلب ، فنفذت إلى نفوس السامعين جميعا ، وتلتها كلمات أخرى ليست أقل روعة فى استقبال تيمور ، وتوفيق دياب ، والأستاذ توفيق الحكيم وفضيلة الشيخ الباقورى . والحق أن هذه الكلمات قطع من الأدب الرفيع ، ولوحات أخاذة تصور أصحابها تصويرا دقيقا ، وتكشف عن بعض الأعلام فى حياتنا الحاضرة . وما أجدرها أن تنشر بين الناس ، وأن ينعم بقراءتها الطلاب والدارسون .

والخالدون دائما بين استقبال ووداع ، « سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » . وبقدر ما يحفلون باستقبال الوافدين ، يحرصون على أداء واجبهم نحو الراحلين . وقد اضطلع طه حسين بتوديع أربعة من الخالدين هم على التوالى : عبد العزيز فهمى ، وهيكل ، وعبد الوهاب عزام ، ولطفى السيد . عاشرهم جميعاً ، وعرفهم عن قرب ، فكان أقدر المجمعيين على الوفاء بحقهم . وكانوا فوق هذا من أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى قلبه . وإنا لنحس فى تأبينه لهيكل بحرقة الصديق ، وهو يتأسى بقول الشاعر :

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليـل يكر عليهم ونهار

وفى تأبينه للطفى السيد ، وكان منه بمثابة الإبن من أبيه يتأسى بقول آخر :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مولود وكل ذى أب يتيم .

ويوم أن فكر المجمع فى الاتصال بجمهور المثقفين، نظم سلسلة من المحاضرات العامة دعا إليها طائفة من العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات ، وفتح فيها باب التعليق والتعقيب . وكان طبيعيا أن يفتتح طه حسين هذه السلسلة ، وتخير لحديثه « مشكلة الإعراب » ، وهى مشكلة شكا منها قديما بعض الخلفاء والأمراء ، بله العامة والدهماء . وأشهد أن طه ، وقد سمعته كثيرا محدثا ومحاضرا ، لم يقع فى لحن قط ، وإن لجأ إلى التسكين أحيانا . ولكنه سبق الاشتراكيين جميعا فى الدعوة إلى مجانية التعليم ونشر الثقافة الشعبية ، وكان يشفق على النشء وشباب المتعلمين من فلسفة النحو وصعوباته ، وكثيراً ما دعا إلى تيسيره . وقد استجابت وزارة المعارف لهذه الدعوة ، ورغبت فى تذليل هذه الصعاب وفى عام ١٩٣٠ شكلت لذلك لجنة كان طه حسين أحد أعضائها ، وانتهت إلى طائفة من القرارات التى لا تمس أصلا من أصول اللغة . وحرصت الوزارة على نشرها بين العلماء والمتخصصين ولم تخل من نقد وملاحظة . وبعد عشر سنوات أو يزيد ، أحيلت على مجمع اللغة العربية الذى عنى بها عناية خاصة . فدرست طويلا فى لجنة الأصول ، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثمانى جلسات ملئت بالأخذ والرد ، والتحليل والتعليل ، وأبلى طه حسين فى شرحها وتوضيحها بلاء حسنا ، ثم أقرها المؤتمر فى تعديل يسير ، ودون أن أدخل فى تفاصيل هذه القرارات ، أود أن أقول إنه ليس من بينها ما يؤدى إلى تغيير جوهرى فى أصول اللغة ، بل هى مجرد محاولة للتخفيف والتيسير ، وتنصب أساسا على تحديد ما ينبغى تقديمه لصغار الناشئين ، ودعا المجمع إلى وضع كتب مدرسية على أساسها تحت إشرافه ، وأعلن طه حسين ، وهو المؤمن دائما بما يدعو إليه ، أنه مستعد للاشتراك فى هذا التأليف . ومع هذا أهمل الموضوع مرة أخرى ، وبقى فى طى النسيان نحو خمس عشرة سنة . ولم يحرك إلا عام ٦١ دون علم المجمع أو عرض الكتب المدرسية عليه . وكم صارحنى طه ، رحمه الله ، أنه يخشى فشل التجربة ، لأنه لم يعد لها الإعداد اللازم ، وهذا ما حدث فعلا .

سيداتى ، سادتى :

هذا موقف من مواقف طه حسين الإصلاحية والمجمعية إزاء أمر آمن به ودعا إليه ، وله مواقف أخرى لا يتسع المقام لسردها ، ويكفى أن أشير إلى اثنين منها . ويتصل أولهما بالمصطلح العلمى ، وللمجمع فيه جهد عظيم ومتصل . وقد حاول المجمعيون فى البداية أن يضعوا بأنفسهم مصطلحات للحقائق العلمية المختلفة ، وربما لجأوا إلى بعض الألفاظ الغريبة والمهملة ، دون اعتداد باستعمال المتخصصين وما اصطلحوا عليه . وهذا ما أنكره طه حسين ، ودعا إلى البحث أولا عن استعمال أهل الفن والصنعة ، وللعلم لغة يعرفها أهله وواجب المجمع أن يستمع إليهم ، وأن يصدر عنهم ما دامت استعمالاتهم لا تتعارض مع أصول اللغة ، بل عليه أن ييسر مهمتهم وأن يفسح صدره لاجتهادهم . ولا بأس من التعريب إن دعت إليه ضرورة ، وبخاصة تلك الألفاظ التى ترجع إلى أصل لاتينى أو يونانى احتفظت به اللغات العالمية الكبرى ، والعلم لا وطن له . وهذا ما يسير عليه المجمع اليوم ، ومن الخطأ أن يظن أنه مصنع ألفاظ أو دار لوضع مصطلحات .

وكان طه حسين كبير الرجاء فى أن ينجز المستشرق الألمانى فيشر مهمته ، وأن يخرج « المعجم التاريخى » الذى تعاقد مع المجمع عليه . ولكن مع الأسف حالت الحرب العالمية الثانية دونه ومتابعة السير ، وعاجلته المنية بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها بقليل . فلم يكن بد من أن يتولى المجمع الأمر بنفسه ، وأن يعد له عدته ، ورأى أن يستبدل « بالمعجم التاريخى » ما سماه « المعجم الكبير » وألف له لجنة خاصة حرص طه حسين على أن يكون مقررها . وقد زاملته فيها . ووقفت على ما أنفق فى سبيل المعجم الكبير من وقت وجهد ، ولم تصرفه الوزارة يوم أن اضطلع بأعبائها عن متابعة تأليفه ، وفى عام ٥٦ استطاع أن ينشر منه جزءا فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير عده مجرد تجربة دعا المتخصصين فى اللغة من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يمكن أن يلاحظوه عليها . وقد رسمت هذه التجربة المنهج ، وحددت الغاية ، وكانت الدعامة الأولى لهذا المؤلف الطويل النفس . ولولا المرض لتابع طه حسين السير ، واستمر فى تحمل هذا العبء الثقيل .

* * *

تلكم نماذج من ثمار طه حسين المجمعى ، وسيبقى ذكره دائما بين الخالدين .

مع طه حسين

عشت معه زمناً غير قصير ، وإن لم أكن قد لقيته بعد ، يوم أن قامت معركة الشعر الجاهلى ، ويالها من معركة ! فقد كانت حامية الوطيس ، اشتبكت فيها جهات مختلفة ، وتألبت طوائف متعددة ، وهى ولاشك حدث هام من أحداثنا الثقافية فى بدء العشرينيات من هذا القرن . لم تقف عند الخاصة ، بل امتدت إلى العامة ، وكانت مثار حديث فى المجالس والأندية . وبلغت فيها الخصومة أشدها ، والحملة أقصاها ، إلى حد أن رمى صاحب الشعر الجاهلى بالخروج على الأدب واللغة ، بل على الدين . وإمعاناً فى النكاية أثير موضوعه فى مجالسنا النيابية الناشئة ، وأريد أن يحاسب المسئ على إساءته ، وقيض الله للموقف حين ذاك وزيراً للمعارف انتصر لحرية الرأى أولا ، وترك للمتهم البرئ أن يدافع عن نفسه بلسانه وقلمه . وقد فعل ، وخلف لنا فى هذه القضية صحائف فيها أدب رفيع ، وحجة بالغة ، وجدل مفحم . وشاءت الأقدار أن يصبح خصم الأدب واللغة عميداً للأدب فى العالم العربى جميعه ، ووزيراً للمعارف ، ورئيساً لمجمع اللغة العربية . ويوم أن انتقل إلى جوار ربه عد بطلا شعبياً ، وسارت الأمة كلها وراء نعشه ، وخطر ببالى وأنا سائر فى جنازته ذلك التباين التام بين الأمس واليوم ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

والتقيت به لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بهولندا عام ١٩٣٢ ، وكنت لا أزال طالباً بجامعة باريس . ورغبت فى أن أشهد هذا المؤتمر الذى شدت له مصر الرحال ، وأوفدت إليه جمعاً كريماً من رجال العلم والأدب ، وعلى رأسهم سفيرنا فى إنجلترا وهولندا ، ولا أظننا حفلنا قط بمؤتمر المستشرقين مثلما صنعنا تلك المرة ، وما ذاك إلا لأنا كنا نحمل إليه اقتراح « حروف التاج » التى عنى بها الملك فؤاد عناية خاصة . وكانت مظاهرة استلفتت نظر علماء الاستشراق على اختلافهم ، ولكن لم يعد صداها تلك اللحظات التى عرض فيها هذا الاقتراح . ومشكلة الكتابة العربية أوسع بكثير من « حروف التاج » ،

وأشهد أن حديثى مع طه حسين لم يدر حولها مطلقاً ، ولا أظنه كان مؤمناً بها . والذى تحدثنا فيه بخاصة هو ربط الثقافة الفرنسية بالثقافة العربية ، وشعرنا بحاجاتنا الماسة إلى شباب يجيد العربية والفرنسية معاً ، كى يتم التبادل على وجه أكمل . وإذا كنا قد شعرنا بذلك فى أول العقد الرابع من هذا القرن ، فإنا نحس اليوم أنا لم نخط خطوات تذكر فى هذه السبيل ، بل بالعكس نحن فى ضعف زائد ومستمر .

وما أن عدت من بعثى عام ١٩٣٥ حتى دعيت للتدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والتقيت بطه حسين للمرة الثانية ، وبقيت على اتصال به منذ ذلك التاريخ . وإذا كانت عضوية مجلس الشيوخ قد شغلتنى خمس عشرة سنة فيما بين عامى ٣٧ ، ٥٢ ، فإنها لم تصرفنى عن الحياة الجامعية بحال . وأعتقد أن العقد الرابع من هذا القرن كان من أزهى عصور جامعة القاهرة ، تأكد فيه استقلالها ، واستقرت شيئاً فشيئاً تقاليدها . وكانت كلية الآداب بوجه خاص رائدة فى وضع هذه التقاليد ، ورمزاً حياً لهذا الاستقلال . وقد أبلى فى هذا طه حسين بلاء حسناً ، وناصره أستاذه وراعيه منذ البداية لطفى السيد مدير الجامعة . ورغب رغبة أكيدة فى أن تكون آداب القاهرة ، وهو أول عميد مصرى لها ، على غرار كليات الآداب فى الدول العظمى ، فإلى جانب اللغات الحية استمسك باللغات القديمة : شرقية كانت أو غربية ، كالسريانية والعبرية ، واليونانية واللاتينية ، واستعان على ذلك بالمختصين من الأجانب ، وأعد العدة للمستقبل بمن أوفدهم إلى الخارج من شباب الجامعيين للتمكن من هذه اللغات . ولاحظ أن المدرسة الثانوية القديمة لاتنى بحاجات النهوض والتقدم ، وليس فى خططها ولا برامجها ما يمكنها من الإعداد للتعلم الجامعى ، وفكر فى أن تكون للجامعة مدارس خاصة تعد لها ، ولعل هذا هو الذى دفع إلى إصلاح التعلم الثانوى الذى تقرر عام ١٩٣٥ .

وكان مؤمناً الإيمان كله بأن العلم لا وطن له ، وأن الثقافة الإسلامية إبان نهضتها قامت على الأخذ والعطاء فى غير ما تحيز ولاتحزب ، « والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها » . ولذلك سعى سعياً حثيثاً فى أن يوفد إلى الخارج من أبناء كلية الآداب أكبر عدد ممكن ، لكى ينهلوا من حياض العلم والمعرفة .

ولاشك فى أن هذا الرعيل من أبنائه وتلاميذه هو الذى تابع السير وحمل الأمانة إن فى الجامعة أو خارجها . وكم كان يعتز بمبعوثيه ويتودد إليهم ، ويحرص على أن يلقاهم إن مر بالبلد الذى يعيشون فيه . وما نشكو منه اليوم من فقر أو نقص فى التخصصات المختلفة ، إنما يرجع إلى أنا لم نلتزم هذه السياسة ، ولم نتابع السير فى هذا الطريق ، برغم توسعنا فى التعليم الجامعى . ذلك التوسع الذى يتطلب عدة أقوى وسلاحاً أمضى . ورحم الله لطفى السيد الذى كان يقول : نحن فى حاجة ماسة إلى قيادات حازمة حكيمة ، والجامعة هى المكان الوحيد لإعداد هذه القيادات .

ولم يقنع طه حسين بمن أوفد من بعوث ، بل حرص على أن تحظى كليته بكبار المتخصصين الأجانب فى الدراسات الإنسانية على اختلافها . فدعا نفراً من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ، ومن الأدباء وأساتذة اللغات القديمة والحديثة ، ومن المؤرخين والجغرافيين ، دعاهم لإقامة طويلة أو لزيارة موقتة . ومنهم من كان يخاطب طلابنا بلغتهم ، وأغلبهم كانوا يلقون دروسهم بالفرنسية أو الإنجليزية ولم يعز على هؤلاء الطلاب أن يتابعوا الدرس ، وأن يفيدوا منه . ويسوءنى أن أقرر أن عامة شباب اليوم لايقوون على ذلك ، وزادهم من اللغات الأجنبية جد ضئيل ، وليس فى وسع الجامعة أن تتدارك كل مافات المدرسة الثانوية . وما كان أشبه كلية الآداب حين ذاك بمؤتمر دولى يجمع بين الشرق والغر ، بين الفرنسى والإيطالى ، بين الإنجليزى والألمانى ، وأريد بأقسام اللغات الأجنبية خاصة أن تغذى بواحد أو أكثر من الأساتذة الناطقين بها الذين ربوا عليها ، وفقهوا أدبها وتاريخها . وربما نكون قد توسعنا فى هذا بعض الشىء أو لم نحسن الاختيار أحياناً ، ولكن لاشك فى أن هؤلاء الأساتذة الأجانب كانوا همزة وصل نافعة ، ومصدر غذاء جديد ، لهم علمهم وتجربتهم ، ومن الخير أن نفيد من مناهجهم البحث والدراسة . ويبدو أنا لانرحب الآن بهذا التبادل ولا نشجع عليه ، وما أحوجنا إليه بالقدر الذى تتمسك به الجامعات الكبرى فى أوروبا وأمريكا .

* * *

تلك صور من مواقف طه حسين وآرائه ، وبعض جوانب من مظاهر نشاطه ، ومجال القول فيه ذو سعة ، ولن يقف الحديث عنه عند ما نكتب وننشر اليوم ، بل سيبقى مابقى أثره وإنتاجه .

طه حسين ومشكلة النحو

أخذ طه حسين نفسه بضروب من الإصلاح والتجديد فى ميادين الأدب واللغة ، والتربية والتعليم ، وأنجز منها ما أنجز ، وعز عليه ما عز . وقد عاش مع النحو العربى منذ شبابه الباكر درسه مع أقرانه فى الأزهر تلك الدراسة الطويلة المتصلة ، وشغل به كثيراً وإن كان درس المرصفى فى الأدب أحب إلى نفسه . ثم أوفد إلى باريس ، وكان لابد له أن يدرس اللغة الفرنسية ، وأن يتعمق فى درسها ، وأضاف إليها شيئاً من اللاتينية واليونانية . وأتاح له هذا أن يقارن بين نحو العربية وأجرومية بعض اللغات الأخرى ، وبخاصة أجرومية اللغة الفرنسية . وبعد أن عاد من بعثته إلى مصر استوقفته الخصومة الثائرة بين أنصار العامية ورجال الفصحى ، وأدرك ما للنحو من شأن فى ذلك ، وأحس بالضرورة الماسة إلى إصلاحه وتيسيره .

ولاشك فى أن النحو العربى حظى بعناية لم يحظ بها نحو فى لغة أخرى ، نشأ فى أخريات القرن الأول الهجرى ، ونما وتكون فى القرنين الثانى والثالث ، واستمر يبسط ويفصل فى القرون الخمسة التالية . تعددت مدارسه ، وتعاصرت أو تلاحقت ، تآلفت تارة أو تعارضت تارة أخرى ، تأثرت دون نزاع بما حولها من دراسات فى الفقه والكلام ، والمنطق والفلسفة ، ووضعت فى النحو كتب شتى : بين منظوم ومنثور ، بين متن وشرح ، وسما بعضها إلى مرتبة الأمهات كـ « الكتاب » « لسيبويه ، » و « الألفية » لابن مالك ، « والمغنى » لابن هشام . أولع به خاصة الخاصة ، فوقفوا عليه حياتهم ، وتفننوا فيه ما وسعهم . وامتد النحو إلى الدراسات الإسلامية الأخرى من فقه وكلام وأدب وبلاغة ، فاختلط بها وامتزج فيها . ونستطيع أن نقرر أن الدراسات النحوية كادت تستوعب النشاط الفكرى والثقافى فى المعاهد العلمية العربية الكبرى طوال القرون الستة الأخيرة .

وقد غلا النحاة فى فلسفة النحو كثيراً ، أو ما سمى ميتافزيقا النحو ، أولعوا بنظرية العلية وهى نظرية فلسفية فى أساسها ، وأسرفوا فى ذكر العلل

وأنواعها ، واستخدموا العلة الواحدة فى إثبات الشيء وضده . ووقفوا طويلا عند نظرية العامل ، وهو ضرب من العلة . وتوسعوا فى « التوجيهات والألغاز » النحوية ، وعقدوا بعض القواعد التى يصعب استيعابها . ويقال إن الكسائى وهو شيخ الكوفيين ، مات وهو لايحس « نعم وبئس » ، وأن تلميذه الفراء فارق الدنيا وفى نفسه شيء من « حتى » اللهم إلا إن كان من تحامل البصريين . على أنا لانزال نشكو حتى اليوم من العدد وتمييزه ، ولا النافية للجنس أو للوحدة ومن بابى التنازع والاشتغال .

ولم تسلم هذه الفلسفة وهذا التعقيد من النقد قديماً ، فلاحظ ابن حزم أن « علل النحو فاسدة » ودعا ابن مضاء الأندلسى إلى إلغاء نظرية العامل ، ونشر كتابه « الرد على النحاة » عام ١٩٤٧ ، وحرص طه حسين على أن يلقى عنه كلمة فى الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية ، معلناً أن فيه ما يؤيد وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده . وسبق لابن تيمية أن خطأ سيبويه فى عشرات المسائل ، وخالف ابن قيم الجوزية فى كتابه « بدائع الفوائد » علماء النحو والصرف مخالفة صريحة .

ولم يكن بد لطه حسين أن ينكر هذه الفلسفة لأنها لا تلائم العصر ، ولا تتفق مع سياسة « التعليم للجميع » ، ودعا إلى إصلاح النحو وتيسيره على شباب المتعلمين . وشاءت الأقدار أن يقوم الدكتور بهى الدين بركات على أمر وزارة المعارف عام ١٩٣٠ ، وكان يلمس ما يكتنف تعلم اللغة العربية من صعاب ، فأمر بتكوين لجنة كان طه حسين أحد أعضائها لتيسير النحو واقتراح قواعد جديدة على ألا تمس أصل من أصول اللغة . ومضت اللجنة فى عملها ، وانتهت إلى طائفة من المقترحات التى تخلص النحو من فلسفته ، وتقدمه إلى النشء فى صورة سهلة ميسرة . والأصل فى الأجرومية أن تكون ذات طابع محلى تعليمى ، بعيد عن الفلسفة والتعمق ، والغموض والتعقيد . واستطاعت اللجنة أن تحذف التفاصيل التى لا داعى إليها ، وأن تقتصد فى المصطلحات وما أكثرها ، وصوبت إلى صميم القواعد النحوية من تكوين الجملة وأجزائها ، وهونت من أمر الإعراب ، وهو عقدة العقد ، وصدرت فى كل ما ذهبت إليه عن قواعد مقررة وآراء سابقة ، فلم تخرج — كما طلب إليها — على أصل من أصول اللغة ،

ولم تغير فيما اتفق عليه النحاة إلا بمقدار ، وتخيرت من مذاهب القدماء أقربها إلى الفكر الحديث ، وأيسرها على الناشئين . وبدا النحو الذى اقترحته أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية أو الإنجليزية . ومع هذا أبى التغيير الوزارى إلا أن تهمل مقترحاتها ، وأن تبقى مطوية فى وزارة المعارف عشر سنوات أو يزيد .

ولم تنشر إلا يوم أن أحيلت على مجمع اللغة العربية ليدلى فيها برأيه ، وقد عكف على درسها طويلا ، فتفرغت لها لجنة الأصول زمناً ، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثمانى جلسات . ودافع عنها طه حسين فى صدق وإيمان ، أراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ . فدعا إلى تكوين لجنة لتأليف كتاب تطبيقى لهذه المقترحات ، وأظهر استعداده للاشتراك فى هذه اللجنة ، بل ما كان يرفض أن يضطلع بالعبء وحده . ولكن وزارة المعارف لم تحرك ساكناً ، برغم توجيه نظرها مرة ثانية إلى قرارات التيسير فى مؤتمر الدورة الخامسة عشرة ، وبقى الموضوع فى طى النسيان نحو عشر سنوات أخرى .

وفى جلسة علنية من جلسات المجمع شاء طه حسين أن يعرض مشكلة النحو على جمهور المثقفين ، وقد دعت إلى ذلك وزارة المعارف من قبل . فألقى عام ١٩٥٥ بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع محاضرة عنوانها « مشكلة الإعراب » ، وشهدها جمع من كبار العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات . ودعا فيها إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معاً ، وقال : « إن علم النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسى ، لأنى أجد لذة فى قراءة الكتب النحوية المعقدة — على ما فيها من فلسفة وتعقيد — مثلما أجد عند قراءتى لشعر رائع لجرير أو لبشار » . ولكن « إذا كان هذا النحو مستحباً إلى الأخصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات ، فمن الحمق كل الحمق أن يفرض على الشباب فى القرن العشرين » أقول من الحمق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب بتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتوائه ، لأن ذلك لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث . ولابد من تيسير النحو تيسيراً يتيح للشباب أن يتعلم العربية فى يسر وفى غير عنف . ولم يفته أن يشير إلى أن المشروع الذى

أقره مجمع اللغة العربية في بهذا الغرض ، « وهو نائم فى وزارة المعارف منذ أعوام ، ولايزال نائماً إلى الآن فى وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه » .

والواقع أن فى هذا المشروع تيسيراً ملحوظاً ، فإنه يرى الاستغناء عن الإعراب التقديرى والمحلى ، وعن التفرقة بين علامات الإعراب الأصلية والفرعية ،وعدها كلها علامات إعراب .وصرف النظرعن الضمائر المستترة وجوباً وجوازاً ،وعد الضمائر البارزة المتصلة حروفاً دالة على نوع المسند إليه أوعدده ، ولم ير ضرورة للنص على عائد الموصول . واعتبر التعجب ، والتحذير والإغراء ، ونحوها ، تراكيب تشرح على أنها أساليب ، دون وقوف عند تفاصيل إعرابها . واكتفى من الصرف بتصريف الفعل وصوغ مشتقاته ، وفى الاسم بالتثنية والجمع . ولاحظ طه حسين بحق أنه ليس فى هذا ما يغضب الله ورسوله ، ولا ما يضير لغة القرآن فى شيء . وعندما أنزل القرآن لم يكن النحو موجوداً ، وقد تلاه المسلمون قبل أن يعرفوه ، ولا يزالون يتلونه اليوم دون تفكير فى القواعد النحوية ، ويعدونه فوق النحو والصرف معاً ، والنحاة بصنعتهم هم الذين حاولوا أن يطبقوا قواعدهم على ألفاظ القرآن وجمله ،وربما عز عليهم ذلك أحياناً . ومشروع التيسير فى حقيقته لايلغى علم النحو القديم ، وإنما يكل أمره إلى الاخصائيين والمتفرغين ، ولهم أن يكتبوا فيه ماشاءوا ، وأن يبحثوا ويتعمقوا . أما النشء فرفقا به ، وحرصاً على وقته وجهده ينبغى أن يعلم العربية من أيسر سبيل ، ونحن نريد له أن يتعلمها فى الحقل والمصنع ، فى القرية وفى المدينة على السواء .

وحاولت فعلا وزارة التربية والتعليم عام ١٩٦١ أن تضع مشروع تيسير النحو موضع التنفيذ ، ومضت فى ذلك نحو عامين . فوضعت فى النحو كتب جديدة على أساسه ، ولم تعرض على المجمع كما كان متفقاً عليه ، ولم يشترك فى وضعها أحد من أعضائه . وبدأ التلاميذ يتعلمون النحو الميسر ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سوريا أيضاً ، وكم كان طه حسين معنياً بهذه المحاولة ، تابعها عن قرب ، تمنى لها التوفيق ، وود أن لو استطاع أن يعززها ، ودفع زميل الشباب أحمد حسن الزيات إلى أن يساندها ولأمر ما عدل عنها ، وأغلب الظن أن فريقاً من المعلمين لم يتهيأ لتدريس النحو الميسر تهيؤ التلاميذ لتعلمه ، ونشهد

اليوم شيئاً شبيهاً بذلك فيما يتعلق بتدريس الرياضة الحديثة . وإذا كان فى الكتب التى وضعت عيوب فـفى الإمكان تلافيها ، والمهم هو الإيمان بفكرة التيسير والعمل على مقتضاها .

والزمن يسير ، ولابد من متابعة سيره . ونحن لانزعم مطلقاً أن النحو وحده هو السبيل لتعلم اللغة وجل ما يراد منه أن يقوم الألسنة ويعصمها من الزلل . وأهم منه أن يتعلم الشباب اللغة نفسها ، يتعلمونها فى البيت والمدرسة ، فى لغة الخطاب والقراءة ، كما هو الشأن فى اللغات الحية الأخرى . يتعلمونها لافى دروس النحو والبلاغة فحسب ، بل فى دروسهم جميعها . وواجب علينا أن نوفر لهم وسائل القراءة السهلة الممتعة فى أوقات فراغهم . فنعد لهم من الكتب ما يتلاءم مع مراحل سنهم المختلفة . وفى كثير من المدارس الأجنبية مكتبة خاصة لكل فصل ، فيها ما يتناسب مع سن تلاميذه ، وهى موضوعة تحت تصرفهم يقرءون فيها أو يستعيرون منها ما يشاءون . وتلك قراءة مبعثها الرغبة لا الرهبة ، وهى من أقوى المؤثرات فى إتقان اللغة وإحسان العلم بها والتصرف فيها .

وفى صراحة ينبغى أن نجاهر بأن شبابنا بدءوا يستثقلون الفصحى ويبعدون عنها عاماً بعد عام ، وعلينا أن نحببهم فيها ، وأن نقربها إليهم ، فنزيل منها الصعاب المتوهمة ، فضلا عن الحقيقية ، وإلا فقدنا الجولة وانقطع بهم الطريق . ولانزاع فى أن النحو لغير المتخصصين ليس علما يقصد لذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، وجدير بنا أن نقف بهذه الوسيلة عند أضيق الحدود الممكنة . فندع جانباً فى تعليم النشء الألغاز النحوية ، والآراء المتشعبة ، والاستثناءات الكثيرة . ونقدم للتلاميذ قواعد مستقيمة لا لبس فيها ولا تأويل ، تقتصر على ضبط الحركات ، ولا تتعرض لما لاتتغير صوره . وقد قطعنا فى هذا السبيل شوطاً ، وينبغى أن نتمه ، ولم تضق العربية ذرعاً قط بأى تجديد أو إصلاح . ورحم الله أبا العلاء الذى قال ، وهو الغواص على دقائق اللغة ، لايسخط عليك الله ولا المكان ، إذا كنت لاتدرى لماذا ضممت تاء المتكلم ، وفتحت تاء المخاطب .

أمين الخولى

رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان أمة وحده ، أمة فى قوله ، يدلى بالكلمة فتحفظ عنه ، وتعزى إليه ، ويرسل الجملة فتصير مثلا ، تحيا بحياة الأحداث وتتردد فى شتى المناسبات ، وكان أمة فى علمه له مسلكه الخاص وطريقته المستقلة ، عرف بزيه كما عرف بمنحاه فى الحياة ، يأبى التقليد والمحاكاة ، ويمقت المجاملة والمسايرة فى غير اقتناع ، وكان أولا وأخيرا أمة فى رأية ، يخرج به على المألوف ، ويعارض الشائع والمشهور ، يعتد به ويدافع عنه ، وما أبلغ حجته ، وما أعظم إقناعه .

عرفته أول ما عرفته فى مدرسة القضاء الشرعى ، فكان على قمة الهرم وكنت فى قاعدته : ولكن ثورة سنة ١٩١٩ أبت إلا أن تجمعنا فى سلك واحد وفكنا نلتقى للتشاور والتداول . نعد العدة ، ونهيئ أنفسنا للنضال والجهاد ، لقد خرجنا هاتفين محتجين . وإن أنس لا أنسى يوما قمنا فيه بمظاهرة كبرى لقينا فيها ما لقينا من بطش الجنود البريطانيين وعدوانهم . وكان صوته المدوى ينسى المتظاهرين آلامهم . وكأنى به لا يزال يهتف :

اضربونا بالمدافع — ما لأمر الله دافع .
اضربونا بالرصاص — فالحياة فى القصاص

وتتلمذت له فى درس من دروس الأخلاق . وأشهد أنه لم يكن يعرف حين ذاك لغة أجنبية . ولم ينح بعد منحى فلسفيا . ومع ذلك استطاع بذهنه الوقاد وفطرته السليمة أن يفلسف كتب الأخلاق القديمة ، فيبحث فيها عن أصول ومبادئ ، ويقيمها على أسس ودعائم ، ويصوغها فى ثوب قشيب جذاب ، حتى بدت أشبه ما تكون بالدراسات الأخلاقية الحديثة التى تعنى بالطبائع البشرية ، وتحاول أن ترسم المثل الإنسانية . ومنذ ذلك التاريخ وهو ينفر من الحفظ والتلقين ، ويعنى العناية كلها بقوة الحجة ووضوح الشخصية .

ثم افترقنا لفترة غير قصيرة . واختير ليسهم فى تمثيلنا السياسى الأول فى ألمانيا وإيطاليا وأتيحت له الفرصة أن يرى الغرب بعينه ، وأن يعيش بين

أهله ، وتفتحت أمامه آفاق فسيحة . ولم نلتق إلا عام ١٩٣٥ ، وعلى بساط العلم مرة أخرى ، فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، التقينا هناك لقاء الزملاء ، وكانت أول كلمة قالها لى : ليس شىء أحب إلى الأستاذ من أن يزامل تلميذه . كان يتولى التدريس بقسم اللغة العربية ، وكنت أضطلع به فى قسم الفلسفة وشاءت المصادفات أن يكون بيننا طلاب مشتركون ، فكانوا لا يملون الحديث عن نظراته العلمية وأفكاره الفلسفية . وفى الحق أنه كانت له آراء فى التفسير والبلاغة يعز عليهم أن يكشفوها . وقل من الباحثين من يهتدى إليها . تعينه دائما القضايا الكبرى والمنهج العلمى الدقيق ، ويعرف كيف يبرز ما فى الفكر الإسلامى من أصالة وابتكار . وليته اتجه نحو نشر دروسه جميعها فى البلاغة وعلوم القرآن إنها ولا شك ثروة علمية يعتد بها . ولكنه فيما يظهر كان يؤثر الرسائل الصغيرة التى يعرض فيها رأيا جديدا ، أو يدافع عن قضية معينة .

وقدر لنا أن نفترق ثانية وبعد زمالة دامت سبع سنوات . وكان فراقنا هذه المرة أطول . فلم نلتق إلا سنة ١٩٦١ ، وفى مجمع الخالدين . وهناك استقبلناه فى شوق إليه وتعويل عليه . ويعلم الله أنه حقق آمالنا كلها ؛ قضى معنا خمس سنوات أو تزيد قليلا ؛ فكانت كلها إنتاجا متصلا ونشاطا فياضا : أغدق فيها ما أغدق على المجمع من ثمار ، انضم إلى لجنة الأصول وكان مقررها الذى يحمل رسالتها ويعبر عن رأيها ؛ ولم يمر مؤتمر من مؤتمرات المجمع الخمسة الماضية إلا وله تحقيق فى ترجيح رأى لغوى ؛ أو كشف عن رخصة تيسر أمر العربية على الباحثين والدارسين ؛ وأسهم فى لجنة معجم ألفاظ القرآن وأعد جزءا من أجزائه ؛ ونأمل أن يخرج إلى القراء قريبا ؛ واشترك فى عدة لجان أخرى ؛ فكان له فى لجنة الأدب توجيه وتقويم . وفى لجنة القانون ملاحظات ومقترحات ؛ وكانت لجنة المعجم الكبير ترقب مشاركته وإسهامه، أما المجلس فكان له فيه ركن يعرف به ، ويشع منه ضوءه ، وإذا ما تخلف يوما أحسسنا بغيابه ، ويأبى الله إلا أن أحرم من زمالته ؛ وأن يغيب عنى ذلك الغياب الذى لا رجعة بعده ؛ افترقنا أخيراً وإلى الأبد ؛ وفقدته على غرة وكان ملء السمع والبصر .

أيها الأمناء

إن أستاذكم كان صاحب رسالة ، ولا شك فى أنه لقنكم إياها ، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح . كان ينشد تجديداً شاملا فى المظهر والمخبر ، وأذكر أن مشكلة توحيد الزى شغلتنا معا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة . كان يؤمن بالإصلاح إيمانا جازما ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ، فينصب على العادات والتقاليد، ويشمل الأنظمة والقوانين ، والفكر واللغة . فنادى بإصلاح الأسرة ، وكتب فى إصلاح الأزهر ورسم سبلا فى إصلاح النحو وتطوير اللغة ، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الأعمى ، ويرى أن الدين متين وأن الشريعة سمحة وقد قبلا ويقبلان كل تجديد وإصلاح لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة، ومن آخر مؤلفاته :« المجددون فى الإسلام» . أما مجرد محاكاة الغرب والافتتان ببدعه ومستحدثاته ، فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التى تؤدى إلى الفناء . كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، ويربط حاضرنا بماضينا ويبقى على معالم الحضارة الإسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية .

أيها الأمناء

هذه هى الرسالة ، وإنها لأمانة فى أعناقكم ، وإن فى قيامكم عليها لتخليدا لذكرى أستاذكم فوق كل تخليد .

كارل بروكلمان الببليوجرافى

شهدت حركة الاستشراق بألمانيا ، فى النصف الأخير من القرن الماضى والثلث الأول من هذا القرن ، نشاطاً ملحوظاً قل أن نجد له نظيرا فى بلد أوربى آخر وقام على أمرها جماعة من كبار الباحثين قلبوا الثقافات الشرقية ، على وجوهها وتعمقوا فى درسها ، وكشفوا عن كثير من أصولها ومصادرها ، وعنوا عناية خاصة بالثقافة العربية ، ففقهوا لغتها وتذوقوا أدبها ، وتفهموا علومها وفلسفتها ولم تفتهم جوانبها السياسية والاجتماعية وكانوا فى ذلك مثال العمل الدائب والنفس الطويل لا يدخرون وسعاً ، ولا يملون بحثاً ، يحرصون على أن ينهلوا من النبع الأول ، وأن يصدروا عن الأصول الوثيقة ، لا يتعجلون غاية . ولا يسارعون إلى حكم لم تستبن حجته ، وقد يقفون حياتهم كلها على لون خاص من ألوان الدرس والبحث .

وفى هذا الجو نشأ كارل بروكلمان ولد فى العقد السابع من القرن الماضى وعمر إلى العقد السادس من هذا القرن . تسعون سنة تقريباً قضاها فى دراسة أدب العرب وتاريخهم وحضارتهم . كان يؤمن الإيمان كله بالثقافة العربية قدرها حق قدرها ، وأولع بها ، درسها فى صبر وجلد ، وأخرج فيها طائفة من البحوث القيمة ، فى مقدمتها « تاريخ الأدب العربى » الذى ذاع شرقا وغرباً وخلد اسم صاحبه ولا شك فى أن بروكلمان ، بين المستشرقين المعاصرين ، أكثرهم ذكرا ، وأذيعهم صيتا ، وسر ذلك فيما نعتقد كتابه هذا ، ذلك لأنه بما اشتمل عليه من بحوث ببليوجرافية ، أداة نافعة من أدوات الدرس ، ومشكاة تنير طريق الباحثين . وبروكلمان أديب ومؤرخ لغوى ونحوى ، عالم وببليوجرافى .

* * *

ويعنينا أن نقف قليلا عند بروكلمان الببليوجرافى ، وما أشبهه بكبار وراقى العرب أمثال ابن النديم صاحب « الفهرست » وياقوت صاحب « معجم الأدباء »

والدراسة البيليوجرافية تستلزم اطلاعا واسعا وبحثا مستفيضاً ، وقد عكف عليها بروكلمان نحو سبعين عاما ، جمع فيها ما استطاع من كتب مطبوعة ، وكشف عما اهتدى إليه من مخطوطات ، وضمن ذلك كله كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، الذى نشره لأول مرة فى جزءين عام ١٨٩٨ ثم أضاف إليه عام ١٩٣٧ جزأين آخرين يبلغان ضعف الجزأين الأولين ، وفى عام ١٩٤٢ نشر الجزء الخامس والأخير الذى ينصب على الأدب العربى الحديث . وما إن استكمل كتابه حتى أخذ ينقحه ويهذبه . وفيما بين عامى ١٩٤٣ و١٩٤٧ أخرج مرة أخرى الجزأين الأولين فى غير قليل من التنقيح والتهذيب . ولو مد فى أجله لتابع السير ، وتعهد الأجزاء التالية بالتنقيح والتهذيب .

والأدب عنده مبسوط الدلالة فسيح الميدان ، ويكاد يعادل الثقافة فى مدلولها العام ، ينصب حقاً على النظم والنثر ، ولكنه يذهب بهما إلى كل ما يجود به الفكر والقريحة ، فيصدق على جميع الصور اللفظية التى تعبر عن الخيالات والمعانى ولا يقف مؤرخ الأدب عند بحث الجمال اللفظى والبلاغى فى لغة ما ، بل يعنى بالدراسات الإنسانية والعلمية والفلسفية ولا سبيل له أن يفهم الحياة الأدبية إلا إذا ألم ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والإنسانية ، ووقف على ما يدور بجانبها من بحوث ودراسات .

ففى درس الأدب تاريخ وجغرافيا ، وعلم وفلسفة ، وفقه ودين . وهكذا شاء بروكلمان بكتابه « تاريخ الأدب العربى » فجاء موسوعيا شاملا مستوعبا ، يجد فيه عشاق الثقافة العربية ألوانا من الدراسة والبحث ، ولعل هذا من أسباب ذيوعه وإقبال الباحثين عليه . هذا إلى أن بروكلمان لم يقف فى درسه للأدب العربى عند البحث الموضوعى ، بل شاء أن يضيف إليه قسطا من البيليوجرافيا .
وهنا يعرض لناحية فى الأدب العربى تعالج من قبل على نحو ما عالجها ، وبخاصة ما اتصل منها بالمخطوطات والكتب النادرة ، وقد أعد نفسه لها باطلاعه الواسع وأسفاره المتعددة ، فجمع ما استطاع جمعه من الفهارس المتصلة بالثقافة

العربية ، والمعروفة فى مكتبات الشرق والغرب ، وشاءت الصدف فى أوائل هذا القرن أن يبدأ زميل له هو الأستاذ ريتر فى فتح صناديق مكتبات استانبول وهى حافلة بالتراث الإسلامى ، وقد أفاد منها بروكلمان ما وسعه . وتوافر له نحو ١٦٨ فهرسا من مكتبات العالم أجمع ، عرف كيف يستنطقها ، ويستخلص منها ما اشتملت عليه من أسماء كتب ومؤلفات قديمة . وكان لابد من جلد كجلده ومثابرة كمثابرته ؛ لكى تصبح هذه القطوف دانية ، وتلك المعلومات متداولة بين المتخصصين .

فهو فى حديثه عن أعلام الفكر والأدب العربى لايقنع بأن يعرف بهم ويشرح آراءهم ، بل يحرص على أن يسجل إنتاجهم مخطوطا كان أو مطبوعا ، ويشير إلى الدراسات التى اتصلت بهم قديمة كانت أو حديثة . وبذا نستطيع أن نعد « تاريخ الأدب العربى » دليلا ببليوجرافيا ، بقدر ما نعده كتاب أدب .

ولبروكلمان شأن يذكر فى عالم المخطوطات العربية ، فقد وجه النظر إليها فى كتاب مطبوع متداول ، وعهدنا بها أن تسجل فى فهارس محدودة لا يلجأ إليها إلا نفر قليل من المتخصصين ؛ فكشف عنها الغطاء ، وأدخلها فى ميدان البحث العام .

ومنذ أخريات القرن الماضى اتجهت أنظار المستشرقين نحو التراث العربى وبدئ فى إحيائه ، وقامت فى أوربا حركة لنشر المخطوطات العربية ، ولم تلبث أن نمت فى أوائل هذا القرن . وفى وسعنا أن نقرر أن بروكلمان غذاها بغذاء صالح فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، ووجه بعض الباحثين نحو تحقيق المخطوطات ونشرها ، ولم يقتصر توجيهه على محققى الغرب ، بل أفاد منه أيضا محققو الشرق ؛ فقد أعانهم على تحديد مكان المخطوط ، وبيان رقم سجله فى دار الكتب التى تحتويه . وبصرف النظر عما وقع فيه من أخطاء ، كان بحق هاديا ومرشدا ، وكم من مخطوطات لم يتجه إليها النظر لأول مرة إلا عن طريقه .

ويوم أن فكرت الجامعة العربية فى إنشاء معهد للمخطوطات ، حرصت على أن تستعين ببروكلمان وبكتابه « تاريخ الأدب العربى » ؛ فقد رأت فيه عونا

على حصر المخطوطات التى ينبغى جمعها والكشف عن مظانها . واستقر رأى الإدارة الثقافية بالجامعة عام ١٩٤٧ على ترجمة هذا الكتاب ، وبعثت بذلك إلى مؤلفه مستأذنة أولا وراغبة ثانيا ، فى عونه ومشورته . وقد هزت الفكرة بروكلمان هزا عنيفا وعدها أعظم تتويج لجهوده المتواضعة فى خدمة العربية التى أولع بحبها وأمدته آدابها دائما بلذة ومتاع لم يحظ بهما فى لغة أخرى . وما كان يتوقع أن كتابه سيروق العرب أنفسهم ، وستستعين به الإدارة الثقافية بالجامعة العربية فى تأسيس معهد من معاهدها .

وتبودلت الرسائل بينه وبين الإدارة الثقافية زمنا ، فرسم معها منهج الترجمة ووسائل تنفيذها . واقترح عليه تدارك بعض ما فاته ، وعرضت عليه فهارس مخطوطات مكتبات عربية لم يقف عليها من قبل . وبروح العالم المخلص رحب بها ، وود أن لو أضيفت إلى جهوده البيليوجرافية السابقة . ورغبة منه فى تقديم معونة صادقة والقيام بإسهام أتم وأكمل ، عرض على الإدارة الثقافية أن يقوم هو نفسه بترجمة كتابه إلى العربية ، وبعث فعلا بنموذج من هذه الترجمة ينصب على مقدمة الكتاب ما أشبهه بتأليف جديد منه بترجمة نص قائم . وكأنما شاء أن يتدارك نقصا وأن يستكمل مادة . وليته استطاع أن يتابع ترجمته حتى النهاية . ولم يفت الإدارة الثقافية أن تفيد من هذا النموذج ، ووضعته تحت يد المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار الذى استطاع أن يترجم أجزاء ثلاثة من الكتاب ، نشرت ونفد أولها ، والأمل كبير فى أن تترجم الأجزاء الباقية .

هذا هو كارل بروكلمان فى دراساته البيليوجرافية ولاشك فى أنه خدم العربية خدمة نذكرها ونقدرها ، وقد شاءت جامعة مارتن لوثر بمدينة هالة أن تحتفل فى منتصف سبتمبر الماضى بمرور مائة عام على مولده ، وهو أحد أساتذتها ، ورئيس معهد الدراسات الشرقية بها . ووجهت الدعوة إلى نفر من الباحثين لكى يسهموا معها فى هذه الذكرى ، ولباها عدد غير قليل من مفكرى العرب وأدبائهم ؛ حرصا منهم على أن يشتركوا فى ذكرى باحث أحب العربية فى إخلاص ، وأفنى حياته فى خدمتها ، وكانت هذه الذكرى عامرة بالدرس والبحث . ثلاثة أيام كاملة قضيناها فى درس متصل صباح مساء فى ثلاث قاعات ، خصصت أولاها للأدب واللغة ، ووقفت الثانية على التاريخ ، والثالثة على الفنون والآثار . وكل تلك ميادين كان بروكلمان فيها من الرواد والمتخصصين

والمتخصصين . ونعتقد أن هذه الدراسات ستخرج قريبا للقراء وسينتشر ثمارها بين الناس . ونود فقط أن نشير إلى شئ من جانبها اللغوى ؛ فقد أخذنا بما رأينا من تعلق بعض شباب الألمان باللغة العربية فى جامعتى هالة وليبتزج ، فهم يجيدونها قراءة وكتابة ويحسنون نطقها والتحدث بها أحيانا ، ومنهم من لم يضع قدمه فى العالم العربى بعد ، وكأنما يريدون أن يستعيدوا أيام بروكلمان فى هالة ، وفيشر فى ليبتزج ، ولهذا الشباب دراسات فى فقه اللغة ونحوها لا تخلو من عمق ودقة ، ومنها ما يفتح آفاقا جديدة فى علم اللغة المقارن .

ولم تدخر ألمانيا الديمقراطية وسعا فى العناية بمن وفدوا إليها ؛ استضافتهم نحو أسبوعين ، وأمتعتهم بريفها الجميل ومناظرها الطبيعية الرائعة . وطافت بهم فى كبرى مدنها الصناعية والتجارية ، ومكنتهم من زيارة بعض المتاحف والمعاهد . ويسرنى أن أنوه هنا بسياحة فى مكتبتين : إحداهما مكتبة المخطوطات الشرقية الشهيرة بمدينة جوتة ، والأخرى مكتبة جامعة ليبتزج . وفى هاتين المكتبتين ذخائر ومخطوطات يرجع العهد ببعضها إلى القرن الثانى الميلادى . وفى مكتبة جوتة ، بوجه خاص ، كنوز عربية ما أجدرنا أن نكشف عنها ، ونرسل بعوثا خاصة لدرسها ، وتصوير ما ينبغى تصويره منها ، ونعتقد أن ألمانيا الديمقراطية ترحب بذلك ، وترى فيه سبيلا من سبل التعاون الثقافى الذى تنشده .

* * *

وتخليدا لذكرى بروكلمان رأت جامعة مارتن لوثر أن تنشئ معهدا خاصا يحمل اسمه وتزدهر فيه الدراسات العربية كما ازدهرت على يديه . ولعلها تفكر إعادة طبع كتاب « تاريخ الأدب العربى » ، وإضافة ما كشف عنه من أصول ومخطوطات فى العشرين سنة الأخيرة . ولن يفوت العرب بدورهم أن يسهموا فى هذا التخليد . وأيسر سبيل لذلك أن تتم الجامعة العربية ما بدأت وتستكمل ترجمة هذا الكتاب نفسه .

وفى وسعها أن تضيف إلى هوامشه وملحقاته قدرا من ذخائرها فى معهد المخطوطات الذى كان لبروكلمان شأن فيه .

محمد كامل حسين

(كامل حسين الأديب)

سيداتى ، سادتى :

رحم الله كامل حسين بين الخالدين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه بين الأصدقاء الأوفياء . ولقد عرفته منذ نصف قرن أو يزيد ، وعرفته أديبا قبل أن أعرفه عالماً وطبيباً ، وهذه هى الناحية التى أود أن أقف عندها قليلا ، وعرفته من خلال صحيفة أحدثت ما أحدثت من حركة فى حياتنا الأدبية والفكرية ، وأعنى بها « السياسة الأسبوعية » ، كان يسهم فيها مع قادة النهضة الأدبية المعاصرة حين ذاك . أمثال الدكتور هيكل وطه حسين . واختار لنفسه اسما مستعاراً هو « ابن سينا » ، وسألت عن « ابن سينا» القرن العشرين ، فقيل لى إنه طبيب شاب حصل على بكالوريوس الطب ولما يجاوز الثانية والعشرين ، وما إن أمضى سنتى الامتياز بطب القاهرة حتى أوفد فى بعثة إلى إنجلترة ، ومن هناك كان يزاسل « السياسة الأسبوعية» وينشر فيها بواكير إنتاجه الأدبى ، ولم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة ، بل امتدت إلى « اللغة» ، والبحوث الأدبية ، ولو سمى نفسه « ابن المقفع» ، أو « عبد الحميد» ما عز عليه .

وجمعتنى وإياه مجالس لطفى السيد ، وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة بالعلم والفلسفة ، بالتوجيه والإصلاح . وتمر بنا أمور لها شأنها ، وقل أن نفكر فى تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضى وعدد المستقبل . وما أشبه مجالس لطفى السيد بمجالس «الإمتاع والمؤانسة» ، وإن لم تجد بين المعاصرين من يعنى بها

كما صنع أبو حيان التوحيدى . وكان صوت كامل حسين فى هذا المجلس مسموعا ، وكلامه عذبا ، وتعليقه واضحاً ونقده سمحاً. وكان يعرف منزلته بين العلماء والأطباء . ومع هذا كان حديثه فى تلك المجالس يدور غالباً حول الأدب واللغة والإصلاح والتجديد . ولا أزال أذكر مجلساً منها عقد بقاعة لطفى السيد فى نادى محمد على – نادى التحرير اليوم – على أثر ظهور قصة أديبنا الخالدة :« قرية ظالمة» . وكان بين من شهدوا هذا المجلس عبد الحميد بدوى ؛ وبهى الدين بركات . وما كان أشبهه بحفل تكريم منه بمحاكمة أدبية ، وإن لم يخل من تندر رقيق وخشية وتوجس من أن تثير القصة بعض رجال الدين وقد سبق للحاضرين جميعاً أن قرأوها ، وقدروها قدرها ، وكأنهم كانوا يتوقعون ما ستحظى به من إعجاب وتقدير لدى كبار الكتاب والمثقفين .

وتوثقت صلتى به يوم أن اختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ٥٢ ، وسعدت باستقباله وقلت فيه حين ذلك :« قل أن نجد من يقبل على الثقافة إقباله ويحب القراءة حبه ؛ فلا تكاد تذهب إلى محاضرة عامة فى علم أو أدب أو فلسفة إلا وتراه فى مقدمة المستمعين . ولا يكاد يظهر كتاب قيم فى العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية إلا ويسارع إلى قراءته . وكم ساءلت نفسى كيف يوفق صاحبنا بين هذا وبين أعبائه المتعددة ، فى درسه ، وفى عيادته الخاصة ، وفى سهره على مرضاه فى منازلهم أو فى المستشفيات » .

ولم تقف قراءة كامل حسين عند (الحديث والمعاصر)، بل أبى إلا أن يجمع بين الماضى والحاضر ودون أن أعرض لإلمامه الواسع بالثقافات العالمية الكبرى ، أحب أن أشير إلى تمكنه من الثقافة العربية . عرف أصولها وأحاط بشتى جوانب درسها فى عمق وسعة ،وكون فيها رأيه الخاص . ولا أظن أن من بين أقرانه من عنى بقراءة « المغنى » « والتصريح» فى النحو ، أو من فتش كثيراً فى « القاموس» « واللسان» من كتب اللغة ؟

أما الأدب فله فيه درس وبحث ، ونقد وتعليق ، وحكم ورأى ، وقد وقف طويلا عند المتنبى وأبى العلاء ، وكشف فى مجمع الخالدين عن حسه اللغوى وذوقه الأدبى .

***

والواقع أن كامل حسين يؤمن إيمانا جازماً بأن العربية لغة حية ، كفيلة بأن تؤدى رسالة العلم والحضارة اليوم كما أدتها بالأمس ، وحياة كل لغة بحياة أهلها ، فهم الذين يستطيعون أن يغذوها وينموها ، أن يلائموا بينها وبين حاجات العصر ومقتضياته . هي أداة أساسية من أدوات التفاهم والتبادل . يملكها أصحابها ، ومن العبث أن تملكهم أو أن تتحكم فيهم . وهي ملكية عامة شائعة بين الجميع ولا يقبل اليوم بحال أن تقصر على الخاصة أو على طبقة بعينها وانظروا الحارة التي استقبل بها عام ١٩٤٢ ، في « دعاء الكروان» إذ يقول : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ودون أن تفقد من رونقها شيئا ، إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف معين».

يلمس أديبنا الصراع بين العربية والعامية، ويراه دوراً من أدوار التطور في حياة اللغة ، وعلينا أن نواجهه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتيسير العربية على الناس كتابة وقراءة وتعلماً . وبهذا تحيا وتنتشر ، ويقبل عليها النشء ، وإلا عز عليه أمرها ، واستبدل بها وسائل تعبير أخرى ، ويسهم كامل حسين في هذا التيسير إسهاماً جاداً ، فيعرض للإملاء ورسم الحروف مقترحاً طريقة لكتابة الهمزة ، وأخرى لرسم الكلمات الأجنبية .

ولفت نظره ما في بعض قواعد النحو من غموض أو تعقيد ، واستوقفه بوجه خاص جنس العدد ، وما يستلزمه من تذكير أو تأنيث للفظ العدد نفسه ورأى أن ييسر ذلك بإبقاء اسم العدد على حاله دائما ، مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من» فيقال دون تفرقة : خمسة من الرجال وخمسة من النساء ويذهب بوجه عام إلى أن في النحو توسعاً وفلسفة ، إن لاءمت الخاصة فإنها لاتلائم العامة ، ولابد أن نيسر تعليمه على الناشئين .

وهذا أمر فكرت فيه وزارة المعارف قديما ووزارة التربية والتعليم اليوم؛ فكرت فيه على يد مصلح آخر هو المرحوم بهي الدين بركات ، واقترحت نحواً مدرسياً ميسراً ، وتركت للمتخصصين أن يدرسوا فلسفة النحو ما وسعهم . وعرض هذا الاقتراح على مجمع اللغة العربية ، وأقره في تعديل يسير . ولم يفت أديبنا أن يدلى بدلوه في هذا التيسير ، واقترح ما سماه « النحو المعقول» وبسط قواعده بالقدر الذى ارتضاه .

وكتب اللغة فى رأيه تحتاج إلى تعديل وتنقيح ، فتكتب بروح العصر وفى ضوء التقدم العلمى الحديث ، وتستبعد منها المماحكات اللفظية ، والتعليلات السطحية . ونحن باختصار فى حاجة ماسة إلى معجم حديث مصفى ، حديث فى اختيار ألفاظه ، حديث فى تحديد معانيه . لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحد ، ولا يقبل فيه إلا صيغة واحدة للكلمة . وإلا مصدر واحد للفعل ، وإلا جمع واحد للاسم وتشرح فيه الألفاظ شرحاً دقيقاً واضحاً ، يتمشى مع ما انتهى إليه العلم الحديث .

* * *

يقدر كامل حسين العربية قدرها ، ويعتز بها ، ويريد لها أن تستعيد مجدها وأن تصبح لغة العلم والفن ، وأن تؤدى رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى . ينقد بعض جوانبها ، ولكنه نقد بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد ، وليس ثمة لغة لا مأخذ عليها . وحسه الأدبى لا يقل عن حسه اللغوى . درس الأدب العربى درساً عميقاً ، وحاول أن يطبق عليه المنهج المقارن ، فيقارن أدباء العربية بعضهم ببعض ويقارنهم ببعض الأدباء العالميين . وفى المقارنة تشويق وفتح لأبواب مغلقة .

ولعله لا يسلم بنظرية التحليل النفسى (سيكلوجيا) ، ولكنه لا يرفض أن يطبقها فى دراساته الأدبية . فهو يرى مثلا أن ما فى شعر المتنبى من غموض وتعقيد أحيانا إنما يرجع إلى ما صادفه من خيبة وفشل ، ذلك لأن هذا الشاعر الكبير الذى شغل الدنيا وملأ الأسماع لم يحقق شيئا من أهدافه السياسية والاجتماعية فشاء أن يتخيل فى شعره مشاكل وصعوبات يحاول تذليلها ، فينجح هنا بعد أن فشل هناك . ونقائض الفرزدق ، وقوله الفاحش ، وهجاؤه المقذع حتى لنفسه وأهله ربما كان وليد ضعف وقصور فى الشخصية .

وبعكس هذا سما فى رأيه أدب أبى العلاء بسمو شخصيته ، وهو عنده أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء ، حقا إن نثره وشعره لم يخلوا من مآخذة ؛ ففى سجعه ضعف وتكلف احيانا ، وفى شعره تشبيهات غامضة ، وفى معانيه تكرار ، وفى تعبيراته إسراف

فى بيان ثروته اللغوية . . ومع ذلك يعد إنتاجه من الأدب الرفيع ، لصدقه وقوة تعبيره وأدبه فى الواقع هو كل حياته عاش فيه وله ، وعن طريق اللغة عرف الحياة كلها ، ولا غرابة إذن أن تطغى هذه اللغة على نثره وشعره .

* * *

وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى يجمعها ويتخير أوثقها ، يهذبها وينسقها بحيث تبدو جليلة واضحة . وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألواناً شتى : فى الأدب والتاريخ ، فى العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض ؛ ففى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ،والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع والسياسة ، وكثيراً ما تقود الدراسات الطبيعية إلى ضرب من الميتافيزيقا .

ويترجم لبعض الشخصيات المعاصرة ، فيقف عند أبرز المعالم وأوضح الصفات فلطفى السيد فى رأيه أرسطى صادق فى أرسطيته ولا غرابة فوجوه الشبه بين الرجلين كثيرة : « كلاهما معلم وكلاهما شديدالعناية بالكليات عناية فائقة . وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق والبحث ، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية» . والدكتور على إبراهيم بناء ، «شيد كثيراً » وكأنما عاهد نفسه على ألا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا نشأ له شبيها فى مصر . وكان يرى أن ينشئ أولا ، وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتمم ما أنشأ وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ وعلى الزمن أن يستكمل النقص » .

وكامل حسين ناثر ، ولم أر له إلا قصيدة واحدة تحت عنوان : « لقمان والمريض »وهى من شعر الشباب ، وأرجح أنها لم ترقه وترك الشعر جانباً . ونثره نثر رقة وحضارة ، سهل واضح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا التعبير المعقد . أسلوب مطرد لا علو فيه ولا انخفاض ، حلو عذب يستمد

عذوبته من رقة صاحبه ودماثة خلقه ، يقرب الأفكار البعيدة ، وييسر البرهنة الدقيقة يمقت الصناعة اللفظية والجمل الطنانة ويكره السجع والتكرار . كان معجبا بالفكر المستقيم ، ويعده أكبر نعمة وأكبر لذة فى الحياة ؛ والفكر المستقيم يؤدى عادة إلى تعبير مستقيم .

رحم الله كامل حسين رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء .

زكى المهندس

(زكى المهندس بين المجمعيين)

سيداتى ، سادتى :

يعز علىّ حقاً أن أقف الليلة بينكم مؤبنا « زكى المهندس» ، فقد كنت معه بين عشرة من الخالدين ، دخلوا المجمع سوياً عام ٤٦ ، ثم رحلوا عنه الواحد تلو الآخر ، ولم يبق لى منهم سواه ، وها هو ذا قد جاء دوره ، فلم يتخلف ، وتركنى وحدى ، « وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وأبى هؤلاء العشرة إلا أن أكون المتحدث باسمهم فى حفل استقبالهم وإن كنت أصغرهم أو لأنى كنت أصغرهم ، فتحدثت فى الأمس البعيد باسم زكى المهندس يوم أن دخل المجمع وشاء القدر أن أتحدث عنه الليلة يوم أن رحل ، وما أعظم الفقد ، وما أقسى الحديث ويزيده قسوه أن زكى المهندس كان أوثق الزملاء صله بى . وأطولهم صحبة لى ، وأقربهم إلى قلبى . قضيت معه ثلاثين عاماً كاملة فى هذا المجمع ، نعمت فيها بزمالة كريمة ، كلها ود وإخلاص ورقة وعذوبة ، وسماحة ، وبشاشة لا مطمع فيها ولا مغنم ، ولا تنافس ولا تزاحم ، فلم نختلف يوما ما ، ولم تباعد بيننا الأحداث والتقلبات . وإن بدا شيء من التباين بين أبناء الأسرة الواحدة ، كان زكى المهندس همزة الوصل ونقطة الالتقاء ، ومبعث الرضى . اختلفنا مرة فيمن يكون نائب رئيس المجمع ويوم أن ذكرت اسمه زال الخلاف ، واتفق الجميع .

ويطول بى الحديث إن شئت أن أعرض لزكى المهندس المجمعى ، فقد كان مؤمنا الإيمان كله بأن العربية لغة علم وحضارة ، وأنها حية ومتطورة . وفى وسعها أن تسد حاجات العصر ومتطلباته ، وعلينا أن نيسرها فى مفرداتها وتراكيبها ، فى نطقها وكتابتها ، وأن نتوسع فى ألفاظها وأساليبها . وأشهد أنه من أنصار التيسير والتجديد ، لأنه كان يرى أن اللغة تعبر عن الحياة ، والحياة فى تطور مستمر . والعربية لغة طيعة مرنة ، قد اتسعت — وما زالت تتسع — لكل جديد ، وتصلح للتعبير عن كل مستحدث ، وحركة التطور مطردة ماضية متصلة ، تجرى إلى غاياتها فى سرعة وقوة .

وكان مؤمنا أيضا برسالة المجمع ، حريصاً على أدائها ، فأعطاه فى سخاء ووقف عليه جل جهوده فى سنين طوال « مرحلة النضج والخبرة التامة » مرحلة الشيخوخة الحكيمة المتزنة ، أعطاه علماً وعملا : توجيهاً ورأياً : إشرافاً وإدارة . أسهم فى معظم لجانه ، وأولع بمجلسه ومؤتمره ، وندر أن تخلف عن جلسة من جلسات اللجان أو المجلس أو المؤتمر ، ولم تنقطع صلته قط باللجنة الإدارية التى ترعى نشاط المجمع وسير العمل فيه . وأشرف عدة سنوات على مجلة المجمع ، فجدد نشاطها ، ونوع غذاءها ، وحرص على أن تصدر فى مواقيتها واختير نائباً لرئيس المجمع عام ٦٤ ، وجدد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات . ووقف إلى جانب المرحوم طه حسين رئيس المجمع فى سنى مرضه موقف الولاء والإخلاص . وألححت عليه بعد وفاته أن يقبل الترشيح لرياسة المجمع ، فاستعفى وأبى إلا أن يلقى العبء عن كاهله ، وأشهد أنه لم يضن على برأى أو مشورة ولم يقصر فى عون أو مساندة .

* * *

هذا هو زكى المهندس الزميل والرئيس ، المشرف والإدارى ، أما زكى المهندس العالم والدارس ، فالحديث فيه طويل . وأكتفى بأن أشير إلى موقفه من ثلاث لجان من لجان المجمع كانت أثيرة لديه ، ارتبطت باسمه ، وحببت إليه وما أقساها من لجان ، وأعنى بها لجان : اللهجات ، وتيسير الكتابة ، والأصول .

ودراسة اللهجات ليست من الأمور الهينة ، فهي علم حديث النشأة يرجع إلى النصف الأخير من القرن الماضى ، ويتطلب ضرباً من الانتجاع والرحلة ولا بد له أن يستعين ببعض الأجهزة والآلات ولم تعن به بعد الجامعات العربية العناية الكافية ، ومن حقنا أن نعول عليها أولا كى تمد اللغويين والمجمعيين بمادة يمكن أن يستخلصوا منها ما يستخلصون . وفى العربية لهجات قديمة وحديثة جديرة بالدرس والبحث ، وقد بذر البذرة الأولى لدراستها فى مجمعنا بعض زملائنا الأول . عرب ومستعربين ، ومنهم من كان يعد بين علماء اللهجات.

وأذكر أن الجارم حاول أن يدرس لهجة رشيد مسقط رأسه ، كما أخذ العقاد نفسه بدراسة لهجة أسوان ، ولفريد أبو حديد دراسة مفصلة فى اللهجة القاهرية . وحاول زكى المهندس أن يتابع هذا النشاط ، وأن يغذيه وينميه . فاتجه أولا إلى الجامعات ومعاهد الصوتيات ، لكى تعنى بدراسة اللهجات المعاصرة دراسة حقلية ، ولكنا لم نحظ منها حتى الآن برد يعول عليه . ولجأ ثانياً إلى كتب الأدب واللغة آملا أن يكشف فيها عن بعض اللهجات القديمة كعنعنة تميم وقضاعة . وكشكشة أسد وربيعة . وبقى حريصاً على أن يكون درس وبحث فى المجمع . . . برغم ما صادفها من صعاب ، وما أحوجنا فى هذا المضمار إلى دراسات ميدانية وبحوث متخصصة تواجه لهجات العالم العربى فى مختلف أرجائه .

واستوقفت مشكلة الكتابة العربية المجمع فى انعقاده الأول . وأخذ يعالجها علاجاً متصلا منذ سنة ١٩٣٨ ، ووقف عليها دورة كاملة عام ١٩٤٤ لمناقشة مشروع الحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى ، وأعلن المجمع بعد ذلك بقليل عن جائزة محترمة فى مسابقة لتقديم أحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية ، وما إن أعلن عن هذه المسابقة حتى استجاب لها كثيرون ، وأربت المقترحات التى قدمت للمجمع على المائتين . وقدر لى أن أشترك مع زكى المهندس فى فحص هذه المقترحات ، ولم يكن من بينها مع الأسف ما يحقق التيسير المنشود ، واتصل عملى مع الفقيد الكريم فى لجنة تيسير الكتابة العربية بانتظام .

والمشكلة فى حقيقتها مزدوجة ، هى مشكلة قراءة وكتابة معاً ، وليس من اليسير أن يقدم لها حل يعالج الجانبين معاً . واتجهت اللجنة خاصة إلى معالجة مشكلة القراءة ، فأوصت بالتزام الشكل الكامل فى كتب المرحلة الابتدائية وبشكل أو آخر الكلم فى كتب المرحلة الإعدادية . وبشكل ما يتوقع خطأ التلميذ فيه فى كتب المرحلة الثانوية ، ورحبت وزارة التربية والتعليم بذلك ، وفى هذا ما ينشئ التلميذ على القراءة الصحيحة والنطق السليم . ودرست اللجنة فى تفصيل صور الحروف والهمزات وعلامات الترقيم فى صندوق الطباعة العربية ، ورأت الاكتفاء بصورة واحدة للحرف الواحد كيفما كان موضعه فى الكلمة وخفضت صور الهمزة وعلامات الترقيم . فهبطت بصندوق الطباعة العربية إلى ١٣٥ صورة ، واقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية الذى تبلغ صوره ١١٥ .

ووضعت لذلك نموذجاً صادف نجاحاً ملحوظاً ، واخذ به كثير من دور النشر وسبك الحروف . وكم كان زكى المهندس ، وهو أستاذ خط بقدر ما هو أستاذ أدب ولغة ، عوناً للجنة فيما انتهت إليه من صور وأشكال . ولا شك فى أنا نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ،ولا تزال مشكلة الكتابة فى حاجة إلى معالجة وتيسير وليتنا نقنع بخط الرقعة كتابة ، ونعرف كيف نمكن أبنائنا من تجويده .

وأما لجنة الأصول فهى لجنة التجديد والتطوير ، لجنة التشريع اللغوى إن صح هذا التعبير ، وواجب المشرع أن يلحظ الظروف والملابسات ، وأن يسعى جاهداً إلى سد حاجات العصر ومقتضياته .

ولجنة الأصول من أهم لجان المجمع ، بدأت تعمل فى نشاط منذ دور الانعقاد الأول ، وأنتجت بعد بحث وتمحيص ، واطرد إنتاجها دون انقطاع واستطعنا عام ثلاث وستين أن نخرج ثمار هذا الإنتاج طوال ثلاثين سنة ، من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين . أخرجناه فى مجلد بعنوان: « مجموعة القرارات العلمية » ، ويقع فى أربعة أبواب : أولها « فى أقيسة اللغة وأوضاعها العامة» ، وثانيها « فى الترجمة والتعريب وكتابة الأعلام » ، وثالثها

« فى وضع المعجمات والمصطلحات » ، ورابعها « فى تيسير النحو والصرف والكتابة العربية » ، ويشتمل على ما يزيد عن ٢٠٠ قرار .

والتطوير فى شد ومد دائما بين تيارين متعارضين: تيار التيسير والتجديد، وتيار الجمود والمحافظة، وربما طغى أحدهما على الآخر . وللمجمعيين حوارهم وجدلهم ، وقد تنزع مناقشاتهم أحيانا منزعا نظرياً ، وتسمى عن قصد أكاديمية فتنسى الملاءمة بين الماضى والحاضر وتعجز عن سد الحاجة ، وتبطئ بالنهوض المنشود . عاش زكى المهندس ١٥ سنة أو يزيد رئيساً للجنة الأصول فى هذا الجو وتحت ضغط هذا التقابل ، وقد واجهه فى حضور بديهة وسرعة خاطر ، فى مهادنة ومسالمة ، فى صبر وجلد نادرين . وكثيراً ما امتد بحث الموضوع الواحد فى هذه اللجنة شهراً أو شهرين ، تقدم فيها البحوث تلو البحوث ، وتثار وجهات النظر المختلفة ؛ فكان الخاض عسيراً والوصول إلى قرارات غير يسير . ومع هذا استطاعت أن تخرج فى هذه المدة مجلدين متلاحقين « فى أصول اللغة » ظهر أولهما عام ٦٩ ، وثانيهما عام ٧٥ ويشتملان على أعمال ١٤ دورة من دورات المجمع ، وفيهما ما يكشف عما بذل فى سبيلهما من جهد صادق وعمل دائب ، أشرف عليه زكى المهندس ورعاه . فيها عود على بدء وتدارك لبعض ما فات ، أو تيسير وتجديد فى أقيسة اللغة وأوضاعها ، وفى بعض الأحكام النحوية والصرفية ، وفى بعض الألفاظ والأساليب العربية والمعربة .

رحم الله زكى المهندس بين العاملين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ورحمه الله بين المخلصين الأولياء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

خاتمة

حمل مجمع اللغة العربية راية السرايا منذ نشأته فسمى مجمع فؤاد الأول ومجمع فاروق وأستطيع أن أقرر أنه لم يفد كثيراً من هذه الراية . وكنت آمل أن يكون لها دور فى اختيار مكان ملائم له ما دام يحمل رايتها وقد بدأ أول اجتماع له فى بيت أنيق على شاطئ النيل من الجانب الغربى فى الجيزة وأعتقد أنه كان فى الإمكان أن يخصص هذا الموقع للمجمع ولكن يظهر أنه عز على المسئولين أن يشغل المجمعيون هذه الدار وقضى هؤلاء المجمعيون نحو ثلاثين عاماً أو يزيد متنقلين بين دور متواضعة مختلفة فى قلب القاهرة أو فى الجيزة ورحم الله الزميل الكريم بدر الدين أبوغازى الذى مكننا بعد أربعين عاماً تقريباً من الموقع الذى نشغله الآن على شاطئ النيل ولو تأخرنا قليلا ما وجدنا سبيلا إلى هذا الشاطئ واستطاع المقاولون العرب أن يقيموا المبنى الذى نشغله فى فترة محدودة وإن حالت الاعتمادات المالية أحياناً دون متابعة السير وأصبح لمجمع اللغة العربية المصرى مبنى يتلاءم مع رسالة مصر فى خدمة اللغة .

وتلك صعوبة ذللت بعد فترة طويلة وصادفتنا صعوبات أخرى تتعلق بالطبع والنشر وإخراج إنتاج مجمع اللغة العربية إخراجاً يتلاءم مع سمو موضوعه ومع الدور الذى انطلقت به مصر لخدمة اللغة أمام العالم العربى الإسلامى ، وكم كنا نتمنى أن تمكون هناك دار متخصصة فى هذه الناحية فتتلقى إنتاج المجمع وتقوم بإخراجه الإخراج الملائم وتشرف على توزيعه ونشره فى العالم العربى والإسلامى وطلابه كثيرون وقد يحضر بعضهم إلى دار المجمع ليحصل على ما يستطيع الحصول عليه من مطبوعات وإذا كان إنتاج المجمع فى ربع القرن الأول من حياته قليلا أو معدوماً أحياناً فإنه نما على مر الزمن فى الربع الثانى ويكفى أن أشير إلى أنه أخرج من المعجمات على سبيل المثال :

المعجم الوسيط الذى يعتبر المعجم العربى المصرى الذى يحرص طلاب العربية على اقتنائه وقد أعيد طبعه غير مرة لدى ناشرين اتجروا به ولم يستأذنوا المجمع فى شىء وأخرج أيضاً معجماً وجيزاً مستخلصاً من المعجم الوسيط

وأسعدنا أن وزارة التعليم شاءت أن تجعل منه معجماً مدرسياً لكى يحل محل مختار الصحاح .

والمجمع الآن بصدد معجم كبير اخرج منه جزاين انصب أولهما على حرف الهمزة وانصب الثانى على بعض الحروف التالية وأملنا كبير فى أن يخرج الجزء الثالث إلى النور قريباً .

واتجه المجمع أيضاً نحو إحياء التراث واخرج منه قدراً كان مهملا ككتاب « التكملة والذيل والصلة » للصغانى ، و « الجيم » للشيبانى و « كتاب الأدب » للفارابى وهو يرحب بكل تحقيق يضطلع به الباحثون فى ميدان الأدب أو اللغة .

وله معجم آخر خاص فريد فى بابه وهو معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أخرجه فى أجزاء منفصلة على مر الزمن ثم انتهى به أخيراً إلى طبعة ثالثة فى جزأين يتوالى السؤال عنهما والإفادة منهما .

هذه هى ناحية الطبع والنشر ويعانى المجمعيون فيها ما يعانون ولا يزالون يأملون فى أن تضطلع بذلك هيئة تسد الحاجة وتحقق النشر الدقيق الذى يتلاءم مع المؤلفات اللغوية .

الفهـــرس

الفصل الأول : استقبال

الفصل الثانى : تأبين

الموضوع	رقم الصفحة

(I. S. B. N - 5037 - 04 - 2)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٠٣/ ١٩٩١

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٩٥٦٦ — ١٩٩٣ — ٣٠١٢

